

العلامة محمد الحامد ومنهجه في الفقه والفتوى

1910م - 1969م

رسالة ماجستير

اعداد الطالب
فتحي عايش

اشراف
الأستاذ الدكتور / غسان حمدون

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: (ثم أورثنا الكتاب
الذين اصطفينا من عبادنا،
فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم
مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات
بإذن الله، ذلك هو الفضل
الكبير).

فاطر: 32

فهرس الموضوعات

3	المقدمة
11	الباب الأول: عصره وحياته وآثاره
12	الفصل الأول: عصره
	المبحث الأول: أهم الأحداث السياسية والدولية والإقليمية التي عايشها الشيخ محمد الحامد.
13	
16	المبحث الثاني: أهم الأحداث المحلية التي عاشرها
17	المبحث الثالث: موقفه من الأحداث
22	الفصل الثاني: حياته وصفاته الشخصية
23	المبحث الأول: نشأته وتحصيله العلمي
23	المطلب الأول: ولادته
23	المطلب الثاني: أسرته
24	المطلب الثالث: طفولته
26	المطلب الرابع: مرحلة التحصيل والطلب
31	المطلب الخامس: مكانته العلمية
34	المطلب السادس: حالته الاجتماعية
35	المبحث الثاني: تصوفه
35	المطلب الأول: التصوف
39	المطلب الثاني: التصوف عند الشيخ محمد الحامد
43	المبحث الثالث: صفاته الذاتية

43	المطلب الأول: زهده وتواضعه وورعه
48	المطلب الثاني: شجاعته وجهاده
51	المطلب الثالث: حكمته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر
55	المطلب الرابع: وفاؤه ورحمته
58	المطلب الخامس: نواذره ولطائفه
61	المطلب السادس: أدبه وشعره
66	الفصل الثالث: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته
67	المبحث الأول: شيوخه وأهم الشخصيات التي تأثر بها
74	المبحث الثاني: تلاميذه
82	المبحث الثالث: مؤلفاته
88	المبحث الرابع: أهم ما كتب عنه استقلالاً
91	الفصل الرابع: مرضه ووفاته وثناء العلماء عليه
92	المبحث الأول: مرضه ووفاته
93	المطلب الأول: ظهور المرض وتطوره
93	المطلب الثاني: السفر للعلاج
94	المطلب الثالث: وداعه الدنيا
95	المبحث الثاني: شهادات العلماء
99	الباب الثاني: منهجه في الفقه والفتوى
100	الفصل الأول: معالم منهج الشيخ محمد الحامد
101	المبحث الأول: تعريف (المنهج)
101	المطلب الأول: معنى (المنهج) في اللغة
102	المطلب الثاني: معنى (المنهج) في الاصطلاح

102	المطلب الثالث: المقصود بالمنهج عند الشيخ محمد الحامد
104	المبحث الثاني: معام منهجه
105	المطلب الأول: المذهبية والاعتداد بالنصوص
109	المطلب الثاني: السعة والشمول
112	المطلب الثالث: المزج بين الحكم الفقهي والتوجيه والإرشاد
115	المطلب الرابع: عدم التشهير بالمخالف والتنكيل به
119	المطلب الخامس: اعتبار المصلحة وتعليل الأحكام
124	المطلب السادس: سد الذرائع
127	المطلب السابع: الأخذ بالأحوط
131	المطلب الثامن: شوره واستثناسه برأى معاصريه من العلماء والفقهاء
134	المطلب التاسع: الأمانة العلمية والدقة في النقل
	المطلب العاشر: الوقوف على ظواهر النصوص مع الدقة في الفهم
138	والاستنباط
142	الفصل الثاني: فتواه في لزوم اتباع مذاهب الأئمة
144	المبحث الأول: غلق باب الاجتهاد
144	المطلب الأول: تعريف الاجتهاد
144	الفقرة الأولى: تعريف الاجتهاد لغة واصطلاحاً
145	الفقرة الثانية: موقف الشيخ محمد الحامد من الاجتهاد
148	المطلب الثاني: المقصود بغلق باب الاجتهاد
149	الفقرة الأولى: هل أغلق باب الاجتهاد؟
153	الفقرة الثانية: رأي الشيخ محمد الحامد في قضية غلق باب الاجتهاد
156	المبحث الثاني: المذهبية والتعصب المذهبي
156	المطلب الأول: تعريف المذهبية والتعصب المذهبي
157	المطلب الثاني: التقليد بين الذم والمدح
162	المطلب الثالث: الفرق بين المذهبية والتعصب المذهبي
165	المطلب الرابع: موقف الشيخ محمد الحامد من التمدد والتعصب المذهبي

169	الخاتمة
171	فهرس الآيات
173	فهرس الأحاديث
175	فهرس المصادر والمراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم —، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

فإن واقعنا يحتاج إلى إبراز المتميزين فكراً وعلماً وعملاً ليكونوا قدوات في توجيه الأمة الإسلامية اليوم.

وشرط القدوة المطلوبة للاقتداء هو: السمو في العلم والعمل، في التصور والممارسة، وغني عن القول أن الحاجة تدعوا اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى كشف النقاب عن القدوات في تاريخنا الإسلامي الحديث وتعريف أبناء الأمة الإسلامية بها، بعدما اعترى الكثير من الناس فصام نكد بين تعاليم الدين ومجريات الواقع.

وقد حفل تاريخنا الإسلامي الحديث بنماذج حية، وشخصيات فذة من أولئك الرجال الذين بذلوا ما لديهم من وسع وجهد في سبيل اقتفاء خطوات النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — واتباع سنته، والتزام شرعه فكانوا نجوماً هادية يهتدي الحيران بنورها في دياجير الظلام.

ولقد كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — أحد أولئك الأفاضل من نبلاء الرجال ودعاة الحق والمجاهدين في سبيله في عصرنا الحديث.

إن الكثرة الكاثرة من أبناء المسلمين — اليوم — يعترها جهل مطبق وغيبوبة كاملة عن كل ما من شأنه أن يرد لهذه الأمة وعيها المفقود وروحها المسلوقة وعزتها المغتصبة، وقد حاول أعداء الإسلام ضرب سور عريض بين أبناء الأمة الإسلامية وعلماؤها ودعاتها فأضحى العالم أوالداعية المسلم لا تكاد تسمع له ذكراً، في الوقت الذي فتحت كثير من وسائل الإعلام أبوابها ونوافذها لكل فنان ماجن أو كاتب مارق ليطنع في الدين أو يجعله موضع سخيرية وامتهان.

لقد امتاز الشيخ — رحمه الله تعالى — في جانب العلم والعمل، فكان علماً من أعلام المسلمين في العصر الحديث، ولكن مما يؤسف له أنه — رحمه الله تعالى — ما يزال منسياً في العديد

من جوانب شخصيته ومنهجه في ربوع العالم الإسلامي، ليس بين صفوف العامة فحسب، بل حتى بين أبناء الصحوة الإسلامية، والقليل هم الذين عرفوا هذه الشخصية الفذة بشكل متكامل في سموها وإبداعها.

أهداف البحث:

1. إحياء ذكرى القدوات المعاصرة، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي وجدت لها سوقاً رائجة لدى كثير من الشباب المسلم، ومن هذه المفاهيم الخاطئة: أن الالتزام بالإسلام كمنهج حياة ضرب من الخيال والمثالية.

2. التعريف بشخصية محمد الحامد، العالم العامل، لما تميز به من الصفات الجليلة والسلوك السوي النبيل، والحرص الشديد على دينه وإسلامه، والتكامل الرائع الذي تجلّى في شخصيته، علماً وفهماً وسلوكاً، ثم لمواقفه الرائعة التي أعطيت نموذجاً واضحاً للمسلمين، في زمن عز فيه وجود العالم التقي العامل.

3. كشف المميزات والمعالم التي بنى عليها الشيخ -رحمه الله تعالى- منهجه في الفقه والفتوى، وإبراز أهميتها في إقامة المجتمع المسلم المتناسك والشخصية المسلمة المعتدلة.

4. توضيح موقف الشيخ محمد الحامد -رحمه الله تعالى- في قضية الاجتهاد والتقليد والتزامه بأدب الخلاف في رده على المخالفين.

مصادر البحث:

يستقي البحث أهم معلوماته وأفكاره من مصدرين اثنين أساسيين:

الأول: وهو المتعلق بحياة الشيخ محمد الحامد - رحمه الله تعالى - وأهم مراحل حياته وصفاته الذاتية، فقد رجعت فيه إلى تلامذة الشيخ الذين عاصروه والتقوا به، وهي عبارة عن نقول شخصية عن عدول ضابطين من أقرانه وتلامذته ومعاصريه.

الثاني: والمتعلق بمنهجه في الفقه والفتوى وموقفه من الاجتهاد واتباع مذاهب الأئمة فقد رجعت فيه إلى مؤلفاته ورسائله وردوده وفتاويه.

وقد انتقيت من باقة إبداعاته — رحمه الله تعالى — دراسةً حياته وشخصيته ومنهجه في الفقه والفتوى باعتباره أحد كبار علماء المذهب الحنفي — رحمه الله تعالى — في زمنه، وقد قسمت موضوع البحث إلى باين:

تناولت في الباب الأول: عصره وحياته وآثاره.

وقسمته إلى أربعة فصول:

تحدثت في الفصل الأول عن عصره وأهم الأحداث الدولية والإقليمية والمحلية التي عاصرها الشيخ — رحمه الله تعالى — وموقفه منها؛ فقد تميزت المرحلة التي عاشها الشيخ — رحمه الله تعالى — بجملة من التحولات التي عرفتها بلاد الشام خاصة، وغيرها من البلدان الإسلامية عامة كسقوط الخلافة العثمانية، واستيلاء المستعمر على العالم الإسلامي وتقسيمه إلى دويلات بمقتضى اتفاقية سايكس - بيكوالسرية، واندلاع حربين عالميتين، واندلاع الثورة البلشفية في الاتحاد السوفياتي، وصدور وعد بلفور المشؤوم بإنشاء وطن لليهود في فلسطين، وغيرها من الأحداث الخطيرة.

أما على المستوى المحلي فقد شهدت سورية — كغيرها من بلدان العالم الإسلامي — استعماراً فرنسياً، ووحدة بينها وبين مصر، وحالة من الاضطراب السياسي حيث بلغ عدد الانقلابات الظاهرة عشرة انقلابات، وغير ذلك، وتأسست أحزاب علمانية قوية وقامت بثروات وأحداث دامية وقلقل..

وقد كانت للشيخ — رحمه الله — مواقف جريئة وصريحة من كل هذه الأحداث.

أما الفصل الثاني فقد تحدثت فيه عن ظروف نشأة الشيخ الشاقفة، ومعاناته الفقر واليتم في سن مبكرة وعن تحصيله العلمي ابتداءً من المرحلة الابتدائية بحماة إلى أن تخرج من الأزهر الشريف بمصر مروراً بالمدرسة الشرعية في حماة والمدرسة الخسروية في حلب، كما تطرقت إلى ذكر مكانته العلمية وجهوده في نشر العلم الشرعي في حماة وخارجها، كما تحدثت في هذا الفصل عن تصوفه؛ حيث قدمت لهذا المبحث بلمحة موجزة عن نشأة التصوف وتعريفه ومفهومه لدى محمد الحامد، أما عن صفاته الذاتية فقد تحدثت عن زهده وتواضعه وورعه، وشجاعته وجهاده، وحكمته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ووفائه ورحمته، ونوادره ولطائفه، وأدبه وشعره وكل ذلك في مباحث ثلاث.

وخصص **الفصل الثالث** لشيوخته وأهم الشخصيات التي تأثر بها وأهم تلاميذه ومؤلفاته وأهم ما كتب عنه استقلالاً وذلك في أربعة مباحث.

وفي ختام هذا الباب أفردت فصلاً رابعاً عن مرضه الذي مات فيه، وسفره للعلاج ووفاته، وشهادات العلماء وثنائهم عليه وذلك في مبحثين.

وأما **الباب الثاني فقد قسمته إلى فصلين**، تحدثت في **الفصل الأول** منهما عن **معالم منهجه في الفقه والفتوى**، قدمت له بتعريف موجز عن (المنهج) وماذا يقصد به لدى الشيخ محمد الحامد، ثم تحدثت عن معالم هذا المنهج التي توصلت إليها من خلال الاستقراء وضبطتها في عشرة معالم رئيسة على النحو الآتي:

المذهبية والاعتداد بالنصوص، السعة والشمول، المزج بين الحكم الفقهي والتوجيه والإرشاد، عدم التشهير والتنكيل بالمخالف، اعتبار المصلحة وتعليل الأحكام، سد الذرائع، الأخذ بالأحوط، شوره واستئناسه برأي معاصريه من العلماء والفقهاء، الأمانة العلمية والدقة في النقل، الوقوف على ظواهر النصوص مع الدقة في الفهم والاستنباط، وقد تم الحديث عن كل معلم من هذه المعالم بشيء من التفصيل مع الاستدلال عليها بأقوال الشيخ وآرائه الموثقة في مصنفاته.

وخصص **الفصل الثاني** للحديث عن فتواه في لزوم اتباع **مذاهب الأئمة**، فقسمته إلى مبحثين، تحدثت في المبحث الأول عن تعريف الاجتهاد لغة واصطلاحاً، وموقف الشيخ محمد الحامد منه، ثم تطرقت لقضية غلق باب الاجتهاد، وهل أغلق فعلاً أم لا؟ وآراء العلماء في ذلك، أم المبحث الثاني فقد تحدثت في المذهبية والتعصب المذهبي وعرفت كل منهما وقمت بمقارنة بينهما، ثم تحدثت عن التقليد المذموم والممدوح وبينت موقف الشيخ - رحمه الله تعالى - من كل ذلك.

وختمت البحث ببعض النتائج والخلاصات.

هذا ما تيسر جمعه وتدوينه، فما فيه من صواب ومن خير فهو من الله - سبحانه وتعالى - وما فيه من خطأ أو تقصير فمني، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الباب الأول: عصره وحياته وآثاره

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: عصره

الفصل الثاني: حياته وصفاته الشخصية

الفصل الثالث: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته

الفصل الرابع: مرضه ووفاته وثناء العلماء عليه

الفصل الأول: عصر الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى

تميزت المرحلة التي عايشها الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — (1910م — 1969م) بجملة من التحولات التي عرفت بها بلاد الشام وغيرها من البلدان الإسلامية، مثل سقوط الخلافة العثمانية، وتكالب الدول الاستعمارية على بلدان العالم الإسلامي، وما نتج عن ذلك من ردود فعل هذه البلدان التي انتهزت للمواجهة الشاملة ضد الاستعمار. وستحدث في هذا الفصل عن أهم الأحداث السياسية الدولية والإقليمية والمحلية التي عاصرها الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — وموقفه منها وذلك في ثلاثة مباحث، على النحو الآتي:

المبحث الأول: أهم الأحداث السياسية الدولية والإقليمية التي عاصرها الشيخ محمد الحامد

— رحمه الله تعالى

المبحث الثاني: أهم الأحداث السياسية المحلية.

المبحث الثالث: موقفه من هذه الأحداث.

المبحث الأول: أهم الأحداث السياسية الدولية والإقليمية التي عاصرها الشيخ محمد الحامد

اتسم عصر الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — بأحداث دولية وإقليمية خطيرة يمكن إجمالها في الآتي:

1 — إلغاء الخلافة العثمانية الإسلامية عام (1924 م) كنظام سياسي، وهو ألمع حدث في التاريخ الإسلامي، حيث كان يهود الدونمه الذين تغلغوا في حزب الاتحاد والترقي يقفون وراءه، فلأول مرة يظل المسلمون بدون خلافة، كرابطة سياسية — على ما فيها من ضعف — وهو ما أدى إلى تمزيق العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة وضعيفة متناحرة، رضخ معظمها — إن لم يكن كلها — تحت سيطرة الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي، الذي عمل على نهب ثروات العالم الإسلامي، وإشاعة الفوضى والتخلف في أرجائه، وإثارة النعرات العرقية والطائفية، فظهرت الدعوة إلى العرق الطوراني في تركيا، وإلى العرق الفارسي في إيران، وإلى العرق العربي في كل من مصر ووسورية والعراق وفلسطين وتونس..

— الثورة العربية واتفاق (سايكس — بيكو)¹ في عام (1916م): وزعت تركيا الخلافة العثمانية بين بريطانيا وفرنسا طبقا للاتفاق السري المعروف باتفاق (سايكس — بيكو) الذي قُسمت بموجبه الدولتان تركيا الخلافة الإسلامية العثمانية، واستطاعت بريطانيا أن تخدع كثيرا من العرب بوعدها بإقامة خلافة قرشية هاشمية في حالة ثورتهم على الخلافة العثمانية، فتزعم الشريف حسين وابنه فيصل الثورة وذلك عام 1916م — غير أن البريطانيين نكثوا عهدهم فاحتلوا بلاد الشام والعراق واقتسموا الكعكة العربية مع شركائهم الفرنسيين بناء على اتفاقية (سايكس — بيكو)².

¹ — سايكس: عضو البرلمان البريطاني والمندوب البريطاني في الشرق، وبيكو: هو قنصل فرنسا في بيروت.

² — مجلة المجتمع العدد (1466) بتاريخ 1 / 9 / 2001 م

— اندلاع حربين عالميتين: الأولى (من سنة 1914 إلى سنة 1918 م) والثانية (من سنة 1939م إلى سنة 1945م)، وقد خلفتا من الأحداث السياسية والاقتصادية والخسائر البشرية والمادية ما يزال العالم العربي يتجرع مرارته إلى الآن.

— اندلاع الثورة البلشفية سنة (1917 م) وميلاد الاتحاد السوفياتي كقوة عالمية عظمى، وسيطرة النظام الشيوعي على زمام الحكم فيه، وقد سعى النظام الشيوعي منذ اليوم الذي اعتلى فيه سدة الحكم إلى فرض (العقيدة الشيوعية الإلحادية) بقوة الحديد والنار على شعوب الاتحاد فأذاق أهلها سوء العذاب، كما دعا إلى جعلها — أي العقيدة الشيوعية — عقيدة أممية في بقية بلدان العالم، فأفرزت فوضى عارمة في مختلف مناحي الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وكان معظم العالم العربي اكتوى بنيران هذه العقيدة.

— صدور وعد بلفور¹ المشؤوم بتاريخ (2 / 11 / 1917 م) والمتضمن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، أيده الرئيس الأمريكي (ويلسون)، ثم أيده الحكومة الفرنسية لاحقاً عام (1918)، مما أثار حفيظة العرب آنذاك حيث كانت كثير من الدول العربية يقع تحت الاستعمار البريطاني والفرنسي والإيطالي، والغريب أن اليهود كانوا يشكلون 2% من السكان في فلسطين في ذلك الوقت في حين كان المسلمون يمثلون 94%².

— صدور قرار تقسيم فلسطين: صدر قرار تقسيم فلسطين من الأمم المتحدة في 29 / 11 / 1947م والذي ينص على تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، عى أن تكون بينهما وحدة اقتصادية، وحاز هذا القرار أغلبية الثلثين بدعم أمريكي مطلق كما أيده الروس بحماس شديد³، وتبلغ مساحة الدولة العربية 12000 كلم² (أي 43% من مساحة فلسطين) في حين تبلغ مساحة الدولة اليهودية 14200 كلم² (أي 56% من مساحة فلسطين) والتي تعتبر من أحصب الأراضي الفلسطينية، أما الأماكن المقدسة فتشمل مدينة القدس ومنطقتها فتوضع تحت

¹ — وزير خارجية بريطانيا.

² — مجلة المجتمع العدد (1466) بتاريخ 1 / 9 / 2001

³ — مجلة المجتمع العدد (1500) بتاريخ 11 / 5 / 2002م.

الوصاية الدولية ويعين مجلس وصاية للأمم المتحدة حاكما غير عربي وغير يهودي لهذه المنطقة¹ (وتبلغ مساحتها 1 %)².

— وعلى إثر صدور قرار التقسيم اجتاح العالم العربي والإسلامي موجة من السخط والغضب، فخرجت المظاهرات الصاخبة تندد بهذا القرار الظالم الذي أضع حقوق العرب والمسلمين في فلسطين، كما انتفضت المقاومة الشعبية في كل من مصر وسورية والعراق والأردن للمشاركة في جهاد المعتدي ورد عدوانه، حيث كان لهذه المقاومة دور جهادي بارز مما حدا (بموشي ديان) — وزير الدفاع الإسرائيلي — عندما سئل بعد الحرب بقليل عام 1967م عن السبب الذي من أجله تجنب اليهود محاربة المتطوعين في بيت لحم والخليل والقدس أن يقول: إن الفدائيين — يقصد المتطوعين — يحاربون بعقيدة أقوى من عقيدتنا، إنهم يريدون أن يستشهدوا ونحن نريد أن نبي أمة، وقد جربنا قتالهم فكبدونا خسائر فادحة.. لذا فنحن نحاول قدر الإمكان أن نتجنب الاشتباك معهم)³.

ومن المهم الإشارة هنا باختصار إلى أسباب قيام دولة إسرائيل وضياع فلسطين، ذلك أن الجيوش العربية التي تم تجنيدها لتحرير فلسطين وسميت يومها بجيش الإنقاذ، لم تكن بمستوى الآمال التي علقها عليها الأمة، فلم تكن مستعدة الاستعداد الكافي، حيث كانت بعض أسلحتها فاسدة لا تصلح لأي عمل عسكري⁴. ومما يروى لنا الدكتور مصطفى السباعي — رحمه الله تعالى — وأحد أهم المتطوعين في هذه الحرب — في مجلة حضارة الإسلام الدمشقية: "أن جيش الإنقاذ الذي شكلته الجامعة المصرية ووكلت قيادته إلى فوزي القاوقجي لم يكن إلا تسكينا لشعور العرب الهائج في كل بلد، وأنه لم يكن يقصد منه جديا أن يقاتل ويمنع سقوط المدن والقرى بأيدي اليهود".

— حرب حزيران (5 — 10 حزيران / يونيو 1967 م): قام الكيان الصهيوني في 5 حزيران / يونيو عام 1967 باحتلال كل من مرتفعات الجولان بسورية وشبه جزيرة سيناء

¹ — يلاحظ أن قرار التقسيم جاء مشاهما لمطالب الوكالة اليهودية في مؤتمر لندن عام 1946 مما يؤكد مدى سيطرة الصهيونية على قرارات هيئة الأمم المتحدة منذ نشأتها.

² — موقع على الانترنت بعنوان: www.altareekh.com

³ — مجلة المجتمع العدد رقم (1500) بتاريخ 11 / 5 / 2002.

⁴ — نفس المصدر.

التابعتين لمصر والقدس والضفة الغربية بالأردن، وانتهت الحرب بعد ستة أيام فقط بنصر إسرائيل وهزيمة نكراء للجيش العربي، بل وتمكنت القوات الجوية الإسرائيلية من تدمير القوات الجوية المصرية كلياً وهي ما تزال رابضة في قواعدها.

المبحث الثاني: أهم الأحداث السياسية المحلية التي عاصرها الشيخ محمد الحامد

— احتلال فرنسا لسورية عام (1920م) وثورة الشعب السوري بحماة ضد الاستعمار الفرنسي عام (1945 م) إلى أن نالت سورية استقلالها في 17/4/1946م، وكان لتوفيق الشيشكلي دور جهادي بارز في دحر المستعمر في حماة، كما أشاد الشيخ علي الطنطاوي — رحمه الله تعالى — في مذكراته بدور حسن الخراط — أحد القادة المجاهدين — ضد الاحتلال، وبالمجاهدين بالنبك وجبالها وحماة وسهولها وبعض المجاهدين كسعيد العاص الحموي وسلطان الأطرش ومحمد الأثمر وعشرات وعشرات¹.. وكان مقر قيادة النضال الشعبي — يومذاك — ومصدر روح الجهاد.. في الجامع الأموي بدمشق².

وقد خلفت مقاومة المستعمر الفرنسي في سورية — كما يروي الرئيس السوري الأسبق أمين الحافظ — 100 ألف شهيد³.

— إعلان الوحدة بين مصر وسورية من سنة 1958 إلى 1961 م حيث كان حكومة الوحدة برئاسة جمال عبد الناصر.

— كثرة الانقلابات السياسية وعدم الاستقرار السياسي حيث بلغ عدد الانقلابات الظاهرة التي وقعت في سورية وتغيرت أنظمة أو أشخاص الحكم نتيجة لها عشرة انقلابات كانت على التوالي:

1 — انقلاب حسني الزعيم في 30 / آذار / 1949 م.

2 — انقلاب سامي الحناوي في 14 / 8 / 1949 م.

¹ — انظر: مذكرات علي الطنطاوي (5 / 231).

² — نفس المصدر (2 / 65).

³ — حوار مع الرئيس السوري الأسبق أمين الحافظ في برنامج شاهد على العصر في قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ 18 / 6 / 2002م.

3 — انقلاب أديب الشيشكلي في 29 تشرين الثاني 1951.

4 — الانقلاب ضد أديب الشيشكلي قام به الضابط مصطفى حمدون في 25

شباط 1954 م وجاء بعده وضع ديمقراطي دستوري بدأت فيه مقدمة سيطرة اليسار على الحكم عن طريق الجيش.

5 — الانقلاب العسكري الصامت الذي توج بإعلان الوحدة في 22/2/1958م.

6 — انقلاب الثامن والعشرين من أيلول عام 1961 وكان الانفصال عن مصر نتيجة

له.

— انقلاب 8 آذار 1963م، وجاء على إثره نظام الحكم الذي ضم حزب البعث

والضابط زياد الحريري والناصرين.

— انقلاب 23 شباط 1966 م الذي أطيح فيه بالرئيس أمين الحافظ.

هذه هي تقريبا مجمل أهم الأحداث الدولية والإقليمية والمحلية التي كانت في عصر الشيخ

محمد الحامد — رحمه الله تعالى — فماذا كان موقفه؟

المبحث الثالث: موقفه من الأحداث السياسية التي عاصرها

لم يقف الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — وهو الذي نذر نفسه لله وللخدمة دينه أمام هذه الأحداث مكتوف اليدين، وهو يرى ما يحاك لدينه وأمته ووطنه من مؤامرات وتحديات خطيرة، وإنما ساهم في إعادة صياغة واقع الأمة المتردي وإصلاح ما اعتراه من ضعف وفرقة وانحلال فكري وخلقي، ويمكن إجمال أهم مواقفه في الآتي:

— كان الشيخ محمد الحامد منذ نعومة أظافره يدعو الله — سبحانه وتعالى — أن يريه خروج المستعمر الفرنسي كما شاهد دخوله¹ ولذلك شب على كراهية المحتل ومقاومته، فبعد أن أنهى دراسته في مصر وعاد إلى حماة عام 1942 م، وقد كانت البلاد في ذروة جهادها الوطني من أجل الحصول على الاستقلال، بدأ في التحريض على جهاد الأعداء وقتال الفرنسيين، وتطهير

¹ — العلامة المجاهد محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 37)

الأرض من رجسهم، وقد حاربهم من فوق منبر جامع السلطان، حيث يقول في إحدى خطبه " أما بعد: فالمعهد بإزالة النجاسة استعمال الماء وإن تفاحش غلظها أضيف عليه التراب.. ولكن هناك نجاسة لا بستنا ربع قرن، ولا ينفع في إزالتها ماء ولا تراب، إذ ليس ما يقلعها إلا الحديد والنار"¹.

كما دعا في خطبه إلى الجهاد والثورة المسلحة ضد المستعمرين يقول: " أيها المسلمون، أعدوا أنفسكم للجهاد، وطنوها على الموت، موت شريف خير من حياة تعيسة، ضربة بسيف في عز خير من صفقة بيد في ذل"².

لقد كان لتوجيه الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — أثر طيب في نفوس الحمويين الذين دأبوا على مقاومة الاستعمار الفرنسي بالحديد والنار، ومن يوم وجههم لذلك لم يرتح الاحتلال الفرنسي في هذه المدينة، حتى أن مجاهدي حماة قاموا أخيرا (عام 1946 م) بتطويق الثكنة العسكرية للفرنسيين من كل الجهات، ومنعوا دخول أو خروج أي شيء إليها، فقام الطيران الفرنسي بقصف المدينة وتزويد الثكنة عن طريق الجو بما تحتاج من طعام وشراب وذخائر فأسقط المجاهدون طائرة منها ببنادقهم.. ولم يفكوا الطوق عن الثكنة العسكرية لمدة طويلة، وعلى إثر ذلك جاءت حملة عسكرية فرنسية جبارة مدحجة بالدبابات والمصفحات والمدفعية، فخرج إليها مجاهدوا حماة في منطقة باب طرابلس بعد مقبرة باب البلد إذ ذاك، ودارت رحى معركة طاحنة قدم فيها الشهداء دماءهم، وزاد المجاهدين حماسة أن في قيادة المعركة توفيق الشيشكلي — رحمه الله تعالى — وبجانبه الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — إذ وجوده يشد من أزر المجاهدين، وتقدم المجاهدون أخيرا إلى بعض الدبابات ورفعوا أعطيتها وقتلوا سائقيها ورماتها وكسروا الحملة الفرنسية فانتصروا عليها، فأتجه الباقي من الحملة الفرنسية إلى الثكنة العسكرية لفك الطوق عنها، واستطاعت ذلك، ولكن فقدت قائد الحملة إذ قتله أحد المجاهدين وهو جالس يخطط لاقتحام المدينة، وسار المجاهدون إلى وسط المدينة بالدبابات التي غنموها بباب طرابلس وسط أفراح عظيمة بالنصر، وقرر الجيش الفرنسي في ذلك الوقت الانسحاب من حماة خاصة؛ لكن بشرط أن يترك

¹ — المصدر السابق (ص 37).

² — المصدر السابق (ص 37، 38).

الجيش الفرنسي وأنصاره أسلحتهم في الثكنة العسكرية وينسحب كل واحد منهم أعزل من غير سلاح ليسلم بروحه، كما انسحب الجيش الفرنسي من سورية عامة بفضل الله تعالى ثم بتوجيهات العلماء العاملين كالشيخ محمد الحامد — رحمهم الله تعالى — وجهاد المجاهدين في سبيل الله تعالى، ولا زالت ساحة النصر لمجاهدي حماة بنصبها التذكاري¹ حتى الآن تشهد بما فعل المجاهدون في حماة^{2 3}.

كان الشيخ — رحمه الله تعالى — يحث تلامذته وإخوانه على الالتحاق بالمؤسسة العسكرية وأداء الخدمة الإلزامية في الجيش، ويجب كل من يستشيريه منهم متهربا من الخدمة بأن لا يكون سبة على التاريخ، يروي عنه تلامذته قوله: "إن الزمن الذي تحل فيه الأمور من فوق المنابر ذهب وولى، إن استخدام القوة خير وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل لذلك لا يمكن إرجاع الأراضي التي احتلها الصهاينة إلا بالقوة"⁴.

— ولما وقعت مأساة فلسطين وصدر قرار التقسيم كان الشيخ — رحمه الله تعالى — في مقدمة العلماء والزعماء المثيرين للهمم، الشاحدين للعزائم.. وقد وطن نفسه مع أخيه الدكتور مصطفى السباعي — رحمه الله تعالى — لخوض غمرات الجهاد، لولا تشدد إخوانه في منعه من مغادرة حماة، يقينا منهم أن بقاءه في قلب الجمهور أنفع للقضية من مشاركته في القتال⁵. كتب في كتابه (ردود على أباطيل) يقول: "حالنا مع اليهود عقدة لا تحلها إلا القوة"⁶ ويرى الشيخ

¹ — أسسها بنصبها التذكاري محافظ المدينة (ياسين الفرجاني — جزاه الله خيرا) — في أيام الوحدة مع مصر اعترافا بفضل مجاهدي حماة.

² — لقد كان لحماة دور جهادي قدم مع نور الدين الزنكي (الشهيد) وصلاح الدين الأيوبي في حروبهما ضد الصليبيين، ومكافأة لأهل حماة وكتوصية بتحرير القدس جهز نور الدين الزنكي منبرين، وضع الأول في مدينة حماة في جامع النوري (نسبة لاسمه) وهو اليوم في متحف حماة، أما المنبر الثاني فقد أوصى بوضعه في المسجد الأقصى بعد تحرير القدس، وحقا وضعه صلاح الدين الأيوبي في المسجد الأقصى لكن أحرقه الصهاينة عام 1969 م وادعوا أن اليهودي الذي قام بحريق المسجد مجنون.

كما كان لحماة دور جهادي بعد الصليبيين في محاربة التتار فقد قاتل الملك المظفر بجيوشه المصرية في معركة عين جالوت وقاتل معه مجاهد وحماة قال الحافظ ابن كثير: "وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماة مع الملك المظفر قتالا شديدا وكذلك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب" انظر البداية والنهاية للحافظ أبي الفداء ابن كثير دمشقي المتوفي سنة 774 هـ (13 / 222).

³ — نقول شخصية عن عدد من الأشخاص.

⁴ — نقول شخصية.

⁵ — علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب (ص 240).

⁶ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 444).

— رحمه الله تعالى — في مثل هذه المواطن أن القتال فرض عين على كل مسلم ومسلمة حتى تعود كل ذرة تراب من أرض المسلمين إلى حوزة المسلمين ولو كانت في أقصى الأرض.. فكيف بها إذا كانت أرض فلسطين والمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين¹.

وبذل ما في وسعه لنصرة هذه القضية المصيرية " فانضم إلى اللجان المشكلة لأجل مساعدة اللاجئين، ومواساتهم وجمع المعونات المادية لهم، وكان يطوف على الناس بنفسه لهذا الغرض، كما خصص للقضية الفلسطينية الكثير من الخطب وكتب عنها عددا من المقالات في الصحف والمجلات"².

كما كان له دور بارز في أحداث حماة عام **1964** م، لقد واجه الشيخ هذه الأحداث الأليمة بشجاعة وحوار السلطة بصراحة وحكمة، فاستجاب رئيس الدولة أمين الحافظ لمطلبه بإلغاء أحكام الإعدام وإطلاق سراح المعتقلين وإعادة بناء جامع السلطان ثم هدأ الأوضاع في حماة³.

ولما وقعت نكسة حزيران / يونيو **1967** م اتصل رحمه الله تعالى بمحافظ البلد، وعرض عليه نفسه وجهوده، وأخذ يشد من عزيمة الناس، ويعمل على تقوية معنوياتهم ويدعوهم إلى التدريب على السلاح، وقد خرج بنفسه — رحمه الله تعالى — إلى حقول التدريب والرمي، ليتدرب على إصابة الهدف بصورة عملية⁴ بل لقد اندفع بحسن تدريسه وتربيته وبيانه لأهمية الجهاد عدد من الشباب في المدينة للقتال في فلسطين، وتأسس معسكر على الحدود الأردنية الفلسطينية للسوريين الإسلاميين خاصة وهو تابع لمنظمة فتح وقام هؤلاء الشباب بعمليات قتالية بطولية ضد الصهاينة عام **1968** م وقدموا شهداء منهم: مهدي الإدلي وزهير سعدو ونصر عيسى⁵ من تلاميذ الشيخ محمد الحامد — رحمهم الله تعالى.

¹ — نقول شخصية.

² — العلامة المجاهد محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 39).

³ — نقول شخصية وحوار مع الرئيس الأسبق لسورية أمين حافظ في برنامج شاهد على العصر بقناة الجزيرة بتاريخ 18 / 6 /

2001م، انظر مجلة المجتمع الكويتية العدد (1399) بتاريخ 15 / 5 / 2000 م.

⁴ — نقول شخصية.

⁵ — نقول شخصية.

— كما وقف بشجاعة وشدة لا هوادة فيها أمام الأفكار الإلحادية التي جاءت بها أحزاب علمانية، فقدم الشيخ — رحمه الله تعالى — نصائحه وحذر من أن هذا الذي يدعوا إليه دين جديد يخالف دين الإسلام ويخرج معتنقه من الملة، وقاس في سبيل ذلك كثيراً من الإيذاء والتهديد وكان ثابتاً كالطود الراسخ.

الفصل الثاني: حياته وصفاته الشخصية

وينقسم إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نشأته وتحصيله العلمي

المبحث الثاني: تصوفه

المبحث الثالث: صفاته الذاتية

المبحث الأول: نشأته وتحصيله العلمي

المطلب الأول: ولادته

ولد الشيخ محمد الحامد سنة 1328 هـ / 1910 م بحماة، بين العيدين.. الفطر والأضحى.. وكانت ولادته بعد انقطاع حمل أمه عدداً من السنين كما يروى الشيخ عبد الحميد طهماز¹.

المطلب الثاني: أسرته

نشأ الشيخ محمد الحامد — رحمه الله — في أسرة عرفت بالورع والتقوى والتصوف المنضبط بالكتاب والسنة، فوالده الشيخ محمود الحامد، أحد علماء حماة ووجهائها، وشيخ الطريقة النقشبندية فيها وقد كان " على جانب كبير من الصلابة الدينية والورع، عفيف النفس، كريم القلب، يعيش من كتابه الذي أنشأه لتعليم الأطفال القراءة والكتابة " ².

توفي الشيخ محمود الحامد في جوائح البؤس والمرض التي عمت بلاد الشام ابان الحرب العالمية الأولى ³.

كتب مفتي حماة السابق الشيخ محمد سعيد النعسان — رحمه الله — في مذكراته، يوم الاثنين 26 من شهر ربيع الأول 1334 هـ فقال: " وفي اليوم نفسه كانت وفاة المرحوم الشيخ محمود الحامد .. وكان الشيخ محمود المذكور من الصالحين الجامعين على الله.. وكان لجنازته وقع في نفوس الحمويين، خرج فيها كثير من أهل الطرق والأعيان" ⁴.

وبالرغم من قصر المدة التي عاشها الشيخ محمد الحامد — رحمه الله — في كنف والده الذي توفي وقد كان له من العمر يومئذ ست سنوات، بالرغم من كل ذلك، فقد ترك الوالد

¹ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 12).

² — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 10).

³ — نقول شخصية.

⁴ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 11).

بصماته الواضحة على ابنه الناشئ، ونحت فيه بعض معالم شخصيته الحازمة فغرس فيه بذور الزهد والتقوى.

ويحدثنا الشيخ محمد الحامد عن نفسه عندما سئل عن الرحمة التي أودعها الله في قلوب الآباء والأمهات فيقول: " أما أنا فإن أجبت عن هذا السؤال، فالجواب يكون بلسان العلم بما شاهدته من أحوال الناس، لا بلسان الذوق والوجدان التام، إذ إني منيت بفقد أبوي وأنا طفل يافع، لا أقدر على التمييز والتفرقة بين الأمور التي تحتاج إلى نظر وتفكير، على أني لا أزال أذكر من عهد الصبا أني كنت أفرق وأخاف، فأجد من أمي — رحمها الله تعالى — ملجأ وملاذا أحتمي به وأخلص من الضرب وإني غير ناس امتناها علي — رحمها الله تعالى بذلك ¹ .

أما أمه فهي السيدة كوكب بنت الشيخ عبد الغني الجابي، من بيت اشتهر بالعلم والشعر، شقيقة الشيخ سعيد الجابي أحد علماء حماة وأعلامها، ذائع الصيت في تمسكه بالكتاب والسنة وله المواقف الجريئة في وجه المستعمر أيام الانتداب الفرنسي على سورية.

عاش الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — يتيم الأبوين مع أخيه الأصغر عبد الغني ² يرعاهما أخوهما الأكبر بدر الدين ³ الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، وكان يكبر الشيخ بتسع سنوات، عند وفاة أبويهم، فكان لهما نعم الأب والمربي والمهذب، فذاق — رحمه الله — منذ بداية حياته مرارة اليتيم وألم الحاجة ⁴ .

المطلب الثالث: طفولته

فجع الشيخ في السادسة من عمره بوفاة أبيه وفي نفس السنة فجع بوفاة أمه، مما كان له أثر كبير على نفسه وهولا يزال في مرحلة الطفولة فتذوق مرارة الفقر والحرمان واليتم عددا من السنوات.

وما أصعب تلك اللحظات عندما كان الوالد مريضا مرض الموت، وقد اشتد به القلق على أولاده، خاصة وأنه لم يتمكن في خلال حياته كلها أن يوفر لهم شيئا من المال يتركه لهم والبلاد

¹ — المصدر السابق (ص 11).

² — الذي أصبح فيما بعد مدرسا للأدب العربي في ثانويات حماة، كما كان شاعر مجيدا — نقول شخصية.

³ — هو أديب وشاعر، لقب بشاعر العاصي (نهر) ولم يترك حدثا وطنيا أو اجتماعيا إلا سجله بأشعاره، وله ديوان ضخيم طبع بعضه ولم يطبع الجزء الآخر — نقول شخصية.

⁴ — نقول شخصية عن عدد من تلامذته وانظر علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجذوب (ص 235).

تلفها المجاعات والأوبئة طيلة الحرب العالمية الأولى، فأخذ يبحث عن وصي يوصيه عليهم، فلم يجد أحداً لأن كل إنسان ينشغل خلال الأزمات بنفسه، فما كان منه إلا أن أوصى عليهم الله، فكان يردد في مرض وفاته " إني أوصي الله على أولادي " ¹.

كانت طفولته في غاية من المشقة والفاقة، محفوفة بالآلام والأوجاع، ويبدو لنا ذلك من خلال الكلمات المحزنة التي أفضى بها لتلميذه عبد الحميد طهماز حيث قال له: " لو كان لليتيم لسان يبين به عن لوعاته وآلامه لأبكى الحجارة الصماء، مرت بنا أيام كنا كثيراً ما نبقي في المدرسة في فرصة الغداء دون طعام، معظم التلاميذ يذهبون إلى بيوتهم، ونحن نبقي في المدرسة لأنه لم يكن لنا بيت ولا طعام، حتى إن أخي كان يبكي أحياناً من شدة الجوع، أما أنا فكنت أشغل نفسي باللعب عن آلام الجوع " ².

ولنستمع لشقيقه الأستاذ عبد الغني الحامد يحدثنا عن هذه المرحلة العسيرة من حياتهم فيقول: " رزئ محمد بموت أبيه وهو في السادسة من عمره، وفي أقل من سنة بعد وفاة أبيه، وتوفيت والدته، فأصبح يتيم الأبوين، وكان قد انقطع بموت أبيه مورد العائلة من المال، فلم يكن أخوه الأكبر بدر الدين قد زاول من قبل ذلك عملاً، فهولاً يزال يومئذ طالباً في المدرسة الإعدادية، لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر. فاجتمع الرأي من الأقارب والجيران على تفريغ دار العائلة، وإيجارها لمدة طويلة، ويبيع جميع ما فيها من الأثاث والمؤن، وحفظ المال المتجمع عند رجل أمين، ليكون هذا المال نفقة لمحمد وأخيه الأصغر عبد الغني، بعد أن أخذ بدر الدين حصته منه لينفقها على نفسه في إتمام دراسته. لكن بدر الدين قطع تحصيله الثانوي، والتحق بمدرسة دار المعلمين بدمشق، يختصر بها الطريق في الوصول إلى عمل يتدارك به أمور المعيشة له ولأخويه.

وخرج محمد وعبد الغني من الدار وهما طفلان صغيران، لم يحملها منها إلا أمتعة النوم والثياب، وألحقا أول الأمر ببيت عمهما، ثم صاروا ينقلان إلى بيوت أخرى متعددة من بيوت الأسر الفقيرة: بيت منها لأرملة ذات أولاد، وبيتان لرجلين متزوجين ذوي أولاد كثيرين، فيضمان إلى أفراد كل أسرة من هذه الأسر على التوالي بأجور من المال معينة، تدفع لكل أسرة مما هو محفوظ لهما عند الرجل الأمين. وكانت هذه الأسر تسكن في أطراف البلد، وتعيش في حالة بؤس وفقر

¹ — العلامة الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 14).

² — نفس المصدر (ص 14) ونقول شخصية.

شديد، بيوتها من اللبن والطين، وأرض دورها من التراب، وطعامها خشن قليل، قلمما يشبع، والدنيا كلها يومئذ تلفها مجاعة الحرب العالمية الأولى، فيذهب الجوع كل يوم بالعثرات.

ودامت الحال بمحمد وأخيه الأصغر هكذا مدة سنتين، كان بدر الدين خلالها يتردد عليهما آتيا من دمشق، فيأسى كل الأسى حين يراهما في بيوت تلك الأسر ويرى الحرمان الذي يعانيانه عندها من كل شيء، وكيف كانا يعيشان بين أولادها الغارقين في الجهالة والإهمال، مما حملة على قطع دراسته في دار المعلمين، والعودة إلى حماة ليتولى شأنهما، ويسعى في طلب الرزق لإعاشتهما وتعليمهما، ولا سيما أن المال المدخر قد أوشك على النفاد¹.

المطلب الرابع: مرحلة التحصيل والطلب

كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — شغوفاً بطلب العلم، يقدمه على كل اللذائذ المادية، والمتع الحسية، ولذلك توجه لطلب العلم بجد واجتهاد، ونهم وهمة عالية يساعده في ذلك ذكاؤه الخارق وملكاته الفطرية، يقول عن نفسه " لوأني خيرت بين الملك والعلم لاخترت العلم على الملك والسلطان "².

ويمكن تقسيم هذه الفترة الهامة من حياته إلى أربعة أقسام:

1. المرحلة الابتدائية.
2. المدرسة الشرعية في حماة.
3. المدرسة الخسروية الشرعية في حلب.
4. المرحلة الجامعية في مصر.

1. المرحلة الابتدائية:

بالرغم من ظروف البؤس والجوع التي كانت تلف هذه الأسرة الصغيرة وما يعصف بها من رياح الفاقة والحاجة فإن الأخ الكبير بدر الدين ظل وفيًا لأخيه محمد فلم يغفل عن تعليمه، حيث

¹ — العلامة المجاهد محمد الحامد للشيخ عبد الحميد طهماز (ص 15، 16)..

² — مجلة حضارة الإسلام 0 (العدد الثالث — السنة العاشر 1969 م) عدد خاص بالشيخ محمد الحامد بعد وفاته (ص 49).

أدخله في المدرسة الابتدائية " فأيقظ فيه روح الجد، لما كان يرى فيه من مخايل الذكاء، فلم يقبل منه وهو في الصف الأول إلا أن ينال الدرجة الأولى على رفاقه فحقق محمد لأخيه ما أراد منه وفاز بالدرجة الأولى لذلك العام " ¹.

واستمر الوضع على هذه الحال حتى أنهى محمد مرحلة الدراسة الابتدائية، وتخرج من الصف السادس سنة 1922 م فأدخله أخوه بدر الدين في المدرسة الإعدادية "وفي نيته أن يتابع له تحصيله فيها للعلوم العصرية، لكن محمدا لم ينسجم مع بيئته الجديدة في المدرسة، وشعر بنفرة منها، وبدا عليه التقصير في دروسها، فإن ميله إلى العلم الشرعي والتزامه حلقات بعض الشيوخ في طلبه، وسلوكه الديني الصارم، كل ذلك لم يلائم بينه وبين هذه المدرسة.

وشعر أخوه أنه يحمله على الذهاب إليها حملا، وأنه يقسره عليها من غير رغبة منه، فوجد أن الاستمرار على هذا ضرب من العمل فاشل ولا يهييء لأخيه في المستقبل عملا يعتمد عليه في العيش، فأخرجه من المدرسة الإعدادية سنة 1923 م، ووضع عند معلم خياطة للملابس العربية، ليتعلم عنده مهنة الخياطة، ويتابع معها طلب العلم الشرعي كما يريد، فكان محمد يعمل في النهار في الدكان، ويجلس بعد المغرب دروس العلماء في المساجد، وينضم بعد العشاء إلى الحلقات الخاصة لطلب العلم. على أن الأمر لم يطل به على هذا النحو كثيرا، فقد افتتحت في حماة مدرسة دار العلوم الشرعية سنة 1924 م، فرغب محمد في دخولها، وكان أخوه بدر الدين في تلك السنة في دمشق يتمم دراسة الصف الأخير من دار المعلمين، فأرسل خاله الشيخ سعيد الجابي يستشير في إدخاله فيها فأقر بدر الدين الفكرة، وعلى الفور ترك محمد دكان الخياطة، ودخل المدرسة الشرعية، وتعين بذلك مستقبلا العلمي " ².

2 — المدرسة الشرعية في حماة:

¹ — العلامة المحاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 17).

² — المصدر السابق (ص 17، 18).

تعتبر هذه المرحلة في حياة الشيخ العلمية هي أهم المراحل وأسعدها ذلك أن همته قد تحددت وجهتها شطر طلب العلم الشرعي الذي كان يميل إليه كثيرا، ويعطيه جل وقته، حيث " ظهرت عمليا إمكاناته الفكرية الهائلة التي تفضل الله بها عليه،، فرغم صغر سنه بين أقرانه من طلاب المدرسة كان الأول بينهم. وما كان رحمه الله يهتم لشؤون المعيشة، إنما كان همه في ارواء ظمأه العلمي وإشباع طموحه الفكري، ولم تكن المدرسة الشرعية كافية له، بل كان يتردد صباحا ومساء على الدروس العلمية الخاصة التي كان يعقدها بعض الشيوخ في المساجد لخواص طلابهم، حتى بلغ عدد الحلقات العلمية التي كان يحضرها تسع حلقات في اليوم." ¹

3 — المدرسة الحسروية الشرعية في حلب:

بعد أن أنهى دراسته في المدرسة الشرعية في حماة ظل يحدوه الشوق ويقوده الشغف للاستزادة من طلب العلم، فقرر الانتقال إلى حلب في نفس السنة ² التي أنهى فيها دراسته ليلتحق بالمدرسة الحسروية الشرعية " وكانت تعتبر في ذلك الوقت أرقى المدارس الشرعية في بلاد الشام، فالتدريس فيها منوط بنخبة من العلماء الكبار، فضلا عن المناهج الواسعة التي كانت تدرس فيها" ³.

في هذه المدرسة ظهر نبوغ الشيخ العلمي، وبرزت ملكاته الفطرية، كما ظهرت شخصيته العلمية بين أقرانه وحتى بين شيوخه، وصفه الشيخ أحمد الشماع — وهو أحد شيوخه — قائلا " بحر علم لا تترحه الدلاء ".

تبين لنا هذه القولة مدى المكانة العلمية التي وصل إليها الشيخ — عليه رحمة الله — وإمكاناته العالية في تحصيل العلم، والرقى فيه إلى أعلى الدرجات، ومن الملاحظ لمن يتتبع حياة الشيخ أنه لم يحنر العلم لمجرد العلم وإنما اختاره ليهديه إلى العقيدة القويمة والعمل الصحيح وهذا هو الهدف الحقيقي للعلم والثمرة النافعة له.

¹ — المصدر السابق (ص 18، 19).

² — 1928 م.

³ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 21).

" فلم يكن — رحمه الله تعالى — يكتفي بدروس المدرسة، بل كان يحرص على شهود الدروس العلمية التي تلقى في مساجد حلب " ¹.

ويرجع سبب اهتمام الشيخ بتحصيل العلم إلى تلك الكلمة التي ألقاها في قلبه أخوه بدر الدين أثناء وداعه في محطة القطار قبل سفره إلى حلب، حيث قال له: " أعوذ بالله من نصف عالم ". قال الشيخ — رحمه الله —: " هذه الكلمة حفرت في قلبي، ولا يزال تأثيرها في نفسي منذ أربعين سنة " ².

ولذلك لم يكن الشيخ يقتصر في دراسته العلمية على كتب المناهج الرسمية، وإنما كان يطالع العديد من الكتب من قديم المصنفات وجديدها من أجل إرواء ظمئه العلمي.

ولقد كان لهذه المرحلة من حياة الشيخ أثر بالغ في تكوينه وعطائه في المستقبل حيث التقى فيها بالشيخ أبي النصر خلف وأخذ عنه الذكر كما تتلمذ على يد الشيخ أحمد الزرقا فقيه الشام بلا منازع كما نُقل عن الشيخ رحمه الله تعالى ³.

4 — المرحلة الجامعية في مصر:

بعد أن أنهى الشيخ دراسته في المدرسة الخسروية الشرعية رغب في الاستزادة من طلب العلم، فظل يبحث عن منهل علمي عذب يروي ظمئه العلمي فقرّر السفر إلى مصر وقد كانت فكرة الارتحال إلى مصر والانتساب إلى الأزهر الشريف تراوده منذ كان يدرس في المدرسة الخسروية الشرعية.

تخرج محمد الحامد في المدرسة الخسروية سنة 1934م / 1353 هـ ولم يرتحل إلى مصر إلا سنة 1937م / 1356 هـ فقد حالت دون سفره عدة عقبات ولم يستطع اجتيازها إلا سنة 1356 هـ.

ولقد فوجئ في مصر بما شاهده من مظاهر غريبة عن مجتمعه في حلب وحماة، حيث انتشرت في مصر أفكار الغرب وعاداته، كما تفتش السفور والاختلاط بين الرجال والنساء تفتشياً

¹ — المصدر السابق، ص 21.

² — المصدر السابق، ص 21.

³ — نقول شخصية.

كبيراً، ذلك أن تربيته التي تلقاها في مجتمعه في حماة تأبى عليه مشاهدة تلك المنكرات، حتى في الأزهر لم يجد المجتمع الصالح الذي كان يعيشه في حلب وحماة، ففي إحدى رسائله إلى شيخه أبي النصر قال: " ماذا يأمل طالب العلم الحقيقي في مصر، وهو يرى المحرمات من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله. ويأخذ عن قوم غير عاملين بالسنة، وليس عندهم شيء من الروحانية، ومع طلبة يخلقون لللحية والشارب، وكثيرون منهم لا يصلون، وهم يشاغبون أثناء الدروس، ويقرؤون في الجرائد، لعدم رغبتهم في العلم، وقلة تشوقهم له، ولثلا تكثر عليهم المقروءات، فيصعب الفحص، فهم طلاب شهادات لا طلاب علم، إذ لا يقرؤون إلا بعض المقرر عليهم، ويعطلون أكثر العام " ¹.

ولم يلبث أن رجع إلى حماة هارباً من تلك المنكرات، لكن الناس استهجنوا عودته ولاموه أشد اللوم، لأنهم كانوا ينظرون إلى الأزهر نظرة إجلال وإكبار، ولما كثر عليه اللوم والعتب كر راجعاً إلى مصر.

يصف لنا حالة الاستهجان التي لقيها من أهل حماة في أحد رسائله فيقول: " لقيت من دهشة الناس واستغرابهم لمحيي أمراً عظيماً، وهماً جسيماً، ووقعت في خجل كبير، وصرت كاسف البال، حزين القلب، محتاراً في أمري، وكانت أسئلة الناس موجهة إلي، فكنت أجيب كل إنسان بما أظن أنه يقنعه، ولكن هيهات هيهات ! فقد كنت ألمح الاستخفاف بي، والحكم علي بالجنون من نظراتهم، وأخيراً اضطررتني الحال إلى أن خرجت إلى البرية وقضيت فيها بضع ساعات فراراً من الناس وتوارياً عنهم " ².

بعد أن مكث في مصر فترة من الزمن وخبر أحوال البلد واطلع على عاداتها عن كثب وتعرف على الصالحين والعلماء غير نظرته للمجتمع المصري وانقلب الكره والنفور عنده إلى محبة لمصر وأنس بالمصريين.

ولما أنهى دراسته وقفل راجعاً إلى حماة ودع مصر باكياً على فراقها في عدة قصائد منها:

¹ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 29).

² — المصدر السابق (ص 30).

ذبت يا مصر مذ عزمتُ رحيلًا ولواستطعت عشت فيك طويلا
كنت ممن رموك بالنكر لكن عاد صوت النكير صوتا جميلا
ليت شعري يا مصر هل ثمَّ عود بعد بُعدٍ وهل أنال وصولاً
أنا إن عشت عن حماها بعيداً تخذ القلب نحو مصر سبيلاً¹

المطلب الخامس: مكانته العلمية

سار الشيخ محمد الحامد — رحمه الله — على خطى رشيدة، فطلب العلم حتى ارتوى منه، واكتملت ثقافته، وهضم ما تلقاه وأدرك أغواره ومقاصده، فاحتل بذلك مكانة علمية مرموقة في بلده وخارجها.

كانت بداية ظهور مكانته العلمية في مصر عندما تقدم لاختبار الانتساب إلى الأزهر الشريف حيث قال له أساتذته: " إنك عالم لا تحتاج إلى الدراسة "، " هذا رجل قد امتلأ علماً، جاء ليحصل على شهادة "² كما أن زميله في الدراسة الأزهرية الشيخ مصطفى السباعي — رحمه الله — كان دائماً يقول له: " إنك مدهش من أين لك كل معرفة هذه الأحكام "³.

كان الشيخ — رحمه الله — كما قيل عنه " بحر علم لا تترحه الدلاء " لما كان يتحلى به من نفس شغوفة للعلم، وثقافة واسعة، وعلم وفير، ونفس تواقفة للاستزادة من كل جديد، حتى تجاوزت شهرته بلاد الشام وعمت الآفاق، وكانت تأتيه الاستفتاءات من مختلف البلاد.

اتخذ الشيخ من المدرسة والمسجد ميدانين لتعليم العلم ونشره، فالمدرسة محضن الناشئة الذين ستؤول إليهم مقاليد الأمور في الغد القريب، ومن هذا المنطلق صرف الشيخ — رحمه الله — جهداً كبيراً في المدرسة، قضاها في التربية والتوعية، وصرف هم الشباب لمعالي الأمور، فترك فيهم آثاراً حسنة.

تحدث عن ذلك فقال: " حثتهم على إقامة الصلاة والمداومة عليها، فصاروا يصلون، ويحضر بعضهم الدرس العام في هذا المسجد مساءً، وقذف الله تعالى النور في قلوبهم، فشعروا

¹ — المصدر السابق (ص 32).

² — نقول شخصية.

³ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد للشيخ عبد الحميد طهماز (ص 35).

بتفريطهم في الماضي، فطفقوا يسألوني عن أحكام تتعلق بقضاء الفوائت، ومن قريب سألني أحدهم عن حكم يتعلق بقيام الليل مبديا رغبته في قيامه..¹ "

أما المسجد فقد كان هو الميدان الثاني لجهاده التعليمي، حيث تجتمع فيه أصناف مختلفة من طبقات المجتمع، ذلك أن المسجد — من الناحية الإسلامية — ليس مكانا لأداء العبادات والشعائر الدينية فقط، بل هو أيضا مكان لتحصيل العلم وطلبه وتوجيه أفراد الأمة وتوعيتهم بأمور دينهم وديناهم، " فقد كان — رحمه الله تعالى — يختار في أكثر خطبه المواضيع ذات الصلة بحياة الأمة، ولا يقتصر على نوع معين من المواضيع " ².

" خصص رحمه الله تعالى للقرآن الكريم يومين من درسه العام، الذي كان يلقيه كل يوم قبل صلاة العشاء في مسجد السلطان خلا ليلة الجمعة، يلقي فيها دروس التفسير حتى تمكن من تدريس تفسير القرآن مرتين تقريبا.. يقف أحيانا عند الآية الواحدة عدة دروس، حتى يستكمل بيان معانيها، والأحكام المتفرعة عنها واستدلالات العلماء المختلفة " ³.

وكان يدعو للتخصص في علم التفسير حيث يقول: "إن في علم التفسير بحوثا شائكة قامت حولها معارك علمية كبيرة، وحبذا لو كان عندنا متخصصون في كل فرع من فروع العلم"⁴. وكان في تفسيره يعتمد على عدة مراجع منها: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ومذكرة تفسير آيات الأحكام الذي كان مقررا تدريسه لطلاب كلية الشريعة بالأزهر الشريف، وروح المعاني للألوسي، وتفسير ابن كثير، ومفاتيح الغيب للرازي وتفسير الشيخ أبي السعود وتفسير القرطبي⁵ — رحمهم الله تعالى ..

كذلك خصص وقتا للسنن النبوية، وجعلها محور اهتمامه بعد كتاب الله تعالى وقد كان عمله فيها من ناحيتين: السيرة والحديث.

1 — المصدر السابق (ص 47).

2 — المصدر السابق (ص 47).

3 — المصدر السابق (ص 87، 88).

4 — المصدر السابق (ص 89).

5 — نقول شخصية.

— خصص درسا أسبوعيا **للسيرة** — ليلة الخميس — وكان يسميها (ليلة محمد — صلى الله عليه وسلم —) وقد اختار لهذا الدرس كتاب (السيرة النبوية والآثار المحمدية) لمؤلفه السيد أحمد زيني، وقد كان لهذا الدرس طابع خاص عند مرتادي مسجد السلطان، فهي من أجمل ليالي الأسبوع في المسجد، وقد شهد بذلك مستشرق ألماني اسمه (غونتر رودمان) الذي طوف البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها ومر في تطوافه على حماة وبقي فيها قرابة شهر كان يداوم فيها على حضور دروس الشيخ محمد الحامد. وقد عبر ذلك المستشرق عن إعجابه الشديد بدرس السيرة في رسالة أرسلها للشيخ محمد الحامد يقول فيها: " وإني أتذكر دائما بشوق دروسكم، وخاصة مساء في المسجد في هذا المجال ظهرت شخصيتكم الكريمة بوضوح وإني لن أنسى تأثيركم الشديد خلال قراءة سيرة الرسول، الذي لمس قلبي، وجعلني ألحظ إيمانكم العميق"¹.

كما اعتنى بالحديث الشريف باعتباره الأصل الثاني بعد القرآن الكريم، وخصص — رحمه الله تعالى — ليلة الأربعاء، أسبوعيا، لتدريس الحديث الشريف في الدرس العام، وقد درس عدة كتب في الحديث منها: تيسير الوصول للشيباني² وهو كتاب اختصر فيه مؤلفه أحاديث الكتب جامع الأصول الشامل لسبعة كتب بالأحاديث: (مالك والبخاري، ومسلم، وأبي داود، الترمذي، والنسائي) وكتاب الأربعين مع شرحه للنووي، والترغيب والترهيب للمنذري، الجامع الصغير للسيوطي.

خصص كذلك **للفقه** يومين في كل أسبوع، ودرس فيها الكتب التالية: حاشية ابن عابدين، وكتاب مراقبي الفلاح، وكتاب الهدية العلائية.

ولم يقتصر على سرد الأحكام الفقهية مجردة من الدليل الشرعي بل كان يعتني بفقه الدليل دراسة وتدريسا. وقد كانت ترد عليه الأسئلة الشرعية بتدفق غزير من شتى أقطار العالم الإسلامي لثقة الناس بعلمه؛ مما كان يؤهله بحق أن يسمى مفتي العالم الإسلامي وكان يرد على الأسئلة جميعاً بخط يده رحمه الله تعالى.

¹ — المصدر السابق (ص 96).

² — هو الشيخ المسند، أبو الفتح عبد الواحد بن علوان بن عقيل بن قيس الشيباني البغدادي، ولد سنة (403 هـ) وتوفي في رجب سنة (491 هـ) — سير أعلام النبلاء (19 / 128).

و لم يقف — رحمه الله تعالى — عند كتب المذهب — أي مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان — بل طوف في بقية كتب المذاهب الأخرى كالمغني وشرحه لابن قدامة في فقه الإمام أحمد بن حنبل وغيره، وكالمجموع وغيره من كتب الفقه الشافعي والموطأ في فقه الإمام مالك..

ويروى لنا عدد من تلامذته أنه: (كان له درس خاص في حجرته الخاصة في الجامع الجديد من بعد صلاة الفجر من كل يوم ويحضره خواص تلامذته من طلبية العلم الشرعي والعلماء فكان يقرر فيه شرح كتاب كتر الدقائق للزيلعي أنفس كتاب في الفقه الحنفي؛ أنهى منه خمس مجلدات من أصل ستة وبقي مجلد واحد منه لم يراجعه حال حياته لتلاميذه وقد حاول غيره أن يكمله بعد وفاته فمضوا به فترة من الزمن ثم أقفل الدرس)¹.

المطلب السادس: حالته الاجتماعية

تزوج الشيخ — رحمه الله تعالى — بعد عودته من مصر من ابنة الشيخ أحمد سليم مراد — رحمه الله تعالى — شيخ حماة ومرشدها في زمانه ورزقه الله ستة من الولد وابتنتين، أما أولاده فهم الشيخ محمود وهو أكبر أولاده، وأكثرهم شبهاً به في سمته وعلمه وورعه، ثم يليه الشيخ محمد أمين والشيخ عبد المعز والشيخ الدكتور عبد الرحمن وأحمد سالم، وللشيخ محمد — رحمه الله تعالى — طفل توفي وهورضيع واسمه عاصم، أما بناته فهما زوجة الشيخ مصطفى مراد وهي أم معاذ — رحمه الله تعالى — والأخرى هي أم عبد الله زوجة الدكتور محمد سليمان النجار² — رحمه الله تعالى —

وصفة أولاده جميعاً التقوى والعلم، فهم يحملون شهادات عليا — ما جستير أو ماجستير ودكتوراه.

المبحث الثاني: تصوفه

1 — نقول شخصية .

2 — نقول شخصية.

يجسن بنا قبل الحديث عن " صوفية " الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — وموقفه من التصوف، أن نمهد بلمحة موجزة عن نشأة التصوف، ودلالته الاصطلاحية، وآراء بعض العلماء المعتدلين فيه..

المطلب الأول : التصوف

● لمحة موجزة عن نشأة التصوف:

غير معروف على وجه التحديد من هو أول من وضع مصطلح التصوف، وأسس قواعده وأصوله، واعتبره علما مستقلا مثل بقية العلوم الإسلامية التي تأسست بعد ظهور الإسلام كالفقه، وأصوله، والنحو، والصرف.. إلخ

والذي يبحث في تاريخ التصوف يستطيع أن يدرك مدى اضطراب الباحثين حول نشأة التصوف، وعجزهم عن تحديد فترة زمنية معينة لنشأته وإن كانت حقيقة التصوف المتمثلة في تركية النفس لا تكاد تختلف عن حقيقة الإسلام ودعوته إلى الزهد والتقشف، وصقل النفس وتطهير الروح، ولكن من " الخطأ تفسير سلوك بعض العباد في القرنين الأول والثاني والمتمثل في نزعتي الزهد والتقشف وكثرة العبادة والإقبال على الأعمال الصالحة بأن هذا السلوك هو الأساس التاريخي لظاهرة التصوف " ¹ بمعناه الاصطلاحي الذي عرف به فيما بعد؛ لكن من الباحثين من يقول بإسلامية نشأة التصوف بمعنى أنه نشأ مع ظهور الإسلام، وأن أصوله الاعتقادية والسلوكية مستمدة من الكتاب والسنة وفعل السلف الصالح. يقول بن خلدون ² في مقدمته: " هذا العلم — أي التصوف — من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة

¹ — الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد بن مسفر (ص 491).

² — عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاث، ولد سنة 732 هـ، وكان فصيحاً جميل الصورة عاقلاً صادق اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طموحاً للمراتب العالية، له عدة مصنفات من أشهرها العبر وديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والعجم والبربر وهو سبعة مجلدات أولها المقدمة الذي يعتبر من أصول علم الاجتماع مات سنة 808 هـ — البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (1 / 337).

والسلف، فلما فشي الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا واختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"¹.

ويؤكد هذا المعنى كذلك عبد القاهر بن عبد الله السهروردي² في كتابه (عوارف المعارف) فيقول: " إن الصوفية أوفر الناس حظا في الاقتداء برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأحقهم بإحياء سنته"³.

ويرى أن ما دعا إليه الصوفية من أخلاق هي ما تخلق به النبي — صلى الله عليه وسلم — في سلوكه ودعا إليه في أحاديثه، من تواضع وإيثار وعفو وطلاقة وجه وزهد..

وأعدل الآراء في ذلك ما ذهب إليه شيخ الإسلام بن تيمية⁴ — رحمه الله تعالى — الذي يرى أن " التصوف الإسلامي " نشأ في مرحلة لاحقة عن ظهور الإسلام على أسس مستقلة، ومنطلقات مختلفة، لا تمت للرهبنيات ولا للكهنات بصلة، وإنما هو كان نتيجة ظروف وملابسات معينة اعترت العالم الإسلامي في فترة من الفترات.

• رأي شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى

لا شك أن القارئ سيتساءل عن سبب اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى — دون غيره من علماء الأمة، على كثرتهم، وهو المعروف لدى القاصي والداني بعدائه الشديد — عند من لا يعرفه — لهذه الطائفة، ومحاربتة لها بكل الوسائل الممكنة.

كما أنه لا يخفى على أحد من الناس اليوم أن ابن تيمية — رحمه الله تعالى — يمثل المرجعية الفكرية للسلفية المعاصرة التي تبذلت في بعض أفرادها لتشن حربا لا هوادة فيها على التصوف والمتصوفة دون تمييز بين الحق الكامن فيها والباطل الذي طرأ عليها.

ويحسن الإشارة إلى أنه تم اختيار (ابن تيمية) على أساسين:

¹ — مقدمة ابن خلدون (ص 333).

² — أبو النجيب، عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردي، شيخ بغداد، ولد تقريبا في سهرورد في سنة 490 هـ — هو من أئمة الشافعية وعلم من أعلام الصوفية توفي في جمادى الآخرة سنة 563 هـ، سير أعلام النبلاء (20 / 475).

³ — عبد القادر السهروردي، عوارف المعارف (ص 229) نقلا عن عبد القادر الجيلاني لسعيد بن مسفر (ص 491).

⁴ — أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الإمام شيخ الإسلام ولد في حران سنة 661 هـ وانتقل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. سجن عدة مرات من أجل فتاواه، كان داعية إصلاح في الدين آية في التفسير والعقائد والأصول، فصيح اللسان، مكثرا من التصنيف، توفي في سجن القلعة بدمشق سنة 728 هـ. طبقات الحفاظ للسيوطي (ص 521).

الأول: باعتباره المرجعية الفكرية الموثوق بها لدى السلفية المعاصرة وأحد أهم الرموز التاريخية المشهود لها بمناصرة مذهب السلف والذود عنه في رأي الكثيرين.

الثاني: منهجه الذي يحاول فيه معالجة القضايا الشائكة والمتشعبة باعتدال ووسطية، وبعده عن التنطع والتطرف.

يقول ابن تيمية — رحمه الله تعالى —: " أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد¹ وعبد الواحد من أصحاب الحسن البصري²، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يقال: " فقه كوفي وعبادة بصرية " .

فابن تيمية يرى أن التصوف قد نشأ في بيئة إسلامية، وهي البصرة، وكان ذلك في أوائل القرن الثاني للهجرة لكن أمر المتصوفة لم يشتهر إلا في القرن الثالث للهجرة، وبالرغم من أن نشأتهم كانت حادثة، فإنه لم يعلن النفي على كل متصوف، وإنما نظر إليهم بحسب ما فيهم من الحق والباطل، وأنكر على من ذمهم وأسرف في ذمهم وعلى من غالى فيهم وعظمهم " والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أولاً يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.. فهذا هو أصل التصوف. ثم أنه بعد ذلك تشعب وتنوع"³.

• تعريف التصوف:

¹ — عبد الواحد بن زيد الزاهد: الزاهد القدوة، شيخ العباد، أبو عبيدة البصري. حدث عن الحسن وعطاء بن أبي رباح. وحديثه من قبيل الواهي عندهم قال البخاري تركوه. وقال النسائي متروك الحديث. وقال ابن حبان كان ممن غلب عليه العبادة، حتى غفل عن الإتيان، فكثرت المناكير في حديثه. مات سنة 150 هـ. سير أعلام النبلاء (7 / 187).

² — الحسن بن أبي الحسن يسار، أبوسعيد، مولى زيد بن ثابت. كان سيد أهل زمانه علما وعملا، وكان من الشجعان الموصوفين، وكان من أعلم الناس بالحلال والحرام. مات في أول رجب سنة (110 هـ). سير أعلام النبلاء (4 / 563).

³ — الفتاوى لابن تيمية (11 / 18).

لغة: لم تتفق آراء العلماء على الاشتقاق اللغوي لكلمة " التصوف "، وهل هي مأخوذة من الصفاء أو الصوف أو الصفة أو الصف أو تنتسب إلى رجل اسمه " صوفة ".

يقول عبد القادر الجيلاني¹: " الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم "².

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — يرد على هذا الاشتقاق لعدم صحته لغويا ويقول " إن اشتقاق الصوفي من الصفا بعيد في مقتضى اللغة، وكان حقه أن يقال صفائية — إن كان ممدودا (صفاء) و صفوية إن كان مقصورا (صفا)، ومن الصوفية من ينسبها إلى الصفة وهي المكان الذي في مؤخر مسجد النبي — صلى الله عليه وسلم — في شمالي المسجد بالمدينة النبوية، كان يأوي إليها فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه "³.

كذلك هذه النسبة لم يسلم القشيري⁴ ولا ابن تيمية بصحتها " فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو " صوفي " ⁵ ولو كان كذلك ل قيل " صُفي ".

وقال بعضهم: " إنها منسوبة إلى "الصف" المقدم بين يدي الله في عموم الطاعات والقربات "⁶. وهو غلط، فإنه لو كان كذلك ل قيل " صُفي ".

وقيل نسبة إلى "الصفوة" من خلق الله، وهو غلط أيضا لأنه لو كان كذلك ل قيل " صَفَوِي " وقيل نسبة إلى " صُوفَة بن بشر بن أد بن طانجة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضا، لأن هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا

¹ — هو الشيخ الإمام العالم القدوة محي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلي الحنبلي ولد بجيلان سنة 471 هـ وكانت له كرامات ظاهرة توفي سنة 561 هـ سير أعلام النبلاء للذهبي (20 / 439).

² — الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية، د. سعيد بن مسفر، (ص 514).

³ — الفتاوى لابن تيمية (11 / 38).

⁴ — عبد الكريم بن هوزان القشيري الصوفي، صاحب كتاب الرسالة في رجال الطريقة، المصنف في الكلام على الصوفية وأحوالهم وأخلاقهم. ولد سنة 375 هـ، وكان عديم النظر في السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق، ويعتبر من شيوخ التصوف في حرسان. مات سنة 465 هـ. سير أعلام النبلاء (18 / 227).

⁵ — الرسالة القشيرية (2 / 50).

⁶ — الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية، د. سعيد بن مسفر (ص 487).

النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم " الصوفي " لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية، لا وجود لها في الإسلام".¹ ويرى ابن تيمية — رحمه الله تعالى — أن التصوف منسوب إلى لبس الصوف. يقول في مجموع الفتاوى: " وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف، فقيل في أحدهم: " صوفي " وليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال".²

المطلب الثاني: التصوف عند الشيخ محمد الحامد

عاش العلامة المجاهد محمد الحامد تجربة التصوف، أحوالا ومواجيد وعلما وذوقا، وفهما وشوقا، ولم تكن تلك التجربة الروحية الصافية منفلة من قيود العلم، وضوابط الشرع، بل كانت تابعة لهما، مؤتمرة بأمرهما.

ولذلك كان دائما يرفع شعاره المعروف " العلم أمير على التصوف " ³، لأن كل الدخائل والانحرافات التي عكرت صفواتصوف إنما دخلت عليه عن طريق الجهل، وكان — رحمه الله — يقول عن كل من أدخل على التصوف الشوائب والبدع: " ليتهم لم يتصوفوا"⁴. وكانت لديه — رحمه الله — رغبة في تأليف كتاب عن التصوف بلغة العالم الصوفي ينفي عنه البدع والشطحات، والدخائل والانحرافات، غير أن المنية وافته قبل أن يحقق أمنيته.

● مفهوم التصوف عند الشيخ محمد الحامد.

يرى الشيخ محمد الحامد أن لفظ التصوف حادث ولم يكن معروفا في العصور الأولى، قال رحمه الله " فلما فتحت الدنيا على المسلمين، ومالت بهم، ورضعوا منها واتخذوها أما، وظهرت بوادر الفساد، وكثر البغي والعناد، وبقي فريق من الناس متبعين خطة السلف، عاملين على إحياء

¹ — الفتاوى لابن تيمية (11 / 6).

² — الفتاوى لابن تيمية (11 / 16).

³ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (115).

⁴ — نفس المصدر (ص 118).

السنن، وإماتة البدعة، وزهدوا في الدنيا وزخرفتها، فعرفت هذه الفئة من الناس بالصوفية، وهو اسم أحدث كما علمت والأقرب إنما سموا به لأن شعارهم كان لبس الصوف"¹.

ويتحدث عن حقيقة التصوف، فيقول: " بأن التصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية وتعمير القلب بذكر الله تعالى ومراقبته وخشيته ورجائه والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبقاً للسنة الشريفة، وخلافاً للبدعة السيئة التي يحظر الإسلام التلبس بها".

ويقول أيضاً: " والتصوف الذي أردت هو الإسلام الكامل في مقاصده وأهدافه، والصوفية السابقون وكثير من اللاحقين استقام سلوكهم على هذا المبدأ وفي منهجه، ولا شأن لي فيما شارك أسما وامتلاً بالدخائل والبدع، فذلك ما لم أقصد إليه"².

● الصوفية والسلفية:

كثير من الباحثين ينظر إلى التصوف على أنه نقيض السلفية، فهما ضدان لا يجتمعان، غير أن الشيخ الحامد يرى غير ذلك " فالسلفية الحققة مجتمعة مع الصوفية الصحيحة، متى حسن الفهم وصح العزم على الجمع الذي هو شأن الدعوة وأرب الإخوان، وإذا زخرفت الصوفية بالروحانية الغامرة والرقعة العميقة، فليست بمنكرة على أختها السلفية تحريها تنقية الإسلام مما لا يسه من الغرائب عنه، كي يعود إلى صفائه وخلوصه. لا يفترق الأخ بالعزائم وعمق الفهم لأسرار الدين عن نفي ما علق به من أدران، ولحق به من أوضار عبر الأزمان، ولا يصدم هذا التزوع إلى الخطة الأولى إلى الإسلام العتيق الصافي، الذي سارت فيه القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية"³.

كان متمسكا بمذهب السلف فلا يتجاوز معنى ألفاظ القرآن الظاهرة إلى تأويلات باطنية فاسدة كما ذهب إلى ذلك بعضهم ذلك أن كل طريقة — كما يقول أحمد الرفاعي⁴ — خالفت الشريعة فهي زندقة."

¹ — المصدر السابق (ص 122).

² — المصدر السابق (ص 124).

³ — المصدر السابق (ص 123، 124).

⁴ — أبو العباس أحمد بن أحمد بن الحسن علي بن أبي العباس أحمد المعروف بالرفاعي، كان رجلاً صالحاً فقيهاً شافعي المذهب، سكن البطائح (عدة قرى مجتمعة بين واسط والبصرة) بقرية يقال لها أم عبيدة، وانضم إليه خلق عظيم من الفقراء والطائفة المعروفة بالرفاعية والبطائحية من الفقراء منسوبة إليه توفي سنة (578 هـ) — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (1 / 171).

يقول في رده على من فسر طير الأبايل بداء الجدري " إن هجران الحقيقة إلى المحاز في الكلام لا يصح إلا إذا قامت القرائن المانعة من إرادة الحقيقة، وكانت تلك القرائن قطعية. ولا بد أيضا من مناسبة بين المعنى المنتقل منه والمعنى المنتقل إليه، وهنا لم تقم تلك القرينة المانعة من إرادة الطير والحجارة والرمي، وليس في الكلام مناسبة بين هذه الثلاثة وبين مرض الجدري، وقد أجمع المسلمون على الإيمان بما كما أخبر الله تعالى"¹.

كما رد بقوة على من أنكر عصا موسى، وتحولها إلى حية تسعى، وانفلاق البحر كالطود العظيم، ووجود الجن وكل من أنكر معجزات الأنبياء.

كذلك رفض الذكر المحرف الذي يقول به بعض المتصوفة المنحرفين متمسكا بقاعدة هامة في مسألة الذكر وهي وجوب التوقف عند النصوص الشرعية وعدم مجاوزتها، ففي معرض إنكاره على من جعل " آه " اسما من أسماء الله الحسنى قال: " وأما الذكر بلفظ " آه " طيا لما في القلب من اسم " الله " وحبسا للنفس بالهمزة منه، ثم تصريفا له بالهاء الصاعدة من القلب للتفريج عن قلوب المنتهين، ولتحريك قلوب المبتدئين، وللاستعانة على سرعة الاستحضار، فأمر متوقف على ورود الشرع بأن لفظ " آه " من أسمائه تعالى، التي هي توقيفية ليس للاختراع إليها سبيل، نعم ينسب إلى بعض الصوفية أنهم يثبتونه اسما لله تعالى، وليتهم بينوا دليل هذه التسمية من دليل سمعي — كتاب أوسنة — فإن الأمر من حيث هو متوقف عليهما. وبعد ؛ فما الذي يضر إخواننا الذاكرين لله تعالى أن يدعوا ما فيه شبهة، إلى ما ليس فيه شبهة، وقد قال فقهاؤنا رحمهم الله تعالى عنهم: إذا ترددنا في شيء بين كونه بدعة أوسنة؛ فتركه لازم"².

كما رد بشدة على بعض منكرات المتصوفة المنحرفين مثل قولهم " بنجاة إبليس يوم القيامة "، و" أن أهل النار يتلذذون بالعذاب "، و" خروج الكافرين من النار "، و" نجاة فرعون "، و" وحدة الوجود " .. وكان يشدد النكير على كل عبارة يشتم منها رائحة الحلول والاتحاد أو وحدة الوجود ويقول: " هذا هو الكفر بعينه"³.

¹ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد للشيخ عبد الحميد طهماز (ص 130).

² — المصدر السابق (ص 141).

³ — نقول شخصية، وانظر رده على هذه الانحرافات في كتاب: العلامة المجاهد لعبد الحميد طهماز(ص: 159 وما بعدها).

إذن فصوفية الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — منضبطة بقواعد الشرع، دون زيغ أو انحراف في العقيدة أو السلوك، وهودائما يردد الكلمة السائدة عند أهل السير إلى الله تعالى: " لورأيتم رجلا أعطي من الكرامة، حتى تربع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند حدود الله عز وجل.. "

وكان للشيخ — رحمه الله تعالى — وجهة نظر خاصة فيما يتعلق بالانحرافات العقيدية والسلوكية الصادرة عن بعض اعلام المتصوفة مثل الشعراي¹ وغيره ويقول أنه " دسّ كثيرا في كتب التصوف " ويسترشد بقول الإمام الشعراي: " دُسّ علي في حال حياتي فكيف بعد مماتي، أنا بريء من كل كلام يخالف الكتاب والسنة "².

على أن الشيخ — رحمه الله تعالى — كان يرى أن المتصوف لا ينبغي له أن ينعزل عن المجتمع في إصلاحه وتبيين الحق، فقد ذكر له أحد تلاميذه أن الصوفية يقولون: أن على الإنسان أن يربي نفسه قبل أن ينصح الناس، فقال لتلميذه: كلفني حسن البنا بخطبة الجمعة في مسجد أحد القرى في مصر، فقلت له: الوعظ بالاعتاظ، فأمسك الشيخ بتلايب تلميذه وقال له: أمسكني الإمام هكذا وهزني هكذا، وقال لي: ود الشيطان لو ظفر بمثلك، فاعتبر الشيخ أن الانعزال من عمل الشيطان بل قد أخبر أن الصوفية الأوائل كانوا هم الذين يحملون رايات الجهاد³.

¹ — الشعراي: الإمام الحافظ المحدث أبو محمد الفضل بن محمد المسيب بن موسى بن زهير الخراساني النيسابوري الشعراي توفي سنة (282 هـ). سير أعلام النبلاء (13 / 317).

² — نقول شخصية.

³ — نقول شخصية.

المبحث الثالث: صفاته الذاتية

يتمتع الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — بخصائص ومميزات كثيرة، تدل في مجملها على تحليه بأكمل الصفات، وأجمل الخصال، وأنبأ المزايا لتحقيق التطبيق العملي للدعوة الإسلامية في مكارم الأخلاق والتأسي الصحيح بخلق المصطفى عليه الصلاة والسلام القائل " إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق " ¹.

المطلب الأول: زهده وتواضعه وورعه

• زهده:

لا يستقيم سلوك المرء بدون الزهد في الدنيا وطلب الأخرى، وقد كان ذلك ديدن الأنبياء والمرسلين والدعاة والصالحين. والزهد — كما يعرفه الجرجاني — " هو ترك الميل إلى الشيء، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هو بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة، وقيل: هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك " ².

والزهد في الدنيا، والتولي عنها أمر ممدوح في الشرع، إن لم يكن من أصل الشرع وهو من أهم الصفات التي تحلى بها السلف الصالح حتى سموا " بالزهاد ".

وكان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — من الزهاد حقاً وصدقاً، بل كان شديد الزهد، فلم يجمع من الدنيا إلا القليل، وإذا عرضت عليه أعرض عنها، وكان باغضاً للدنيا، مشتاقاً للآخرة، مقلاً عليها.

يروى عنه تلميذه عبد الحميد طهماز " أنه عرضت عليه المناصب الرفيعة التي تطمح إلى أقل منها أنظار الكثير من الناس، فرفضها، وكلمها ألحوا في عرضها عليه، ألح في رفضها والتعالي عليها. وعرضوا عليه منصب الإفتاء في حماة، فرفضه عدة مرات، ولم يسندوا هذا المنصب إلى أحد

¹ — أخرجه مالك في الموطأ، باب ما جاء في حسن الخلق (1742).

² — التعريفات للجرجاني (توفي سنة 816 هـ) (ص 102، 104).

طيلة الفترة الأخيرة من حياته، رجاء أن يقبل، فما قبله — رحمه الله — ورعا وزهدا، وكلما اجتمع بمسئول كان يقول له: (لا أريد منكم رتبة ولا راتبا) وطلبوا منه أن يذهب لحضور بعض المؤتمرات العلمية على نفقة الدولة، فرفض خشية أن يكون فيها ما لا يرضاه دينه وورعه، وعرضوا عليه الحج مع بعثة الشرف الرسمية، فأجابهم لقد حججت بمالي، ولا يجوز أن أترك تعليم الطلاب للذهاب إلى حج النفل. وفكروا في بعض العهود تكليفه بوزارة الأوقاف فلما سألوا عنه، قيل لهم: إن هذا الرجل لا يستلم مثل هذه المناصب. وكان يردد دائما: العلم عندي أفضل من الملك¹. وعرض عليه رئيس الجمهورية في أواسط الستينات منصب مفتي الجمهورية العربية السورية فأبى².

لقد ترك — رحمه الله تعالى — راحة الدنيا، فأتعب فكره ولبه وجسمه من أجل راحة الآخرة، حيث كان بكليته متفرغا لتعليم الناس وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر طيلة حياته حتى في مرضه الذي توفاه الله به، كان — رحمه الله تعالى — من إخلاصه وزهده أنه لا يرى لنفسه حقا في أخذ العوض عن نشر مؤلفاته، كما فوض بعض الفضلاء من أصحاب المطابع بإعادة طبع مؤلفاته — على رواجها وتكرار طباعتها — متنازلا — كما هي عادته — عن حقوق الطبع والنشر، يقول عن نفسه "على حقارة شأني لوخيرت بين الملك، وما أنا فيه من لذة التحصيل العلمي والسلوك إلى الله تعالى، لاخترت ما أنا عليه"³.

● تواضعه:

على الرغم من ثقة الشيخ بنفسه وهيبته، ومكانته الاجتماعية والعلمية، فقد كان — رحمه الله تعالى — متواضع النفس، مع نفسه ومع ربه، ومع الناس جميعا، ولا يتكلف لشيء في حياته ومعيشتة ولباسه وسلوكه مع الجميع. وذلك امتثالا لقول الله تعالى (واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)⁴، وقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (ما زاد الله عبدا بعفوإلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)⁵.

¹ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد للشيخ عبد الحميد طهماز (ص 233، 234).

² — نقول شخصية.

³ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 78).

⁴ — الحجر الآية 88.

⁵ — أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب حديث رقم (4689).

كان مع جلاله قدره وعلومته وسعة علمه يقف مع الصغير ويوقر الكبير، ويجالس الضعفاء، ويتواضع للفقراء، ويكره القيام له ويقول لمن يقومون له: " كأنكم تقومون على قلبي"¹.

كان — رحمه الله تعالى — " يخدم ضيوفه بنفسه ولو كانوا تلاميذه، ويقدم لهم الطعام بيده، يحمل حاجاته ولا يكلف أحدا بحملها، ويتزل إلى السوق ويشترى حاجات بيته بنفسه، ويتمنى ألا يعرفه أحد، وكثيرا ما يقول: " ما أحمل حياة الذي إذا حضر لا يوقر، وإذا غاب لا يفتقد " لا يسمح لتلاميذه أن يسيروا خلفه، بل كان يأمرهم أن يتفرقوا، مستشهدا بكلمة الرفاعي — رحمه الله تعالى — كم طيرت طقطقة النعال خلف الرجال من عقول.

ولا يسمح لهم أيضا بأن يطروه إطراء زائدا عن حدود الشرع، ولما كتب له أحد تلاميذه رسالة أطرى فيها الشيخ كثيرا أجابه قائلا: " وبعد ؛ فأرجو الاقتصاد في التعبير، ولكن شرعيين، فإنه يرضيني ما يرضي الشرع، ويسخطني ما يسخطه. إنه لا يجوز تقبيل الأرض فما ورد من هذا في كتابك إلي لا يجوز شرعا، ولقد انقبضت نفسي لما رأيته، حتى ضربت على الجملة التي أفادت هذا المعنى، ولقد نص فقهاؤنا — رحمهم الله تعالى — على حرمة تقبيل الأرض بين أيدي العلماء وغيرهم من المعظمين. فلنقف عند حدود الله ولا نتعدها " ².

وكان — رحمه الله تعالى — متواضعا في لباسه، فلا يتكلف شيئا من ذلك، كان يلف عمامته على قبعته بسرعة وبدون طربوش ثم يضعها على رأسه ويلبس من الثياب جبة وثوبا تحتها أو بنطالا عريضا أشبه ما يكون بالسروال، يروى أحد تلاميذه: " أنه في يوم من الأيام لبس جبة جميلة مكوية فخاف على نفسه من الخيلاء، فدخل مسجد السلطان ثم قام بتزعتها بسرعة وغمرها في (بركة) المسجد وفي الصباح نشرها أمام الشمس، فلما جفت لبسها..³

¹ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد للشيخ عبد الحميد طهماز (ص 235).

² — المصدر السابق، ص 235، 236.

³ — نقول شخصية.

• ورعه:

عرف الجرجاني الورع بأنه " اجتناب الشبهات، خوفا من الوقوع في المحرمات، وقيل: ملازمة الأعمال الجميلة"¹ وقال الزبيدي: والأصل: الورع هو الكف عن المحارم ثم استعير للكف عن الحلال والمباح، أي مافيه شبهة"²، والأرجح التعريف الأول للجرجاني، والورع من مكارم الأخلاق، ومن الصفات الإسلامية الحميدة التي يدعو إليها الدين، ويثني على صاحبها، وينال به الأجر الكبير، والفضل العظيم لوقوفه على أحكام الشرع واجتناب المنهيات، والورع من صفات المتقين إذ يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس"³.

كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله — متعلقا بأهداب الورع طوال حياته، فقد كان شديد الورع بالالتزام بالحلال والبعد عن الحرام واجتناب الشبهات في أعماله وتصرفاته، وفي كسبه ورزقه وإنفاقه، وفي عبادته ومعاملاته، كان رحمه الله تعالى يأخذ بالعزيمة في أحواله جميعها ويكثر من النوافل في أوقاته كلها، " وكان مضرب المثل في الورع حتى راح بعض الناس لا يقرونه على شدة يأخذ بها نفسه وحيطة تعلقت بها همته. ولقد أسبغ عليه ذلك الورع رداء المهابة، وجلباب القوة، فكانت له صولة ترهب ومكانة تعجب، أذعن لها الأصحاب والخصوم على قلة الخصوم"⁴.

وله في الورع قصص كثيرة نذكر منها:

— يروي عنه تلميذه الشيخ عبد الحميد طهماز فيقول: " وصل به الأمر في بعض الحالات، أن ترك المدرسة الشرعية في حلب عندما عرف أن أموال الوقف مخلوطة بغيرها، خوفا أن يدخل إلى جوفه شيء من مال حرام، تركها وخرج إلى القرى يبحث عن الرزق الحلال، حتى وصل إلى قرية " عرب ملك " على الساحل، قرب مصب نهر السن، وهناك التقى برجل صالح،

¹ — التعريفات للجرجاني (ص 325).

² — تاج العروس للزبيدي مادة (ورع).

³ — أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع رقم (3375) وقال: حديث حسن غريب وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد رقم (4305). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (17 / 168).

⁴ — مجلة (حضارة الإسلام)، عدد خاص بالشيخ محمد الحامد بعد وفاته العدد الثالث من السنة العاشرة 1969م (ص45).

نصحه أن يعود إلى المدرسة، مذكرا له أن الرزق الحلال الصرف الذي يبحث عنه لن يجده في مثل هذا الزمان بكلمة قالها له وهي: ليس بالإمكان أبدع مما كان"¹.

— يتحدث عنه أحد تلامذته — الدكتور عبد الرزاق الكيلاني — فيقول: " كنت موظفا في المستشفى الوطني بمدينة حماة، وكانت سيارة دائرة الصحة تأتي كل صباح لتحملني مع باقي الأطباء إلى المستشفى، وفي أحد الأيام، ونحن ذاهبون إلى المستشفى بالسيارة رأيت الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى يسير في اتجاه سيرنا نفسه، فطلبت من سائق السيارة أن يقف لناخذ الشيخ معنا، فوقف، وفتحت باب السيارة وقلت للشيخ رحمه الله تعالى: تفضل يا أستاذ لناخذك معنا فنحن نسير في اتجاه سيرك نفسه، فقال: هل السيارة لك؟ قلت: لا، إنها لدائرة الصحة، قال: إذن لا أركب معكم، قلت: لماذا؟ إننا سائرون في اتجاه سيرك نفسه. قال: أليس لي وزن، وإن وزني سيجعل السيارة تصرف كمية أكبر من البترين، لذلك فلا أستطيع أن أركب معكم، وشكرنا وسار في طريقه"².

— " استأجر مرة حمّالا ليحمل له صفيحة الكاز إلى البيت، وأرسل معه ولده ليدله على البيت، وأرسل مع ولده وعاء فيه قليل من الحليب، ولما سار الحمّال التفت إليه الشيخ، فوجده قد حمل وعاء الحليب أيضا، فناده قائلا: إني لم أشارتك على حمل الحليب، فتعال خذ أجرته، فقال الحمّال: لا أريد أجرته، ولكن الشيخ أصر عليه وأعطاه أجرته"³.

— ومن ورعه أنه أفتى عندما سئل عن جهاز (الراديو) بما نصه " إن الإذاعة الخيرة الفاضلة في (الراديو) قليلة جدا في جنب الشر المتكاثر المتظاهر، فإدخال هذا الجهاز إلى البيوت يأتي بالشر المستطير المتتابع المتتالي فالامتناع منه أسلم وأحكم.. وفي الحديث الشريف (فمن اتقى الشبهات

¹ — العلامة المجاهد لعبد الحميد طهماز (ص 218).

² — الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد، د. عبد الرزاق الكيلاني (ص 162).

³ — العلامة المجاهد لعبد الحميد طهماز (ص 220).

فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه¹2

المطلب الثاني: شجاعته وجهاده

شجاعته:

كان الشيخ — رحمه الله تعالى — جريئاً في الحق، يعلنه بكل قوة وثبات، وينطق به في كل خطبه ودروسه وفتاويه، ولا يخشى في الله لومة لائم، فهو يقف مع الحق والشرع حيثما كان، فالناس أمامه سواء لا فرق عنده بين شريف ووضيع، وقريب وبعيد، وعامي وصاحب منصب، فالصدع بالحق مأمور به في القرآن الكريم قال الله تعالى " (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون)³ وهو ما دفعه إلى أن يقول: " إن هذه التهديدات عملت عملها في نفسي، فدفعتني إلى البيان دفعا فرارا من لعنة الله إلى رحمته، وإنقاذاً لمهجتي من عذابه الأليم وعقابه العظيم"⁴.

يقول — رحمه الله تعالى — : " فإن الحق قوي في ذاته والباطل ضعيف في ذاته وما على صاحب الحق إلا أن يصدع بقوة، فلا يلبث الباطل أن ينهار وأن يولي أهله الأدبار منهزمين أمام قوة الحق الماحق "⁵. ولذلك نجده يصف نفسه بأنه سوط من نار على كل من يحاول قلب الحقائق الدينية وطمس معانيها وإلباس الباطل ثوب الحق.⁶

وقد جهر بالحق في قوة ويقين عندما أفتى بأن مال الدولة حرام فيما نصه " ولست أعني بهذا غالب مال الدولة الآن حلال، كلا فإن الغالب عليه الحرمة كما هو مشاهد لاختلاط الضرائب غير المشروعة بالفوائد الربوية وبغيرها "⁷.

¹ — أخرجه مسلم في الصحيح، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (3 / 1219) حديث رقم (1599)، أخرجه أبو داود في السنن، باب في اجتناب الشبهات (3 / 243)، حديث رقم (3330)، أخرجه الإمام أحمد في المسند (4 / 270) حديث رقم (18398).

² — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 47).

³ — آل عمران : 187 .

⁴ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 9).

⁵ — نفس المصدر (1 / 600).

⁶ — نفس المصدر (2 / 73).

⁷ — نفس المصدر (1 / 242).

كما رد على وزير الأوقاف عندما أذن للنساء أن يصلين حاسرات الرؤوس والذرعين، فقال ما نصه: " ولا يملك وزير الأوقاف السماح أن يصلين حاسرات الرؤوس والذرعين وإذنه في هذا لا يعمل عمله الشرعي"¹.

ولقد وقف بشدة أمام ما أقدمت عليه بعض الجهات الرسمية من نبش القبور من أجل تجميل المدينة، حيث صدع بما رآه حقا وصوابا، معلنا: " وصفوة القول أن الذي نراه الآن من نبش القبور وإزالة معالمها للتجميل حرام، وقد وقفت موقفا شديدا في بلدنا من أجل هذا النبش"².

وكان — رحمه الله تعالى — يعلم طلابه الشجاعة في الحق أيضا فقد دعاه مدير مدرسة ابن رشد التي يدرس بها من غرفة الصف التي يلقي بها درسه على طلاب الصف الثاني الثانوي وطلب منه الحضور إلى الإدارة، فحضر وترك عصاه الغليظة " عكازه " في الصف فقال له المدير: إن المحافظ يريد أن يلتقي بك الآن لأمر مهمة فرجع إلى الصف قبل أن ينطلق إلى مكتب محافظ المدينة وأخذ " عكازه " من غرفة الصف وقال لتلاميذه هاتوها فقد تلزم.. ففهم طلابه معنى كلامه وضحكوا وكان ذلك عام 1961م³.

وله مواقف أخرى كثيرة تشهد له بالشجاعة والجرأة والصلابة في الحق والصدع به.

● جهاده:

دلت النصوص القطعية على أن الجهاد ذروة سنام الإسلام وأنه أفضل الأعمال⁴ لكونه يهدف إلى إعلاء كلمة الله تعالى. والجهاد أنواع: جهاد بالنفس وجهاد بالمال وجهاد بالعلم، وبيان ذلك أن الجهاد قد يكون بالحرب والقتال في سبيل الله، وقد يكون بالمال وذلك على الأغنياء والموسرين، وقد يكون بالقول والبيان في سبيل الله أيضا، وقبل هذا وذاك هناك جهاد النفس وتركيتها وإصلاحها وتنقيتها من حظوظ الدنيا حتى تتمكن من القيام بحق الجهاد العملي.

¹ — نفس المصدر (1/ 178).

² — نفس المصدر (1/ 99).

³ — نقول شخصية.

⁴ — عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: سئل النبي — صلى الله عليه وسلم — أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله قيل: ثم ماذا؟ قال جهاد في سبيل الله ثم قيل ماذا؟ قال: حج مبرور " أخرجه البخاري في صحيحه رقم 1448 (2/ 553) وأخرجه مسلم في صحيحه رقم 84 (1/ 89).

وقد أمضى الشيخ — رحمه الله — كل حياته في ميادين الجهاد من ذلك جهاده ضد المستعمر الفرنسي حيث أذكى بخطبه الحماسية جذوة النضال والجهاد في قلوب أبناء الأمة الإسلامية، ودعاهم إلى الثورة على المستعمرين وتطهير البلاد منهم، قال في إحدى خطبه: " أما بعد ؛ فالمعهود بإزالة النجاسة استعمال الماء، وإن تفاحش غلظها أضيف إليها التراب، قال صلى الله عليه وسلم: "إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم، فليغسله سبعا إحداهن بالتراب" ¹ ولكن هناك نجاسة لابستنا ربع قرن، ولا ينفع في إزالتها ماء ولا تراب إذ ليس ما يقلعها إلا الحديد والنار"².

وقال في خطبة أخرى: " أيها المسلمون، أعدوا أنفسكم للجهاد، ووطنوها على الموت، موت شريف خير من حياة تعيسة، ضربة بسيف في عز خير من صفة بيد في ذل، طعنة برمح في شرف أحب إلى القلب الكبير من نظرة شزراء في مهانة، ركوب الصعاب والأهوال في ارتفاع أجمل بكثير من الراحة والدعة في استخذاء.

أيها الإخوان لقد استخفت فرنسا بنا، وخاست بكل العهود، ولم ترع للمواثيق حرمة، لقد طلبت منا آخراً أن نقبل أموراً، فيها ترسيخ أقدامها في هذه البلاد واستعباد أهلها، فاغضبوا ثم أغضبوا، وثوروا ثم ثوروا، فما عاد السكون ينفع وما عاد السكوت يفيد"³.

ولما وقع اغتصاب فلسطين، كان الشيخ — رحمه الله تعالى — قد نادى بالخروج للجهاد، بل إنه أراد الخروج بنفسه " ولكن كبار العلماء أشاروا عليه بالبقاء لحاجة الأمة إليه، ولكثرة عدد المجاهدين، فانضم إلى اللجان المشكلة لأجل مساعدة اللاجئين ومواساتهم، وجمع المعونات المادية لهم، وكان يطوف على الناس بنفسه لهذا الغرض. ولقد استحوذت قضية فلسطين على اهتمامه، فخصص لها الكثير من خطبه المنبرية، وكتب عنها عددا من المقالات في الصحف والمجلات ⁴5

¹ — أخرجه مسلم في الصحيح، باب حكم ولوغ الكلب (1 / 234) حديث رقم (279) وأخرجه أبو داود في السنن، كتاب الطهارة، باب الوضوء بسؤر الكلب (1 / 19) حديث رقم (71)، وأخرجه النسائي في السنن، باب سؤر الكلب (1 / 176) حديث رقم (335) وأخرجه أحمد في المسند، (2 / 245) حديث رقم (7341).

² — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 37).

³ — المصدر السابق (ص 38).

⁴ — راجع ما كتبه عن القضية الفلسطينية في كتابه ردود على أباطيل (1 / 441 وما بعدها).

⁵ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 39).

كان جريئاً في الحق لا يخاف في الله لومة لائم، ينفذ الحق حيثما كان ومع أي شخص كان، حتى مع كبار المسؤولين في الدولة " حاول أحد المسؤولين في عهود سابقة، أن ينتزع من الشيخ اعترافاً بشرعية عمل سيقوم بتنفيذه، وهوليس شرعياً. فما كان من الشيخ بعد جدال طويل إلا أن انتفض وهويقول: " هذا العلم أمانة في أعناقنا ولن نخون أمانة الله " وترك المجلس وخرج. وقابله بعد ذلك هذا المسؤول على طريق حمص عائداً إلى حماة، فدعا الشيخ إلى السيارة ليوصله بها إلى حماة، فأجابه الشيخ: " هذه السيارة ملك للدولة، ولا يجوز لك أن تستعملها إلا في المصالح العامة، فكيف تدعوني إلى استعمالها ؟ ". ورفض رحمه الله دعوته. ودعاه مرة رئيس الدولة في بعض العهود لحضور حفلة رسمية، تقام في حمص، فأجابه: إنها ستقام في مكان تشرب به الخمر، وسيحضرها النساء مع الرجال، فلا أستطيع مشاهدة هذه المنكرات " ¹.

كما كانت له مواقف جهادية رائعة وشجاعة ضد مخلفات المستعمر الإلحادية العلمانية من الذين فرقوا وحدة الأمة ومزقوها، يحدثنا عنه أحد تلامذته فيقول: (فانبرى.. يتصدى لأمواج الإلحاد هذه من على منبر جامع السلطان وفي دروسه العامة والخاصة.. وعاش يناهضها سنين طويلة وبقيت حماة قلعة للإسلام) ².

المطلب الثالث: حكمته، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

• حكمته:

" الحكمة هي معرفة الحق والعمل به أو هي الإصابة في القول والعمل " ³ فهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى في إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحاً مستمراً لا يتغير ⁴، وهي مما ينبغي أن يتصف به القائم بالدعوة إلى الله عز وجل " وهي غالباً ما تكون قولاً في علم وموعظة

¹ — المصدر السابق (ص 230، 231).

² — نقول شخصية .

³ — مدارج السالكين لابن القيم (2/498).

⁴ — التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور (3 / 60 — 63).

أوتصرفا نحو الآخرين من أجل دفعهم إلى الخير أو صرفهم عن الشر"¹، قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)².

وقد كان الشيخ — رحمه الله تعالى — يتحلى بهذه الصفة الحسنة، وذلك من خلال النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف، فكان لا يتبع أسلوبا واحدا مع كل الناس، بل كان يتزل الناس منازلهم، ويخاطب كل إنسان بلغة يفهمها ويقبلها بوقت واحد " يبحث عن جانب الخير عند الإنسان، فيدخل إلى قلبه عن طريقه، وما يزال ينمي عنده هذا الجانب، ويثني عليه به، حتى يفتح له قلبه ويسلم للشيخ قياده، وعندها يوجهه — رحمه الله — إلى الحق ويبعده عن المنكر"³.

ومن حكمته — كما يروى عنه عدد من تلاميذه — أنه استطاع أن يحقن دماء وينقذ نفوساً من الموت وذلك في الأحداث التي وقعت في حماة عام 1964 م، فأخرج رئيس الجمهورية أمين الحافظ بواسطة المساجين بعد أن حوكموا وهدأ المدينة — رحمه الله تعالى — بحكمة نادرة، مما دفع الشيخ إلى أن يقول: " الحمد لله يا أبنائي لقد منّ الله عليكم بالعفو من قبل الرئيس أمين الحافظ، وإني أوصيكم بوصية عليكم أن تنفذوها" ثم قال: " على كل إنسان منكم إذا التقى السيد الرئيس أمين الحافظ أن يقبل رأسه، فقد كان له فضل كبير في كشف الغمة عن المدينة، وهذا واجب عليكم لتردوا إحسانه بإحسان، وإن لم تلتقوا به فادعوا له ". وكان من فضل الله على بعض تلاميذ الشيخ أن فعلوا حين التقوا الرئيس أمين الحافظ فقبلوا رأسه، وأبلغوه سلام الشيخ محمد الحامد، وكان قد توفي رحمه الله تعالى، فاغرورقت الأعين بالدموع، وكان تأثر الرئيس أمين الحافظ بالوصية كبيرا، وبخاصة عندما قالوا له هذه وصية الشيخ لكل من يراك"⁴.

وكان — رحمه الله تعالى — حكيما في الرد على الاستفتاءات الحرجة التي ترد عليه من بعض المستفتين ومن ذلك أنه في عهد الوحدة بين سورية ومصر أمتت الدولة المعامل والمصانع التابعة للأفراد، كما أمتت عدة شركات واعتبرتها ملكا للدولة، وكان يومها من يعترض على سياسة التأميم يتعرض لعقوبات قاسية جدا، وفي أحد الأيام جاءه بعض الناس يسألونه عن رأيه في

¹ — معالم في منهج الدعوة للدكتور صالح بن عبد الله بن حميد (21).

² — سورة النحل: 125.

³ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 230).

⁴ — مجلة المجتمع العدد (1399) بتاريخ 15 / 5 / 2000 م.

التأميم، فأجاب رحمه الله تعالى بشجاعة وحكمة وذكاء وعلو صوت فقال: أنت تعرف أنه حرام فلم تسألني¹؟

وكان يؤمن في حال حياته أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يبدأ من الجيش ويأخذ على بعض الحركات الإسلامية إحجام أفرادها عن دخول الجيش في الخمسينات من القرن الماضي ويتألم لذلك ألماً شديداً.

• أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

قامت دعوة الأنبياء والرسل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو شرط لتحقيق الخيرية للأمة الإسلامية، فبدون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنحرف الأمة عن منهج الله، وتغرق في بحار الرذيلة، وينهار كيان المجتمع ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم الأسس لصلاح الفرد وتربيته، وصلاح المجتمع، وتجنب المخاطر والمزالق والمفاسد. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه فتدعونه فلا يستجاب لكم)².

كانت حياة الشيخ محمد الحامد — رحمه الله — كلها أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر إلى أن لقي وجهه الله — عز وجل — ففي خطبه كان أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر وفي كتبه ووصاياه كان يقوم بهذه الفريضة على الوجه الشرعي المطلوب. وقد مارس هذه الفريضة على مختلف الأصعدة العامة والخاصة حتى اشتهر بذلك، وكانت هذه الصفة من أهم صفاته وأكثر مميزاته على غيره من العلماء.

" كان لا يبني ولا يكل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خصلة تحلى بها وسجية امتاز بها عن كثير من الأقران، حتى كان الأمر والنهي عن المنكر جزءاً من ذاته لا يزايله.. في مجلسه وممشاه، وسفره وحضره، ومع أقرانه، وطلابه والأقارب والأبعاد، لا يتساهل في التزير اليسير، ولا يفوته الوقت القصير لا يتهاود ولا يتهاون، ولا تأخذه في الله لومة لائم. دأبه في ذلك مع الحاكم

¹ — نقول شخصية.

² — أخرجه الترمذي في السنن، كتاب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (4 / 468) حديث رقم (2169)، وأخرجه أحمد في المسند (5 / 388) حديث رقم (23349).

كما هو مع الرعية، ومع القوي كما هو مع الضعيف، ومع الغني كما هو مع الفقير، والله دره إذا غضب لله، كما كنت ترى التقوى تنطق بين عينيه، والقوة بالله ملء جنبه، لا ينفك عن غضبه حتى يرجع بغرضه"¹.

كان سريع التأثر لرؤية المنكر، شديد الغضب لربه، لا تأخذه في الله لومة لائم، صداعا بأمر الله تعالى، الناس في نظره أمام الحق سواء، رزقه الله تعالى قوة ملاحظة لكل ما حوله، فلا يدخل بيتا إلا وتختفي منه كل المنكرات.. فما كان يسكت على منكر مهما كان فاعله: رئيسا أو مرؤوسا، جاهلا أو عالما، قريبا أو بعيدا.

ولما طلب منه المسؤولون في حماة أن يقبل منصب الإفتاء كان يقول لهم في جملة اعتذاره عن قبول هذا المنصب متواضعا: (إني لا أصلح لهذا المنصب لأني كالحجر في القطرميز كيفما استدرت كسرت)². ويقصد بذلك أنه لا يرضى عن المنكرات المحيطة به وهو في هذا المنصب.

والمتتبع لحياة الشيخ — رحمه الله تعالى — بتفاصيلها عبر مراحلها المختلفة، يدرك بأن الله — سبحانه وتعالى — أكرمه بهذه النعمة، وأعدده لهذه المهمة الشريفة، وذلك بالذود عن حياض الشريعة، والرد على تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ولنا فيما يرويه عن نفسه عندما كان في مرحلة الطلب في الأزهر الشريف أكبر دليل، حيث يقول: "رأيت فيما يرى النائم أني قائم تلقاء قبر النبي عليه وآله الصلاة والسلام وعلى القبر أشياء غريبة لم يرق لي وجودها عليه، بل لقد ثقلت على قلبي فأقبلت على إزالتها بكلتا يدي مهتما، وانتبهت من نومي وإني لفي هذه الإزالة، فقصصت هذه الرؤيا على أحد علماء الأزهر العاملين بعلمهم فقال لي: إنك ستدفع عن هذا الإسلام أمورا ليست منه، وإني لأحمد الله على هذا التوفيق إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل بلسان الدين ويراغ العلم"³.

يقول في إحدى خطبه المكتوبة: " كن أيها المؤمن حرا غير مستعبد لأهواء الخلق ونزعاتهم، إذا رأيت ما لا يتفق وتعاليم الشريعة الإسلامية، فلا تكن ممائنا على الباطل، ولا تكتم الحق وأنت تعلم فتكون شيطانا أخرس، تلجم بلجام من نار يوم القيامة، وليكن خوف الله تعالى أخوف

¹ — مجلة حضارة الإسلام (العدد الثالث، تموز وآب 1969)، مقال بعنوان: العالم العامل للدكتور حسن هويدي (45، 46).

² — العلامة المجاهد محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (230).

³ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 9).

الأشياء عندك، ولتكن خشيتته مائة قلبك وفائضة على جوارحك، واصدع بالحق واجهر به، ولا عليك إن رضي فلان أو سخط فلان، فإن الله أجل وأعظم من الجميع. والله ما أفشى المنكرات وعممها، وجعلها ظاهرة لا يبالي بها، إلا إغضاؤنا على القذى، وسكوتنا على الباطل، وممالاتنا لأصحابه. ما ضر الجماهير شيء كسكوت الواعظين، حين يرون المخالفات العلنية، فلا يزعجون عنها، وما كثر عدد المبطلين إلا عدم تقريرنا أدنياء الهمم وصغار النفوس، الذين يطلبون رضا الناس بسخط الله عز وجل. هذا الذي زعزع كثيرا من الناس عن مبادئ الشريعة، وجعلهم يسعون وراء أبناء الدنيا، لينالوا من حطامها وأوساخها التي يرميها إليهم المترفون"¹.

ولذلك كان معظم الحكام الذين عاصرهم الشيخ على اختلاف نزعاتهم وانتماءاتهم حرصوا على معاملته بالملاطفة والتودد، وحرص الشيخ من ناحيته على عدم مخالطتهم أو زيارتهم إلا ناصحا أو أمرا. بمعروف أو ناهيا عن منكر أو مضطرا لحادثة نزلت بالمدينة أو الدعوة من غير مداينة أو ملاينة وكم كان يقول: "بئس العلماء في أبواب الأمراء ونعم الأمراء في أبواب العلماء"².

المطلب الرابع: وفاؤه ورحمته

• وفاؤه:

"الوفاء ضد الغدر ومعناه في اللغة: الخلق الشريف العالي الرفيع"³. قال الزبيدي: أوفى الكيل: أتمه ولم ينقص منه شيئا ووفى بالعهد.. يفى وفاء فهو وافي ضد غدر كما في الصحاح وقال غيره الوفاء ملازمة طريق المواساة والمحافظة على عهد الخلقاء"⁴ والوفاء — بمعنى رد الجميل لمن قدمه لك — خلق إسلامي رفيع حث عليه الإسلام ودعا إليه، كما تمثل واقعا حيا في سلوك النبي صلى الله عليه وسلم، فمن الوفاء مثلا أن تشكر الناس وتكافئهم على معروفهم ولو كانوا كفارا يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — في أسرى بدر: "لو كان المطعم بن عدي حيا وكلمني

¹ — العلامة المجاهد لعبد الحميد طهماز (231، 232).

² — نقول شخصية.

³ — لسان العرب لابن منظور مادة (وفي).

⁴ — تاج العروس للزبيدي مادة (وفي).

في هؤلاء النبي لأطلقتهم من أجله"¹ وذلك لأن مطعم أدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة في جواره، بعد أن منعه المشركون من دخولها بعد خروجه إلى الطائف، ويقول أيضا — صلى الله عليه وسلم: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"².

ولقد تمثل هذا الخلق النبوي في شخصه رحمه الله تعالى، وأصبح سجية من سجاياه، لا تجد فيه أي تصنع أو تكلف، فما من أحد صنع معه معروفا إلا شكر له صنيعه وكافأه عليه، مهما كان هذا المعروف قليلا، يقول تلميذه عبد الحميد طهماز: "سمعتة يثني على شخص ثناء كثيرا، ويدعوله أكثر من مرة، لأنه ناول الشيخ إبريق ماء طلبه منه"³.

ومن وفائه كثرة ذكره لشيخه ومرشده أبي النصر، فقلّ أن تجلس معه في مجلس إلا ويحدثك عن شيخه وفاء له على ما أرشده إلى طريق الهداية النورانية "وقد تجلّى هذا الوفاء بصورة عملية في حبه واحترامه لأولاد أبي النصر وأحفاده"⁴.

ويحدثنا تلميذه عبد الحميد طهماز عن وفائه حتى مع الحيوانات، فقد لجأ مرة هرّا إلى بيته فرباه وحنأ عليه، ولكن الهر لما كبر عاث في البيت فسادا، فاضطر الشيخ بعد إلحاح أهل البيت، أن يبعد الهرّا إلى بيت صديق له في أطراف البلد، وكان الشيخ — رحمه الله تعالى — يزور صاحب البيت من أجل رؤية الهر والاطمئنان عليه⁵.

ومن وفائه حنينه إلى بلده وحنينه إلى أهل الفضل في أي بلد عاش بها وسيأتي هذا في أدبه وشعره.

¹ — أخرجه البخاري في الصحيح باب ما من النبي صلى الله عليه وسلم على الأسارى رقم (2970 / 3 / 1143)، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم (9400 / 5 / 209). والطبراني في المعجم الكبير (1504 / 2 / 117).

² — أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة رقم (1877) قال: هذا حديث حسن صحيح، وأبوداود في سننه، كتاب الأدب رقم (4177) وأحمد في مسنده، كتاب باقي مسند المكثرين رقم (7676).

³ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 240).

⁴ — نفس المصدر (ص 239).

⁵ — نفس المصدر (ص 241).

• رحمته:

الرحمة هي الرقة والعطف¹ في المخلوقات يقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-:
(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)².

كان الشيخ محمد الحامد - رحمه الله تعالى - يمتاز بهذا الخلق الرفيع الذي يدل على رقة قلبه ونداوة نفسه، فقد كان رحيم القلب، واسع الصدر، يحمل الكَلَّ ويساعد الفقراء والمساكين، ويحنو على الأيتام. يروي تلميذه عبد الحميد طهماز أنه " وقف مرة أمام بيت لا باب له، فنادى امرأة باسمها، فلما خرجت إليه، سألها عن باب البيت، فقالت: يا شيخي إن المال الذي قدمته لنا لم يكف، فأخرج كيس نقوده وما زال يعطيها حتى قالت له: أصبح الآن كافياً"³. يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (لا تترع الرحمة إلا من شقي)⁴.

أما رحمته مع الحيوان فيحدثنا عنها تلميذه عبد الحميد طهماز فيقول: (أصاب سائق السيارة التي يركبها الشيخ بسيارته كلباً خطأ على طريق حمص، فأسرع - رحمه الله تعالى - إلى حماة وكلف الطبيب البيطري أن يخرج لمعالجته، وكان يوماً بارداً، ومع ذلك، لم يجد الطبيب بداً من الخروج لتنفيذاً لرغبة الشيخ - رحمه الله تعالى - ولما عاد الدكتور أخبر الشيخ أنه وجدته ميتة فتألم الشيخ كثيراً، وتصدق على الفقراء، رجاء أن يغفر الله ما اعتبره - رحمه الله تعالى - ذنباً يؤاخذ به الله عليه.

ورأى - رحمه الله تعالى - مرة في أحد شوارع اللاذقية كلباً يبحث في كومة تراب، فظنه جائعاً، فالتفت إلي وقال: إن هذا الكلب جائع، وعلينا أن نطعمه، فاستأذنته أن أذهب لأشتري خبزاً لإطعامه، ولكنه أصر أن يذهب بنفسه رغم تبعه، وذهب - رحمه الله تعالى - إلى المخبز، فاشتري رغيفاً، وعاد إلى الكلب وأخذ يرمي له قطع الخبز.

¹ - مختار الصحاح (ص 100)

² - أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، رقم (847) قال: هذا حديث حسن صحيح، وأبوداود في سننه، كتاب الأدب رقم (4290) وأحمد في مسنده رقم (6206).

³ - العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (226).

⁴ - أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة رقم (1846) قال: هذا حديث حسن صحيح وأبوداود في سننه، كتاب الأدب رقم (4291) وأحمد في مسنده رقم (7660).

وسمع مرة وهو في طريقه إلى البيت بعد الدرس المسائي صوت هراً في داخل الحوانيت المغلقة، فسأل الحارس عن صاحب الحانوت، وأخذ يبحث في الليل عن بيته، حتى وجده وطلب منه أن يذهب لإخراج الهر من الحانوت¹. وهذه تكررت مراراً.

المطلب الخامس: نواته ولطائفه

كان الشيخ — رحمه الله تعالى — لطيف النفس، ظريف اللسان، عذب الروح، يداعب تلاميذه، ويدخل عليهم السرور، فلا تفارقه هذه المداعبة سواء في دروسه العامة أو الخاصة "يتحف تلاميذه كل فترة بأنواع الدعابات ويروي لهم أجمل النوادر، يروحهم بها ساعة بعد ساعة وكذلك شأنه بين طلابه إذا أحس بتعب في أجسامهم وخمول في تفكيرهم، شد عزائمهم، وأزاح خمولهم بالملح اللطيفة والنكات الظريفة"².

يحدثنا عنه أحد تلامذته فيقول: " وشيخنا أديب فكه لا تكاد تفارقه دعابته الحلوة الظريفة في أضييق الأوقات وأحرج المواقف، وقد لا تجد له صاحباً أو تلميذاً أو أخاً إلا وله معه فكاهة ودعابة يذكرها ويعتبر بها"³.

وكان في كل ذلك يلتزم الصدق والحق مقتدياً بالنبي صلى الله عليه وسلم، يقول عن نفسه: " وعندي — كما في الإسلام — أن الصدق في الدعابة أصل ينبغي التزامه، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً، ويقول: " أنا زعيم — كفيل — بيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً "⁴ وروى عنه الإمام أحمد والطبراني أنه قال: " لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة ويترك المرء وإن كان صادقاً"⁵⁶.

¹ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 226، 227) ونقول شخصية متعددة.

² — العلامة المجاهد لعبد الحميد طهماز (ص 243).

³ — نقول شخصية.

⁴ — أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (4 / 253) حديث رقم (4800) وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب المزاح لا ترد به الشهادة ما لم يخرج في المزاح إلى عضه النسب أو عضه بجد أو فاحشة، حديث رقم (20965) وأخرجه الطبراني في المعجم الصغير (2 / 74) حديث رقم (805).

⁵ — أخرجه أحمد في المسند، (2 / 325) حديث رقم (8615).

⁶ — ردود على أباطيل محمد الحامد (2 / 68، 69).

فالمزاح وإدخال السرور على قلوب المؤمنين يحل بما لا يشتمل على إثم فإن كان فلا وقد كان صلى الله عليه وسلم يمزح أحيانا كقوله صلى الله عليه وسلم لمن جاءه يستحمله على بعير (إني حاملك على ولد الناقة) مازحا فإن الوهم يسبق إلى أن ولد الناقة جمل صغير لا يصلح ولما استغرب الرجل هذا قال له عليه الصلاة والسلام: (وهل تلد الإبل إلا النوق)¹. أي فلم يعن بولد الناقة إلا البعير الكبير الذي يصلح للحمل.

فقد كانت النكتة جاهزة معه في كل لحظة، وفي كل وقت ليخفف عن السامع بالرغم من هيئته، وكان كثيرا ما يروي تلك النوادر والنكت في درسه الفقهي².

ومن الطرائف التي وقعت له في مصر أن اللصوص سطوعلى غرفته فسرقوا ملابسه كلها، واضطر إلى شراء ملابس جديدة غيرها فكتب إلى شيخه يقول: " قد أنبت الله تعالى ريشي، بعد أن سطا السارقون على غرفتي في غيابي، وسرقوا منها ثيابي، وقد شاء الله تعالى أن يلبسني ثيابا جديدة، فالجبة جديدة، والثوب جديد، والطاقيّة جديدة، والعمامة جديدة، والجراب جديد، واللباسة أيضا جديدة، ولا ينقصني إلا عروس جديدة، وفرح بها جديد " ³.

ومن نوادره العملية في إحسانه — كما روى أحد تلامذته: أن رجلا افتقر بعد غنى، وصعب عليه العمل اليدوي، فلا يستطيع شيئا من ذلك، فقعد في بيته في حماة، وفي يوم من الأيام وقعت صرة في وسط الدار ففتحتها، فوجد فيها مالا، فتكرر الأمر عليه عدة مرات، وفي آخر مرة ترك الصرة وأسرع نحو باب الدار ففتحه لينظر من الذي يرمي هذه الصرة كل مرة، فإذا به يرى الشيخ محمد الحامد وقد ولى هاربا⁴. ويذكرنا هذا بقصة جابر عثرات الكرام الشهيرة.

" وفي مصر التقى ظرف الشيخ ولطفه مع ظرف أهل مصر ولطفهم وحبهم للدعابة، حتى اشتهر بينهم، ولما كانت أكثر نكاتهم تتصل بالفول — طعام عامتهم الرئيس — أصبح الشيخ عندهم ملكا للفول، وبايعوه على هذا فقال رحمه الله تعالى:

¹ — أخرجه الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح (4 / 357) حديث رقم (1991) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد باب المزاح (102) حديث رقم (268).

² — نقول شخصية متعددة.

³ — العلامة المحاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (245، 246).

² — نقول شخصية.

ودام مربعكم بالفول مزدانا	ياعصبة الفول أشياخا وشبانا
وقد أقمتم لهذا العشق برهانا	عشقتم الفول أشياخا وشبانا
أزيرها ملاً الأكون الحانا	هذه قدوركم بالفول زاخرة
حتى غدا كل قلب فيه ولهانا	وريجها عطر الأرجاء قاطبة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا	وقد أحبكم من ليس يعرفكم
سام وحاسدكم قد بات حيرانا	يا عترتي يا أهيل الفول مجدكم
ونلتم بهواه في الملا شاننا	أكلتم الفول حتى جل قدركم
حق له أن يذوق الجوع ألوانا	فيا ويل من لا له في جمعنا صلة
كان الجزاء قلياً والحظ حرمانا	فالفول من رغبت عنه سريرته
نال القبول وأوليناه إحساناً ¹	ومن يكن راغباً فهي على شغف

المطلب الخامس: أدبه وشعره

إن اختيار الكلمات المناسبة، والألفاظ البديعة، وصياغة الكلام على وجه يجمع بين أنماط شتى من الأحاسيس، شعورية، وعقلية، وعاطفية، أمر محمود ومندوب، إن لم يبلغ درجة الواجب في بعض الأحيان.

وهي ذاتها طريقة القرآن الكريم، في عرض التصورات العقائدية والأحكام الفقهية، والمشاهد الغيبية والحقائق العلمية، فالمخاطبون بالقرآن — كما يقول الخطابي² — ليسوا سواء، فمنهم الحضري الذي هذب لسانه، ومنهم سكان البادية الذين أكسبتهم البداوة قوة ورسالة³

¹ — العلامة المحاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (243، 244).

² — حمد بن محمد إبراهيم البستي الخطابي، أبو سليمان، ولد عام 319 هـ وتوفي عام 388 هـ، فقيه محدث له مؤلفات كثيرة منها: معالم السنن، وبيان إعجاز القرآن وإصلاح خطأ المحدثين وغيرها. الأعلام للزركلي (2 / 273).

³ — بيان إعجاز القرآن للخطابي، نقلاً عن أساليب الدعوة المعاصرة لحمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمّار (ص 610).

ولذلك عرض القرآن موضوعاته — على اختلاف أنواعها — بأساليب مختلفة، وطرائق متنوعة وصاغها في قوالب متباينة، فوضع لكل أسلوب قالباً يناسبه ويلائمه.¹

وقد شهد المعاصرون للشيخ — رحمه الله تعالى — على أن مؤلفاته تتسم بعذوبة اللفظ وقوة البيان، وأسلوب بياني راق وجذاب مع حسن الصياغة والعرض وجودة التأليف والإكثار من المحسنات اللفظية، وتبسيط المعلومات بأسلوب سهل بعيد عن الجفاف والتعقيد.

والقارئ وهو من همك على كتابات الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — يحس بهذه المعاني تسري في كيانه سريان الدم في العروق، وتجذبه إليها جذبا قويا، لما في أسلوبه من سهولة وعذوبة، وسحر حلال، وقد قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — (إن من البيان لسحرا)².
يقول عنه تلميذه الشاعر عبد القادر حداد³:

إن في قولك الكريم لسحرا صادق النبر صافيا عربيا
إذ على كل لفظة نبضات تشعر النفس بالبيان نديا
منطق ساحر وحس وشعر فقت فيه الحبيب⁴ والبحتر⁵

(والشيء من مأتاه لا يستغرب) ذلك أن الشيخ محمد الحامد تربي في بيئة تحترم الأدب وتبجله، وقد خرج من ضئضئ⁶ أسرته أخوه الشاعر الفحل بدر الدين (شاعر نهر العاصي)، وخاله

¹ — نفس المصدر (ص 611).

² — رواه البخاري في الصحيح، كتاب النكاح، باب الخطبة حديث رقم (5146).

³ — شاعر أصيل ومدرس للغة العربية في حماة ثم في المهجر في الكويت توفي بعمان في الثمانينات — نقول شخصية.

⁴ — حبيب بن أوس، هو أبو تمام، حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي، من حوران. أسلم وكان نصرانيا مدح الخلفاء والكبراء، وشعره من الذروة، ولد في أيام الرشيد. مات في محرم سنة (232 هـ) وقيل: سنة (228 هـ) كان واحد عصره في ددياجة لفظه، وفصاحة شعره، وحسن أسلوبه، له كتاب " فحول الشعراء " سير أعلام النبلاء (11 / 63).

² — هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد الطائي البحتري، مدح الخلفاء وعاش نيفا وسبعين سنة ونظمه في أعلى الذروة مات (منج) وقيل (بجلب) سنة ثلاث أو أربع وثمانين ومائتين. سير أعلام النبلاء (13 / 486).

⁶ — الضئضئ: الأصل والعقب، وفي حديث الخوارج (يخرج من ضئضئ هذا قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم) يريد أنه يخرج من نسله وعقبه. النهاية في غريب الحديث (3 / 69). الحديث رواه البخاري في الصحيح حديث: باب قول الله تعالى: (وإلى عاد أخاهم هودا..). رقم (3166).

سعيد الجايي العالم الأديب، أما جده الشيخ سعيد فقد كان شاعرا وله ديوان مطبوع بعنوان (ديوان الشيخ مصطفى الجايي)، بل كان والده الشيخ محمود الحامد عالما متصوفا أديبا¹.

وبالرغم من المؤهلات الأدبية والشعرية التي يتمتع بها الشيخ رحمه الله تعالى، فقد رجح جانب العلم على الشعر والأدب، وقد بين ذلك في رسالة أرسلها إلى أحد تلاميذه: (يا بني، لئن تكون عالما فقيها خير لك وللأمة من أن تكون شاعرا مفلقا، ولقد كنت في الماضي أعاني النظم والشعر، ثم انقلبت إلى العلم، وإليه توجهت على ما في من حلقة شعرية عاطفية عنيفة، حتى إني لأهتز أقوى اهتزاز لبيت من الشعر يلامس مني مكان الحس الروحي الديني، وقد اضطرب وقد أبكي وقد تغشاني الحال التي تغشى أصحابها بشدهما، ولكنها تفلح عني بسرعة لانشغالي بالعلم... لا بأس بقليل منه ينظم في الأغراض الشريفة والمقاصد الحسنة وأما انصراف الهمة إليه فخرسان أربأ بك عنه، لا سيما في هذا الزمان الذي كثر فيه الشعراء والمشعرون، وإن في منظوماتهم ما هو ووصف كلام فقط، دون أن يكون للروحانية صلة به)².

• أغراض شعره:

— المديح:

له شعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه:

يا حبيب الرحمن، يا صفوة الخلـ — — — — —
سق ويا منيتي وراحة روحي

يا وليي وسيدي وإمامي — — — — —
أنت لي خير مشفق ونصيح

والرسول — — — — — صلى الله عليه وسلم — — — — —
عنده أغلى من أبيه وأمه وأخيه يقول:

لا أبي لا أخي ولا صدر أمي — — — — —
ولا ذوالإخاء خدن الروح

بلغوا شأوك العلي بـ — — — — —
أوفاء أوفي الحنان الصحيح

كما مدح بعض إخوانه الذين عرفهم في مصر (1940 م) فقال:

¹ — مقال بعنوان (الجانب الأدبي في شخصية العلامة الراحل محمد الحامد) للأستاذ عبد القادر حداد، مجلة حضارة الإسلام (ص97).

² — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص254).

أحبائي هذا فؤادي لكم
لقد فعل الشوق بي فعله
تركت بمصر صحابا كراما
رجال لهم في التقى مأرب
وهذي عيوني وهذي دموعي
وما من مجيب وما من سميع
لهم طار شوقي وشت ولوعي
تلوح عليهم سمات الخشوع¹
وله عدة قصائد في مدح مصر والنيل وإخوانه فيها².

— الوصف والحين:

يصف شوقه إلى حماة بعدما غادرها لطلب العلم إلى حلب عام (1928 م) وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة فيقول:

آها على وادي حما
آها على تلك الرُّبُو
النهر يخرق الريا
دولابه ييكي ويسقي
يا من بقلبي ودّهم
ة إذا نسيم الصبح هبّا
ع وأهلها بعدا وقربا
ض وقد جرى حلوا وعذبا
الدمع فاكهة وأبا
وبحقهم لم أجن ذنبا

¹ — مجلة حضارة الإسلام (العدد الثالث — السنة العاشرة ، تموز وآب 1969) مقال بعنوان: الجانب الأدبي في شخصية العلامة الراحل محمد الحامد لعبد القادر حداد (ص 96 وما بعدها).

² — انظر الصفحة 256 و264، 265، 269 من كتاب العلامة المحاهد للشيخ محمد طهماز.

قد كنت والله المحباً¹

لا تقطعوني إنني

وقال في حمص وشيخه فيها:

وفؤادي تمزه الأشواق

تترامى روعي إلى أرض حمص

هوللدااء كله ترياق²

وبروحي حب أقام بقلبي

وقال يمدح صديقه الأول عالم المعرفة أحمد الحصري:

فيك الكرامة والميرة

حييت يا أرض المعرفة

ك الروح تسرح في مسرة

فيك الحياة وفي حما

في القلب إمساء وبكرة

منك الذي هو ساكن

أنسي ولاقتني المضرة³

إن غاب عني غبت عن

فهو إذن شاعر ملهم، ضاعت شخصيته الشعرية وسط التحقيق العلمي، والاستنباط الفقهي، وإن كان أثر ذلك ظاهراً على مستوى مؤلفاته من حيث الأسلوب الأدبي الذي صاغ به رسائله وردوده وفتاويه.

وقبل الختام لا يفوتني أن ألفت انتباه القارئ إلى أهمية دراسة الجانب الأدبي في شخصية الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — الذي لم يدرس دراسة وافية كافية تليق بمقامه، وما كتبه الأستاذ عبد القادر حداد في مجلة حضارة الإسلام لا يفني بالحاجة، ولا يعبر عن حقيقة ملكاته الأدبية، لكونه يعالج جانباً واحداً من جوانب الأدب، وهو الجانب الشعري، دون بقية الجوانب الأخرى.

¹ — مجلة حضارة الإسلام (العدد الثالث — السنة العاشرة، تموز وآب 1969) مقال بعنوان: الجانب الأدبي في شخصية العلامة الراحل محمد الحامد لعبد القادر حداد (ص 96 وما بعدها).

² — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 259).

³ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 268).

الفصل الثالث: شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته

وينقسم إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: شيوخه والشخصيات التي تأثر بها

المبحث الثاني: تلاميذه

المبحث الثالث: مؤلفاته

المبحث الرابع: أهم ما كتب عنه استقلا

المبحث الأول: شيوخه والشخصيات التي تأثر بها

لم يكن الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — وليد نفسه، وصانع ذاته المتميزة فقط، بقدر ما كان امتدادا لعلماء أفاض، درس على أيديهم وتعلم في حلقاتهم واقتبس من علمهم وفضلهم وسلوكهم لأنهم كانوا يجمعون بين العلم والعمل، ولهم مواقف طيبة في الزهد والورع والتقوى وقول الحق والصلابة في الدين والوقوف عند حدود الله.

لقد تلقى رحمه الله تعالى العلم على علماء الشام ومصر، حيث كان لهم تأثير واضح على شخصيته كما يذكر ذلك عن نفسه في مجلة حضارة الإسلام، وممن تلقى عليهم العلم:

1. خاله العلامة السلفي الشيخ محمد سعيد الجابي:

وهو المدرس العام في حماة — رحمه الله تعالى — وعالمها في زمانه، اشتهر بالالتزام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعرف بالجرأة والشجاعة ومواجهة المستعمرين الفرنسيين وله حادثة طريفة مع المندوب السامي الفرنسي في حماة عندما حاول ضم الجامع الكبير إلى مدرسة الراهبات وادعوا أنه كان كنيسة قبل الفتح الإسلامي، فأراد الحاكم الفرنسي أن يستشير وجهاء البلدة فأشاروا إليه بالشيخ سعيد وأنه إذا وافق على ذلك لن تكون هناك مشكلة، فاستدعاه وعرض عليه الأمر فكان جوابه سريعا: (لابأس ولكن بمثل الثمن الذي دفعناه، وبين الشيخ والفرنسي ترجمان.. فنقل الترجمان ذلك فأجاب المندوب رضينا فكم الثمن؟ فأجاب الشيخ بكل رجولة وصراحة أخذناه بالدم ولن نعطيه إلا بنفس الثمن، فسكت وانصرف الشيخ¹. يقول عنه الشيخ محمد الحامد: "إنه هو الذي دفعني في سبيل العلم الديني وأمرني بحفظ القرآن الكريم وأقراني مبادئ العلوم الدينية"². وقد تلقى عليه العلم عندما كان طالبا في المدرسة الشرعية بحماة. وقد كان لخاله تأثير كبير عليه في غرس مذهب السلف قبل أن يلج لجة التصوف، توفي رحمه الله تعالى سنة 1948 م³.

2. الشيخ محمد توفيق الصَّبَّاح :

وهو شيخ الشافعية بمدينة حماة ورئيس جمعية العلماء فيها طيلة حياته وله اليد البيضاء في نشر العلوم الشرعية والتدريس في المساجد، حيث شملت دروسه الرجال والنساء، وبقي يمارس نشاطه الشرعي والتعليمي حتى وافته المنية وقد عمر قريبا من المائة رحمه الله تعالى⁴. يتحدث عنه الشيخ محمد الحامد فيقول: " كان مديرا لدار العلوم الشرعية وكان يبذل جهدا كبيرا في تثقيفنا وتعليمنا ويحنو علينا حنو الوالد الرحيم على صغاره"⁵. وهو أحد أساتذة الشيخ في المدرسة الشرعية بحماة.

¹ — نقول شخصية ومن المعروف عند أهل البلد أن هنالك في المسجد قبل هدمه شبك عليه شبك حديدي تخين القضبان عليه ثلثوم كأثار السيوف وقد انقطع أحد القضبان مع أن قطره يتجاوز 4 سنتيمتر وهو من الفولاذ، ثم أعاد أحد المهندسين من أهل المدينة المسجد كما كان بعدما تعرف على مكان أحجاره كلها - رحمه الله تعالى - . نقول شخصية متواترة.

² — علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب (ص 236) ومجلة حضارة الإسلام (ص 50).

³ — نقول شخصية.

⁴ — نقول شخصية.

⁵ — علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب (ص 236) ومجلة حضارة الإسلام (ص 50).

3. العلامة مفتي حمّاة الشيخ محمد سعيد النعساني:

هو مفتي حمّاة الأسبق وقد كانت له مكانة خاصة في قلب الشيخ إذ أنه يعد من أوائل أساتذته الذين أولوه رعاية متميزة، فكان الشيخ رحمه الله تعالى — يعرف له هذا الفضل ويتحدث عنه ويشيد به. شيد المدارس يوم لم يكن من يسعى إلى تقديم أي مساعدة للتعليم، وبنى الجمعيات الخيرية التي رعت دار العجزة والأيتام، هذا إلى جانب معرفته بمقتضيات العصر واستمساكه بأهداب الشريعة الغراء، فكانت فتاواه كالبلسم الشافي لكل قضية وكل مسألة¹.

يقول عنه محمد الحامد: " إنه كان ذا الباع الطويل في العلوم والمعارف، فقد كان له فضل رفع الهمة إلى معالي الأمور والترفع عن سفاسفها، وما يزال أسعده الله في قيد الحياة قد جاوز المائة من العمر، ونزل به مرض الشيخوخة ولزمته العلة"².

كان صديقاً لوالده محمود الحامد، فعندما كان الشيخ مع أخويه يمر بضائقة مالية، وقف إلى جانبه وساعده وعينه معلماً ابتدائياً سنة 1920 م.³

توفي سنة 1966م قبل وفاة الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — بثلاث سنوات⁴. وقد كرمه الجيل الذي قام على تربيته ورعايته عام 1957 عندما بلغ من العمر مائة عام، وكان الشيخ محمد الحامد من أبرز المتكلمين في الحفل، كما ألقى أخوه الأستاذ الشاعر بدر الدين الحامد (شاعر العاصي نسبة إلى نهر العاصي) قصيدة عصماء طويلة جاء فيها:

فوق الفهوم جلال قدرك فلتكن في عصرنا هذا أبا حيان

والدين عنك مشرع صاف به يروي غليل الصائم الظمان⁵

4. الشيخ أحمد الزرقا:

¹ — نقول شخصية.

² — مجلة حضارة الإسلام العدد الثالث من السنة العاشرة (ص50).

³ — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص17).

⁴ — نقول شخصية .

⁵ — نقول شخصية.

هو والد الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا — رحمهما الله تعالى — المعروف على مستوى العالم الإسلامي، وقد تتلمذ الشيخ — رحمه الله تعالى — على يديه في المدرسة الخسروية الشرعية بجلب وأخذ عنه الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة، وكان يقول الشيخ عنه (ما جلست طيلة حياتي إلى أفقه منه لا في مصر ولا سورية)¹.

يقول عنه الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى —: " هو الفقيه الجليل لم أجلس إلى أفقه منه حتى المشايخ الذين تلقيت عنهم في مصر من بعد، بلل الله ثراه وأغدق عليه شآبيب رحمته، كان يتفجر علما، ويتفتح تحقيقا، ويجرى معرفة كالوادي إذا سال، ولكأن الفقه كان أمامه يأخذ منه ما يشاء ويترك ما يشاء، وأشهد أنه كان وقافا عند حدود الله في بياناته العلمية فإن عرض عليه إشكال طلب إلينا أن نكتبه له ثم يضعه في ثنايا عمامته ويأتينا في الغد بالقول الفصل وكان يقول: " العلم أمانة". وهذا الأستاذ الكبير أحد الذين تأثرت بهم من الناحية العلمية.

هذا إلى تأديبه لنا منه معشر طلابه وأخذه إيانا باحترام الأئمة والعلماء حتى من غير الحنفية ولا أزال أذكر قوله في حلقة الدرس، إني أتصور الإمام الشافعي رحمه الله تعالى جبلا من علم.

وقد كان رحمه الله تعالى ذا هيبة عظيمة وشيخوخة نيرة ولكنك إذا خالطته لمست فيه نفسا طيبة متواضعة يمزج تقريراته العلمية بمزح لطيف ومداعبات حلوة، ولم يكن من أهل الشطح والكبر الذين ينكرون فضل الفضلاء السابقين بل كان يتهم نفسه ويقول: " لقد استرحنا من حيث تعب الكرام ". مع أنه كان في تلقيه عن والده الجليل الأستاذ الشيخ محمد الزرقا رحمه الله تعالى، تمر به سنون لا ينام الليل ويطالع نحوًا من عشرين كتابا علميا فقهيا على الكتاب الذي كان يتلقاه عن والده، وكان يرجع إلى الكتب التي نقل عنها المحقق الشيخ ابن عابدين في حاشيته الشهيرة التي سماها (رد المختار)، كان يرجع إليها فيجده واهما في بعض النقول. أخبرنا بهذه عن نفسه².

5. الشيخ عيسى البيانوني الحلبي:

هو الأستاذ العالم العامل — كما يقول عنه الشيخ — من خلفاء الشيخ محمد أبو النصر "كان رحمه الله تعالى مدرسا لنا في المدرسة الخسروية الشرعية لعلم التصوف والأخلاق وكان نفعه

¹ — نقول شخصية

² — مجلة حضارة الإسلام، العدد الثالث السنة العاشرة (تموز وآب 1969) (ص 48).

يسرى إلى قلوبنا قالا وحالا فتطهر ضمائرنا في درسه وتصفو أرواحنا وكان يضرب المثل الأعلى في التواضع النفسي والانهماك الذاتي وتحمل الأذى.

وكان لشدة شغفه برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحبه له سأل الله أن يموت في المدينة المنورة فأجاب الله دعاءه فقبضه فيها بعد الحج ودفن في البقيع¹.

6. الشيخ محمد أبو النصر الحمصي النقشبندي:

وهو شيخه الروحي الذي تلقى عنه الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — الطريقة النقشبندية، ولد في مدينة حمص سنة 1292 هـ / 1871م²، وهو أحد كبار الزهاد والصالحين في بلاد الشام.

كان له دور كبير في التأثير على شخصية الشيخ — رحمه الله تعالى — وتوجيهه إلى التصوف، وقد صرح بذلك الشيخ ذاته عندما قال: " والذي له في نفسي مكان الصدارة الأولى على الإطلاق والعموم وله فيها بالغ التأثير العميق والشديد معا هو فضيلة سيدي العالم العامل والمرشد الكامل، مربي المريين، ومرشد السالكين، العارف بالله تعالى الشيخ محمد أبو النصر النقشبندي قدس الله سره. الذي أخذت عنه طريق السادة النقشبندية العلية.

إنه الذي أخرجني الله تعالى به من ظلمات الغفلة والقسوة والشروء إلى نور الذكر والرقعة والوقوف بباب الله سبحانه وتعالى في ذلة وضراعة لهذا الرب الكريم، إنه الذي ملأني بتوجهات قلبه الشريف، وكم طهرت فيوضاته من أسرار، وأزاحت من أكدار، وأعلت من همم، وأنجت من نقم. كم أنقذت من غرقى في بحار الطغيان، وكم جلا عن القلوب من ران العصيان. وكم أبكى من عيون الناس عيوننا، وكم ألقى في ضمائرهم سرا مكنونا.

كان من الصديقين الراسخين الذين لهم قوة إشعال جذوة الحال في مريديه على القرب والبعد، وقد سمعته يقول: " القرب والبعد عندنا واحد. من لم ينفك بعده لم ينفك قربه ".

وكراماته التي أكرمها الله بها حوارق العادات كثيرة جدا وإن من نيتي جمعها في كتاب إن شاء الله تعالى وفاء بحقه وقياماً ببعض واجبه علي ولئن كان مني نفع للأمة فهوفي صحيفة

¹ — انظر مجلة حضارة الإسلام (ص 51).

² — العلامة المحاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 194).

شيخه مسجل إذ قد انتابني نائبة روحية أيام دراستي في مصر كادت تشل فكري عن العمل وترميني بكارثة التعطل العقلي فكتبت إليه بما عناني، فرأيت فيما يرى النائم أنه مد يده الكريمة إلى قلبي وحركه بأصبعه الشريفة فاستيقظت وقد أبراني الله من العلة بعد أن حار إخواني المصريون في أمري.

توفاه الله تعالى في سحر ليلة الجمعة الخامس من رمضان المبارك سنة 1368 هـ¹.

7. الشيخ أحمد مراد.

الفقيه الحنفي، من كبار علماء حماة، وقد جمع بين العلم والعمل، فانتفع به خلق كثير سواء كانوا من أهل المدينة أم من أهل الأرياف، وقد كانت دروسه تشمل عددا من مساجد حماة²، وهو والد زوجة الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — يصفه بأنه: "الحجة العالم العامل، التقى، الورع، الزاهد في الدنيا، شمس علماء حماة وبدر شيوخها.. إنه من شيوخه الذين لهم علي فضل التربية والتعليم، وقد أكرمني الله فجعلني صهرا له على ابنته، وقد كان هذا قبل أن يكون لي مورد رسمي ومترل آوي إليه، ولكنه التوكل على الله سبحانه وتعالى والإيمان به والوثوق بما عنده. كانت الفتوى في حماة وقراها تدور حوله، وترجع إليه، فقد كان أمين الإفتاء، ولم تصدر عنه فتوى غير صحيحة، وقد قال فيه سماحة العلامة الجليل مفتي الشام الأستاذ الشيخ محمد شكري الاسطواني رحمه الله تعالى قال فيه: "عنه تؤخذ الفتوى"³.

8. الإمام حسن البنا:

ولد حسن البنا عام 1906 م بمصر، وأسس حركة الإخوان المسلمين، وقتل غدرا أيام حكم الملك فاروق عام (1949 م) وهو أحد أهم الشخصيات التي أثرت في الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — ولنترك للشيخ — رحمه الله تعالى — يعبر لنا عن مكنون حبه ومدى تأثيره بهذه الشخصية وذلك عندما سأل من قبل مجلة حضارة الإسلام عن أهم الشخصيات التي تأثر بها فقال: "والذي أثر في نفسي تأثيرا من نوع خاص وله يد في تكويني الشخصي سيدي وأخي في الله وأستاذي الإمام الشهيد الأستاذ حسن البنا — رحمه الله تعالى وأغدق عليه غيوث الإحسان

¹ — نفس المصدر (ص50، 51).

² — نقول شخصية.

³ — علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب (237)، حضارة الإسلام (50).

والكرم — صحبته في مصر سنين وحديثي عنه لو بسطته لكان طويل الذيل ولكانت كلماته قطعاً من قلبي، وأفلاذاً من كبدي، وحرقة من حرارة روحي، ودموعاً منهلة منسجمة تشكل سيلاً من فاجع الألم وعظيم اللوعة..

إنه أخي قبل إخوتي في النسب، ولما وافاني نبأ اغتياله قلت إن موت ولديّ، ولم يكن لي غيرهما حينئذ، أهون عليّ من وفاة الأستاذ المرشد..

إني أقولها كلمة حرة ولا بأس بروايتها عني أقول: إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين في مجموع الصفات التي تحلى بها وخفقت أعلامها على رأسه الشريف.

لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين وتدبير المدبرين، وحنكة السائسين، لا أنكر هذا كله عليهم من سابقين ولاحقين لكن هذا التجمع لهذه المتفرقات من الكمالات قلما ظفر به أحد كالإمام الشهيد — رحمه الله تعالى.

لقد عرفه الناس وآمنوا بصدقه وكنت واحداً من هؤلاء العارفين به والذي أقوله فيه قولاً جامعاً هو أنه كان لله بكلية بروحه وجسده، بقلبه وقلبه، وبتصرفاته وتقلبه، كان لله فكان الله له فاختره واجتباها وجعله من سادات الشهداء الأبرار¹.

أثر عنه أنه قال فيه: عندما كنت أنظر إليه كنت أنظر إلى صديق من الصديقين، كان عالماً، ولو أطال الله في عمره لكان مجتهداً، عندما كنت أجلس بجانبه وكأني أجلس بجانب جبل، كان متواضعاً، استقبل في بلدة مصرية استقبلاً حافلاً بالحفاوة والتكريم، فنظرت إليه فلم يتغير، وكان يحدث تلاميذه عنه طويلاً في درسه الصباحي، فإذا رأى دموعهم قد انهمرت شوقاً إلى الإمام وحزناً عليه انقطع عن الكلام².

هذه هي أهم الشخصيات العلمية والدعوية والتربوية التي تلقى عنها الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — العلم والتربية، غير أنه هناك علماء آخرون كانوا أساتذة للشيخ منهم: الشيخ أحمد الشماخ، والشيخ عبد المعطي الواسع المعرفة في فقه المواريث، والشيخ فيض الله الكردي

¹ — انظر مجلة حضارة الإسلام (ضيف الحضارة) العدد الثالث من السنة العاشرة (تموز وآب 1969) ص 52، 53.

² — نقول شخصية.

الحقق العظيم في علمي التوحيد والمنطق، والشيخ محمد أسعد العبيدي مفتي الشافعية في حلب، والشيخ عبد الله حماد والشيخ إبراهيم الغلاييني من أرباب القلوب، وأهل المعرفة، كان فقيها جليلاً يفتي في الحوادث، والشيخ محمد زاهد الكوثري وغيرهم.¹

لقد اتصل الشيخ محمد الحتمد بهؤلاء العلماء وغيرهم من شيوخه وتلقى عنهم ما يفيد المسلمين، كما اتصل بزملائه وأقرانه من العلماء، وبما أنه كان حريصاً على المسميات أكثر من الأسماء في العمل لوجه الله تعالى، فقد بنى ما يشبه العمل المشترك مع هؤلاء العلماء في رابطة تضمهم في العمل للإسلام يحدوها نشر العلم الشرعي والاهتمام بأمور المسلمين.

أما في مدينة حماة فقد كان رحمه الله تعالى عضواً في جمعية العلماء التي ضمت علماء الإسلام في المدينة، وهما الأساسيون لنشر العلم الشرعي، يرأسها الشيخ خالد الشقفة - رحمه الله تعالى - وهي مرخصة إذ ذاك برخصة رسمية.

المبحث الثاني: تلاميذه

مارس الشيخ - رحمه الله تعالى - التدريس، وتفرغ للتعليم وإلقاء الدروس في المدارس والمساجد، واجتمع في حلقاته ودروسه عدد غفير من طلاب العلم، والعامّة، ولا شك أن الذين استفادوا من علمه ودروسه على أصناف، فقد استفاد منه عامة الشعب وسواد الناس، وانتفعوا بخطبه ووعظه وحلقاته، كما استفاد منه عدد كبير من التلاميذ والطلاب وأصبحوا من الخواص.

أولى الشيخ محمد - رحمه الله تعالى - تلاميذه عناية خاصة، حيث منحهم جزءاً كبيراً من وقته بمجالستهم، وإعانتهم على مصالحتهم، وحل مشاكلهم ومشاركتهم في همومهم، والسعي في حوائجهم، وكانت له توجيهات مستمرة لهم في اتباع منهج السلف، وطريقة تحصيل العلم ونشره وحثهم على فعل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كما كان يحثهم على أخذ العلم من غيره يقول تلميذه الشيخ سعيد حوى: " ومع أن شيخنا محمد الحامد كان ممن اجتمع له الذكر والعلم والورع والدعوة، وكان أرقى الناس - فيما

¹ - انظر نفس المصدر (ص 48، 49، 50).

علمنا — روحيا وعلميا ومع ذلك فلقد كان يدفعنا نحو التلقي من العلماء والأولياء¹ ومن ذلك أن تلميذه عبد الحميد طهماز أخذ الفقه الشافعي عن الشيخ خالد الشقفة وشجعه الشيخ محمد الحامد على ذلك، وكان لسعيد حوى شيوخ كثيرون ذكرهم في كتابه "هذه تجربتي.. وهذه شهادتي"، وذكر تلميذه الدكتور غسان حمدون في مقدمة كتابه: كتاب الله في إعجازه يتجلى مجموعة من المشايخ الذين أخذ عنهم تفسير القرآن وعلومه فبلغوا تسعة شيوخ بما فيهم الشيخ الحامد².

ونشرع بذكر ترجمة موجزة مختصرة لأشهر تلاميذه الذين كان لهم جهد في التأليف:

— د. أحمد جواد.

— الشيخ بشير شقفة:

— د/ حات الطبشي.

— الأستاذ حسني الشيخ عثمان.

— الشيخ سعيد حوى.

— الشيخ عبد الحميد طهماز.

— أ. د/ غسان حمدون.

1 — د. أحمد جواد — رحمه الله تعالى —:

ولد الدكتور أحمد جواد في بداية الأربعينات، وكان مواظبا على حلقات الشيخ العلمية في جامع السلطان بحماة، كما كانت له اهتمامات علمية، فتخصص في الطب البيطري وتخرج من مصر، عمل طبيبا بيطريا في سورية والإمارات والأردن وألف كتابا قيما حول أضرار لحم الخنزير، أقام درسا أسبوعياً في مؤلفات شيخه محمد الحامد لـ 11 سنة في عمّان يحضره لفييف من السوريين هناك.

2 — الأستاذ حسني الشيخ عثمان:

¹ — هذه تجربتي.. وهذه شهادتي لسعيد حوى (ص 32).

² — كتاب الله في إعجازه يتجلى (ص 4)

ولد في بداية الأربعينيات وهو أحد الطلاب الذين تلقوا العلوم الشرعية في دروس الشيخ محمد الحامد، وكانت له اهتمامات بعلم الإدارة، فتخصص فيها، وتخرج من جامعة

دمشق وله عدة مؤلفات دينية وإدارية وهي:

— حق التلاوة، أهدها لشيخه محمد الحامد — رحمه الله تعالى

— هذا أبوذر — رضي الله عنه —

— المشايخ والاستعمار

— أباطيل الأباطيل

— تكنولوجيا الاجتماعيات (إتقان الاجتماعات)

— مفاهيم إسلامية

— التخطيط والتنظيم والمتابعة على مستوى الأفراد والمجموعات الصغرى

— شقائق الرجال

— تجويد الفاتحة

سلسلة رسائل تقديمية:

— هل للدين أساس

— الطبيعة والإله

— معنى الإسلام

— وحدة الدين

— هارون الرشيد وتنازل السلطان عبد الحميد

— أحسنوا أسماءكم.

تحت الطبع:

— أصول تدريس التجويد¹

¹ — نقول شخصية وأسماء الكتب من كتبه نفسها.

3 — الشيخ سعيد حوى — رحمه الله تعالى:

هو سعيد بن محمد ديب حوى النعيمي ولد في 27 سبتمبر 1935 م في مدينة حماة¹،
تربى في كنف والده، وعمل معه في صباه في تجارة المنتجات الزراعية²، درس في مدارس حماة
وتخرج من ثانوية بن رشد³ وأكمل دراسته في كلية الشريعة بجامعة دمشق⁴، درس في مدارس حماة
فترة قصيرة ثم نقل توفي إثر مرض عضال في عمان في المستشفى الإسلامي في 9 مارس 1989 م⁵.

من مؤلفاته:

- الأساس في التفسير (11 مجلدا).
- الأساس في السنة وفقهها: السيرة — العقائد — العبادات (14 مجلدا)
- سلسلة الأصول الثلاثة (الله، الرسول، الإسلام)
- تربيتنا الروحية
- المستخلص في تزكية الأنفس
- مذكرات في منازل الصديقين والربانيين
- جند الله: ثقافة وأخلاقا
- من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك
- الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص
- بطلا الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: يوسف بن تاشفين
وصلاح الدين الأيوبي

² — انظر هذه تجربيته وهذه شهادتي لسعيد حوى (ص 7).

³ — نفس المصدر ص (9).

⁴ — نفس المصدر (ص 29).

⁵ — نفس المصدر (ص 44).

⁶ — هذه شهادتي وهذه تجربيته لسعيد حوى (ص 7) وموقع الجزيرة على الانترنت (www.aljazeera.net)

- المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين
- جولات في الفقهاء الكبير والأكبر وأصولهما
- في آفاق التعاليم
- دروس في العمل الإسلامي المعاصر
- فصول في الإمرة والأمير
- رسالة: منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة
- فلتنذكر في عصرنا ثلاثا: فروض العين، فروض الكفاية، لمن تدفع صدقتك
- عقد القرن الخامس عشر الهجري
- إحياء الربانية
- إجازة تخصص للدعاة
- غذاء العبودية
- أخلاقيات وسلوكيات تتأكد في القرن الخامس عشر الهجري
- قوانين البيت المسلم
- السيرة بلغة الحب
- الإجابات
- جند الله: تخطيطا وتنظيما
- هذه تجريتي.. وهذه شهادتي¹..

— الشيخ عبد الحميد طهماز:

ولد الشيخ عبد الحميد طهماز في أواخر الثلاثينيات، وهو أحد التلاميذ المقربين من الشيخ محمد الحامد، ويكن له احتراماً وتقديراً كبيرين، معروف بالدقة الفقهية، تخرج من كلية الشريعة بجامعة دمشق، وعمل مدرسا في ثانويات حماة وإعدادياتها، واستلم الدرس اليومي بعد وفاة الشيخ

¹ — انظر أسماء كتبه في كتاب (هذه تجريتي.. وهذه شهادتي).

محمد الحامد في جامع السلطان، وتصدر للفتوى والتربية الإسلامية بعد شيخه العلامة الحامد، وكان شيخه كثير الدعاء له ولغسان حمدون بالسجود عندما مر بمحنة وأسى، من أهم مؤلفاته:

- رسالة: الصحيح أن كل ما في البخاري صحيح
- إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس
- الفقه الحنفي في ثوبه الجديد
- عبد الله بن عباس — رضي الله عنه — (سلسلة أعلام المسلمين)
- العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد (سلسلة أعلام المسلمين)
- الأنساب والأولاد — دراسة لموقف الشريعة الإسلامية من التلقيح

الصناعي

- النبي وأزواجه في سورة الأحزاب
- العواصم من الفتن في سورة الكهف
- الحلال والحرام في سورة المائدة
- وله تفسير للقرآن الكريم موضوعي.

— الأستاذ الدكتور غسان حمدون:

ولد الدكتور غسان حمدون في الأربعينيات، وهو أحد المقربين من الشيخ محمد الحامد، ومحبيه، شجع الناس وخاصة طلبة العلم على حضور درس الشيخ في عام 1969م، فاجتمع للشيخ عدد غفير، وذلك لقول الشيخ له: اجعلوا هذه الدروس حسكة في أعينهم، وكان الشيخ رحمه الله كثير الدعاء له في السجود¹.

وقد كان الشيخ — رحمه الله تعالى — يحبه محبة خاصة²، كما عانى في طريق الإسلام وصبر، تخرج من كلية الشريعة من جامعة دمشق، ثم تحصل على الماجستير من جامعة البنجاب من

¹ — نقول شخصية.

² — عن معاذ — رضي الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: يا معاذ والله إني لأحبك، ثم أوصيك لاتدعن في دبر كل صلاة (أي عقب كل صلاة مفروضة) أن تقول: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)، قال النووي: "رواه أبو داود (1522)، والنسائي (53/3)، بإسناد صحيح — رياض الصالحين، (ص: 202) — مؤسسة الرسالة — بيروت 1406

لاهور، كما نال درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في أم درمان بالسودان، درّس في مدارس حماة ورأس العين والإمارات وفي جامعة صنعاء¹، وفي جامعة العلوم والتكنولوجيا والمعهد العالي للتوجيه وإرشاد في صنعاء لتخريج خطباء وأئمة المساجد، وكان له درس يومي في جامع النوري (نورالدين الزنكي) في مدينة حماة ودرس في الجامع الكبير أولاً، ومن مؤلفاته:

— تفسير من نسمات القرآن — كلمات وبيان أهدها لشيخه الحامد وحماة الإسلام.

— اعجاز القرآن وأسماء الله الحسنى (السلسلة الإسلامية العلمية المقارنة).

— كتاب الله في إعجازه يتجلى (السلسلة الإسلامية العلمية المقارنة).

— وله العديد من البحوث العلمية في القرآن الكريم في عدد من المجالات العلمية، وفي موقعه على الانترنت باسمه.

سيصدر له قريباً بإذن الله تعالى:

— محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخاطب عصرنا الحديث، وقد بدأ بنشر فصول منها على موقعه على الانترنت.

— الإسلام يملك أرقى التشريعات في العالم².

— الأستاذ محمود الحامد:

ولد في منتصف الأربعينات، تأثر بوالده كثيراً وتعلم من علمه وخاصة في الدرس الصباحي، استلم منبر جامع السلطان بعد وفاة والده وكانت له خطب مؤثرة وحماسية، شديد في

هـ/1985م، وذكر الشيخ هذا الحديث في الدرس العام في مسجد السلطان، ثم قال: إن معاذ قال لمن بعده: إني أحبك في الله وذكر الحديث ثم من بعده قال لمن بعده حتى وصلت إلي فقال الشيخ: يا غسان إني أحبك، ثم ذكر الحديث، فأعطاه المحبة بسلسلة السند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجازه لكي يميز غيره. نقول شخصية.

¹ — نقول شخصية متعددة.

¹ — أسماء الكتب في نهاية كتابه (كتاب الله في إعجازه يتجلى — ص 249).

مقارعة الظلمة، له بعض البحوث في حقل الدعوة الإسلامية، وهو أشبه أولاده بأبيه من حيث التقوى والورع والتواضع والفراسة¹.

— د/ حاتم الطبشي:

ولد في الأربعينات، له عدة كتب في البطولات الإسلامي، وكتاب صفحات منيرة في حياة الشيخ سعيد عبد الله، وكتاب في السيرة النبوية؛ شرح فيها قصيدة في السيرة لشاعر العرب محمود نجيب مراد، وتحقيق مخطوط في المحرمات في الرقآن الكريم، كانت له دروس في جامع حي البياض، وكان الشيخ يحبه محبة نادرة.

— الشيخ بشير شقفة:

ولد في أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي في حماة، وكان يحضر درس الشيخ محمد الحامد الصباحي في جامع الجديد، وله مؤلفات منها في الفقه المالكي، وأحكام العورة في الإسلام وغير ذلك.

ومن أخذ العلم عن الشيخ محمد الحامد وطريقته في العلم والتقوى كثيرون منهم: الشيخ محمد علي الخرد الذي توفي مهاجراً في المدينة المنورة -رحمه الله تعالى-، ومنهم الأستاذ نافع العلواني، والشيخ عبد الحميد الأحذب، والشيخ معز ريس -رحمه الله تعالى-، والشيخ عبد الحفيظ حداد، والأستاذ موفق عيسى، والأستاذ وليد منجد، والشيخ مصطفى حوى وهؤلاء العلماء تلامذة كثيرون تلقوا العلم الشرعي عنهم، والذي أسهم في رفع مستوى تلامذته العلمي والدعوي أن شجعهم على طلب العلم الشرعي والعمل الدعوي لله تعالى أيًا كان، فقد ... لتلاميذه علماء كثيرون معاصرون ولو في كلمات مختصرة؛ فقال عن الأستاذ سعيد الطنطاوي -بارك الله في عمره-: "الإمام النووي الصغير لعلمه وزهده"، وفي الشيخ خالد الشقفة -رحمه الله تعالى- قال: "أبت الشخصية العلمية إلا أن تظهر، لما برز به في الفقه الشافعي، أما الشيخ وهبة سليمان القاوجي الألباني -بارك الله بعمره-؛ خاطبه بحي الميدان بدمشق: أنت عندك أمانة علمية، فعلق الأستاذ عصام عطار -وكان موجوداً- على ذلك قائلاً: "أنت يا شيخ وهي عليك أن تضع هذه الكلمات من الشيخ الحامد في ميدالية وتعلقها على صدرك لقيمة هذه الشهادة.

¹ — نقول شخصية.

وقال لبعض تلامذته في الدرس الصباحي: "الشيخ محمد ناصر الدين الألباني أعلم علماء الشام بالحديث الشريف، مع أنه ينكر عليه بعض التدخلات العلمية في غير مجال الحديث الشريف"¹.

وللشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — تلاميذ كثيرون من أصحاب الفضل والعلم لكن اقتصرنا على أسماء المؤلفين علماً أن الشيخ كان يحض تلاميذه على الإخلاص في التأليف فيقول "الإخلاص في التأليف أصعب من التأليف"².

المبحث الثالث: مؤلفاته

لم يتناول — رحمه الله تعالى — في معظم آثاره العلمية بحثاً نظرية محضة؛ أفرد لها تأليفاً خاصاً، وإنما كانت جل تأليفه ردوداً وفتاوى شرعية، ويعود سبب ذلك لعدة أسباب:

1. اعتقاده أن علماء السلف من الأمة تناولوا جميع المواضيع أصولاً وفروعاً وسيرة وتاريخاً فلم يتركوا رحمهم الله تعالى لمن بعدهم شيئاً؛ إلا ما عاصرنا ولزم بيان حكمه.

2. كثرة أعماله رحمه الله تعالى فقد كان يقوم بأعمال علمية واجتماعية ينوء بها العديد من كبار العلماء، فقد كان يحضر الدرس الصباحي عند طلوع الشيخ في الجامع الجديد، ثم يذهب لثانوية ابن رشد بعيداً عن بيته ليدرس، ثم يرجع لبيته ليرتاح قليلاً، ثم يبدأ بالرد على رسائل خارجية تأتيه من كل أنحاء العالم تقريباً ولا تقل عن 15 رسالة يومياً، ثم يحضّر بساعتين أو ثلاث ساعات للدرس المسائي، ثم يدرس الدرس المسائي في جامع السلطان، ثم يرجع لبيته لكتابة ردوده، أو يقوم بزيارة مريض أو قادم من الحج والعمرة، ولا تنسى تبيان موقفه الشرعي لأهل الدعوة والأعمال الخيرية والتدريس العلمي في البلد، ثم مراجعته للقرآن الكريم الذي يحفظه، والأذكار الكثير التي يذكر الله بها، ثم ينام لنهض لقيام الليل، فيأتي الدرس الصباحي وآثار المعرفة بالله تعالى

¹ — نقول شخصية.

² — نقول شخصية.

ظاهرة في إطراقته وعينيه، وذكره الله تعالى محبوبه بين الآونة والأخرى من قلبه في صفاء رقرق أثناء تدريسه لكتر الدقائق للزيلي في الفقه الحنفي¹.

3. وهناك سبب آخر أهم من الأسباب السابقة وهو رغبته في تأليف الرجال، حيث كان يقول: " إن تأليف الرجال أهم من تأليف الكتب " ولذلك انشغل في تربية الرجال عن تأليف الكتب الكثيرة مع توافر الإمكانيات العلمية والقدرات الكتابية لديه².

وقد كتب الشيخ — رحمه الله تعالى — ما كتب بدافع الخشية ومسؤولية الدفاع عن الدين، وقد بين ذلك رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه (ردود على أباطيل)، فبعد أن ذكر الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تهدد العلماء الذين يقصرون في نشر العلم، قال: " هذه التهديدات عملت عملها في نفسي فدفعتني إلى البيان دفعا فرارا من لعنة الله إلى رحمته، وإنقاذاً لمهجتي من عذابه الأليم وعقابه العظيم"³.

بالإضافة إلى أنه رأى نفسه في المنام — كما يحدثنا تلامذته — أنه عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يزيل أشياء غير لائقة وجدها عند المقام الشريف، فقص رؤياه على أحد مشايخه فقال له إنك ستذب عن هذا الإسلام أشياء ليست منه"⁴.

ولذلك كانت أغلب كتبه ورسائله ردودا على أباطيل وفتاوى شرعية، التزم فيها إغفال أسماء من رد عليهم وذلك — كما يقول — لأمرين:

— أولهما: هو أن القصد من الكتابة كان لتمحيص الحق مجردا وتخليصه من

أدران الأخطاء إن شاء الله تعالى لا للتنكيل بالأشخاص والتشهير بهم، وإني لأربأ بالعلم الديني أن يتخذه صاحبه أداة طعن في المخطئين لمحض التشفي منهم لحزارة نفسية وحقد ذاتي.

¹ — مقال بعنوان (الخطوط الرئيسية للمنهج العلمي عند شيخنا محمد الحامد رحمه الله تعالى) في مجلة حضارة الإسلام لعبد الحميد طهماز، (ص 27).

² — نقول شخصية.

³ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (1 / 9).

⁴ — نقول شخصية.

— وثانيهما: هو أن رحمة الله - سبحانه وتعالى - قد تدركهم كلا أو بعضا فيتوبوا من الضلال، ويثوبوا إلى الصواب، وكم أدركت رحمته سبحانه وتعالى من ضالين فاهتدوا، ومن شاردين فأوقفهم على بابه الكريم، وإنه تبارك اسمه وتعالى جده أرحم الراحمين وخير الغافرين يهدي لنوره من يشاء" ¹.

وسنقتصر هنا على ذكر أهم كتبه ورسائله المطبوعة والمنشورة:

1. ردود على أباطيل:

وهو كتاب يتكون من مجلدين، عدد صفحاته 1026، وهو عبارة عن مجموعة رسائل ومقالات، وبيانات وتوضيحات لبعض المشكلات والمواقف، وأسئلة فقهية وأجوبتها، وردود على أباطيل بعضها طويل، وبعضها متوسط، في موضوعات مختلفة: عقائدية وفقهية وفكرية معاصرة، رد فيه على الكثير من الأباطيل التي تنشر عن الإسلام من الحاقدين والجهلة وغيرهم، في الصحف السيّارة والمجلات.

من ذلك مثلا أنه رد على ما نشرته جريدة الفداء ² عن العصر الجليدي، حيث اعتبرت ذلك له علاقة بالنظرية الخاصة لنشوء الحيوانات التي تعيش على الأرض وخاصة ظهور الإنسان.. فرد عليها الشيخ — رحمه الله تعالى — بقوله: " والذي أريد توجيه الأبصار إليه هو أنه لا علاقة للعصر الجليدي بظهور الإنسان من حيث إن ظهوره لم يكن نتيجة تفاعلات كونية كما يتوهم.. فنظرية النشوء والارتقاء لا مكان لها في قلوب المؤمنين، والإنسان هو الإنسان بهيكله العظمي وشكله المعهود وإن تفاوت أحاده طولاً وقصراً ونحافة وبدانة.. على أن التحقيق العلمي أبطل هذه النظرية وبددها تبديدا" ³.

ويتضمن الكتاب — أيضا — مسائل فقهية في العبادات كالطهارة والصلاة والصوم والحج، وأخرى في المعاملات كالبيوع والإيجار وهل العقد شريعة المتعاقدين؟ وحكم الانتفاع بالرهون وقضايا مالية معاصرة مثل المعاملات الربوية وحكم التعامل بالربا في دار الحرب والبنوك وحكم التبرع بالدم وبيعه وحكم التدريب على السلاح استعدادا للجهاد في سبيل الله ومرونة الإسلام

¹ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (1/9، 10).

² — جريدة الفداء — العدد 861 بتاريخ 5 محرم 1384 الموافق 17 آيار 1964 م.

³ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (2/79، 80).

وتغير والأحكام بتبدل الأزمان والقول الفصل في التدخين وحكم النظر في الفرجان والقول الوجيز في المتشابهات وغيرها من الأبحاث لقضايا إسلامية متنوعة ومعاصرة..

فكر في جمعه في أوائل الستينات الميلادية، ولكنه لم يتمكن، وقد طبع الجزء الأول منه في حياته وطبع الجزء الثاني بعد وفاته عام 1397 هـ / 1977 م، ثم الجزء الثالث عام 1428 هـ / 2007 م¹.

2. نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام:

وهورد على كتاب بعنوان (اشتراكية الإسلام) للدكتور مصطفى السباعي — رحمه الله تعالى — يتكون الكتاب من (183) صفحة من الحجم المتوسط، وقد ألف هذا الكتاب — كما ذكر في مقدمته — بعد أن كتب العلماء للدكتور السباعي ينبهونه إلى مواقع الخطأ قبل أن يعيد طبع الكتاب ثانية، لكنه لم يقتنع بوجهة نظرهم كما تحدث — أي د. السباعي — بهذا في آخر الكتاب للطبعة الثانية²، ثم قال الشيخ — رحمه الله تعالى — بعد أن ذكر الآيات والأحاديث التي تهدد العلماء الساكتين عن قول الحق والصدع به: "وإني تلقاء هذه التهديدات لا يسعني إلا التبيين الشرعي إنقاذاً لمهجتي من النار وإبعاداً لها عن سخط الله تبارك وتعالى، إني بإلحاح الترهيب الديني وتأثري به ذعراً ورعباً أقدمت على كتابة هذه التعليقات كشفاً للغطاء عن وجه الحق"³.

ويدور المحور الأساسي للكتاب حول إبطال نظرية تأميم الأرض بناء على أنها خراجية التي قال بها الدكتور مصطفى السباعي في كتابه اشتراكية الإسلام، ولكن العلماء بادروا إلى الرد على كتابه، وأقواهم في ذلك رد الشيخ محمد الحامد، وقد اعترف السباعي — رحمه الله تعالى — بقوة الرد وتراجع عن بعض أفكاره، مما جعله يفكر في تأليف كتاب آخر تحت عنوان (أضواء على اشتراكية الإسلام) لكن يد المنون عاجلته وحالت بينه وبين تأليفه⁴.

3. نكاح المتعة حرام في الإسلام:

¹ — نقول شخصية.

² — نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام لمحمد الحامد (ص 4).

³ — نفس المصدر (ص 5).

⁴ — نقول شخصية.

تقع الرسالة في تسع وستين صفحة، وهو بحث مفصل عن تحريم الإسلام لنكاح المتعة، ذكر فيه من الأدلة والنقول ما لم يترك فيه زيادة لمستزيد، وذلك " بعد أن مشت في الناس شائعة جديدة تدعو إلى نكاح المتعة.. وقام من يحاول إثارته — أي نكاح المتعة — وبعثه من جديد.. وقد جهلوا أنه في ذاته فاحشة كما تقضي بذلك الأدلة المتضاربة والمتظاهرة على نسخه بعد أن كان مباحا في صدر الإسلام للضرورة القصوى التي اقتضته وقتئذ" وقد أشار عليه بعض تلامذته أن يجعل عنوان الكتاب نكاح المتعة لبيع الكتاب كثيراً، فأبى وقال بعض الناس: لا يقرأ إلا العنوان فيظنني أنني أبحته، لا لا، ضعوا العنوان: نكاح المتعة حرام في الإسلام، ثم يقول: " وقد سئلت خطيا غير مرة من بعض الأساتذة ومن الطلاب المغتربين والمستوطنين عن الحكم عن هذا النوع من النكاح فأجبت بوجوب اجتنابه والابتعاد عنه لأنه حرام، ثم علمت أن الأمر جاوز حد التناجي به إلى درجة ترويجه والدعوة إليه بالكتابة والتأليف، فرأيت الواجب الديني يحتم علي وعلى زملائي من حملة العلم الشرعي الإفصاح عن هذا الأمر ببيان في إحقاق الحق وإزهاق الباطل اتباعا لما تقود إليه الأدلة الشرعية من كتاب وسنة وأثر"¹.

4. وله رسائل في موضوعات مختلفة جمعت في كتيب تحت عنوان (مجموعة رسائل الشيخ

محمد الحامد) وعناوينها كالآتي:

— رحمة الإسلام للنساء (حقوق وواجبات الزوج والزوجة) وهي أول رسالة ظهرت له، وهي عبارة على كتيب من القطع الصغير بين فيه فضل الإسلام على المرأة وما حباها الله تعالى به من الإكرام والرفعة، وذلك في خضم دعوة المستغربين لما أطلقوا عليه (تحرير المرأة).

— حكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية، وهو رد على ما نشر من قبل بعض الذين ينتسبون إلى حزب التحرير حيث أحلّ بعضهم مصافحة المرأة الأجنبية².

— حكم اللحية في الإسلام، كان لهذه الرسالة — كما يتحدث تلامذته، الفضل الكبير ولا يزال في تحويل أجيال تلتزم هذه السنة الشريفة، بعد أن عم حلق

¹ — نكاح المتعة في الإسلام حرام لمحمد الحامد (ص 138).

² — نقول شخصية عن عدد من تلامذته.

اللفية أيام وجود الكفار المستعمريين في بلادنا، فانشرت سنة اللحية في تلاميذه، ثم عم خير هذه الرسالة — بفضل الله تعالى — على كثير من البلدان، حيث طبعت في مصر عدة مرات وكان لها تأثير كبير¹.

— حكم الإسلام في الغناء، وهي رد على ما نشر في مجلة النواعير الحموية في إباحة الغناء الآثم، فبين في هذه الرسالة ما يحل منه وما يحرم وما يكره مع عرض الأدلة بشكل وجيز.

— القول في المسكرات، وهي رد على ما نشر في مجلة العربي الكويتية من افتتاح على الحنفية بأنهم أباحوا بعض أنواع المسكرات، فبين فيها أن الأئمة المجتهدين اتفقوا على تحريم كل مسكر.

— بحث التدارك المعتبر لبعض ما في كتاب القضاء والقدر، وهو رد على كتاب القضاء والقدر للعلامة الشيخ عبد الغني حمادة الإدلي.

— آدم لم يؤمر باطنا بالأكل من الشجرة، وهي رسالة نفيسة، وقول فصل فيما نشأ من جدل عند بعض الصوفية.

— بدعة زيادة التنويرات في المساجد ليالي رمضان.

— لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً لفوضى الدينية، ألف هذه الرسالة القيمة في أخريات أيام حياته، وكان قد طلبها منه فضيلة الشيخ أحمد البيانوني — رحمه الله تعالى — وضمنها كتابه: الاجتهاد والمجاهدون رداً على الذين يتحللون من مذاهب الأئمة على غير دراية، وقد طبعت هذه الرسالة مستقلة عن الكتاب بعد وفاة الشيخ — رحمه الله تعالى —.

هذا وقد جمعت معظم رسائله وطبعت في كتاب مستقل من القطع المتوسط تحت عنوان (مجموعة رسائل الشيخ محمد الحامد).

وطبع له أخيراً كتاب: كلمات وأحاديث الجمعة عام 1425 هـ / 2004م، رد في أول الكتاب على بعض المتصوفة، ومدح بعضهم، ثم ختم

¹ — نفس المصدر (ص 8).

الكتاب بالدعوة للجهاد ضد المستعمرين الفرنسيين، ثم بأدعية مأثورة وفوائد نبوية عن النبي -صلى الله تعالى عليه وصحبه وسلم وبارك.

والملاحظ أن جُلَّ ما كتبه كان ردا على انحرافات فكرية، وفتاوى مارقة، وقد تعمد في رده إغفال من رد عليهم كما ذكر ذلك في مقدمة كتابه (ردود على أباطيل).

المبحث الرابع: أهم ما كتب عنه استقالا

لم يحظ الشيخ محمد الحامد - عليه رحمة الله - على ما يتمتع به من مكانة علمية، بدراسات وبحوث وافية عن شخصيته ومنهجه في الفقه والدعوة والعقيدة، ودوره في مواجهة التيارات الإلحادية، وكل ما كتب حوله لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك فقد كانت دراسات قليلة جدا، لا تستوعب شخصية الشيخ، ومنهجه في الدعوة والجهاد والفقه، وربما يعود ذلك إلى الرقابة المضروبة فكر هذا العالم وتلامذته..

وأهم المؤلفات التي كتبت حوله هي:

— كتاب (العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى)، للشيخ عبد الحميد طهماز، أحد تلاميذ الشيخ - رحمه الله تعالى - صدر الكتاب في سلسلة (أعلام المسلمين) عن دار القلم بدمشق (العدد 11): تناول فيه شخصية الشيخ من جميع جوانبها منذ ولادته، وتلقيه العلم وسفره إلى مصر وعودته منها، ومنهجه في الفقه والفتوى بشكل مختصر، وأفاض في الحديث عن محامده الصوفية، كما تحدث عن محامده الخلقية وما تحلى به الشيخ من ورع وزهد وتواضع وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ثم ختم بحثه بمحامده الأدبية.

والبحت عبارة على ترجمة شخصية للشيخ، ويعتبر مرجعا مهما لكل من أراد أن يدرس هذه الشخصية.

— بحث عام عن شخصية الشيخ محمد الحامد، للشيخ محمد المجذوب، ضمنه كتابه (علماء ومفكرون عرفتهم)، والكتاب عبارة عن خواطر

حول بعض الشخصيات التي التقى بها المؤلف، وتعرف عليها، حيث كتب عن الشيخ نبذة موجزة عن حياته ونشأته وطلبه للعلم وجهاده ضد المستعمر الفرنسي وتصوفه ومذهبيته، كل ذلك بشكل مختصر، والبحث ليس أكثر من ترجمة موجزة عن حياة الشيخ — رحمه الله تعالى — وليس دراسة علمية متخصصة.

— مجلة حضارة الإسلام، أسسها الدكتور مصطفى السباعي، حيث صدر العدد الثالث من السنة العاشرة (جمادى الأولى 1389 هـ / تموز وآب 1969 م) خاص بالشيخ محمد الحامد، تضمن العدد مجموعة من المقالات حول جوانب مختلفة من شخصية الشيخ — رحمه الله تعالى — وذلك على النحو التالي:

— أخي كما عرفته للأستاذ / عبد الغني الحامد.

— الخطوط الرئيسية للمنهج العلمي عند شيخنا محمد الحامد رحمه الله للأستاذ / عبد الحميد طهماز.

— العالم العامل للدكتور / حسن هويدي — رحمه الله —.

— حماه.. عالمها الراحل للدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي.

— محمد الحامد.. العالم الفذ للأستاذ / محمد إبراهيم بجيت.

— العلماء العاملون وأثرهم في الأمة للأستاذ / محمد حسن بريغش.

— الجانب الأدبي في شخصية العلامة الراحل محمد الحامد للأستاذ / عبد القادر حداد.

كما صدر في نفس العدد مجموعة من القصائد التراثية:

— قصيدة بعنوان: أشجان.. في رحلة الوداع الأخير للأستاذ / عبد القادر حداد.

— وقصيدة بعنوان أرزاؤنا أردتك يا علم الهدى للأستاذ / مصطفى الحدري، جاء فيها

يا ماجدا ناحت حماة لفقده وصدى بكاهارن في الأنحاء

قد كنت قرآنا يسير وعزمة جبارة الخطوات ذات مضاء

كنت الولي على الحقيقة بيننا طهرا وإن لم تمش فوق الماء¹

¹ — حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة العاشرة 1969 م (ص 66).

— وقصيدة بعنوان سيد العصر للدكتور مأمون شقفة، جاء فيها:

أجمع الناس أنه سيد العصـ
ر وإن الإسلام في كلماته
يعبد الله لا يرى غير وجه اللـ
ه في قلبه وفي عبارته¹

² — انظر حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة العاشرة 1969 م (ص 67).

الفصل الرابع: مرضه ووفاته وثناء العلماء عليه

ويتكون من مبحثين:

المبحث الأول: مرضه ووفاته

المبحث الثاني: شهادات العلماء وثناءهم عليه

المبحث الأول: مرضه ووفاته¹

بعد حياة حافلة بالعلم والدعوة، والأحداث الجسام، ومعاناة للمرض، انتقلت روح ذلك العالم العامل الشيخ محمد الحامد إلى بارئها، لتبقى ذكراه العطرة عمراً ثانياً كما قال الشاعر:

ارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

كان يوم وفاته يوماً مشهوداً، تناقلت فيه الإذاعات العربية نبأ وفاته، وعدادت مناقبه ومشى فيه وراء نعشه آلاف الناس من أهالي حماة ومن وفود المدن السورية ولقيف من السلك الدبلوماسي لبعض الدول العربية، يشيعونه باللوعة والدموع إلى مثواه². كما أغلقت مدينة حماة أشواقها مختارة وخرج أهلها عن بكرة أبيهم لتشيع جنازته³ ويقدر من حضر جنازته من المدن السورية ما يقارب مائة ألف شخص⁴.

وقد تأثر بوفاته عامة المسلمين لفضله وعلمه ومواقفه الجريئة في الدفاع عن الإسلام، بل وشاركت السماء بدمعها في ذلك المأتم الكبير مع أنه كان مطراً في غير أوانه وفي يوم قائل⁵.

توفي الشيخ — رحمه الله تعالى — ليلة الثلاثاء التاسع عشر من صفر بعد صلاة العشاء بثلاث ساعة تقريباً في حماة عام 1389 هـ الموافق سنة 1969 م وقد بلغ من العمر تسعاً وخمسين سنة ميلادية وإحدى وستون سنة هجرية⁶.

المطلب الأول: ظهور المرض وتطوره

¹ — مضمون هذا المبحث مستخلص مما كتبه الطبيب محمد سليمان نجار عن مرض الشيخ — رحمه الله تعالى — ووفاته، العلامة الجاهد، طهماز (ص 50 وما بعدها) أما النقول الشخصية فسأشير إليها في مكانها.

² — مقال بعنوان (أخي كما عرفته) للأستاذ عبد الغني الحامد، مجلة حضارة الإسلام، (ص 10).

³ — نقول شخصية عن عدد من تلامذته.

⁴ — نقول شخصية.

⁵ — نقول شخصية.

⁶ — نقول شخصية.

أصيب الشيخ — رحمه الله تعالى — بمرض عضال يسمى بداء (تشمع الكبد)، وهو مرض مزمن عضال لا يقبل التراجع فيما أصاب من خلايا الكبد في العام الأغلب، وغاية المعالجة فيه بصورة عامة تعويق امتداده إلى ما تبقى من خلايا أو إيقافه في علم الأمراض أيام وفاته.

من أهم أسباب ظهور المرض، تلك الأحداث الخطيرة التي واجهته في حياته، سواء منها ما حل ببلدته حماة وسورية خاصة، أو ما حل بالعالم الإسلامي عامة.

كما أنه انشغل عن مرضه بجهاده العلمي الطويل الذي ملك عليه أوقاته، ولم يفسح له المجال لتتبع أسباب علته تتبعاً دقيقاً، بالسفر إلى أطباء متخصصين خارج مدينة حماة في دمشق وغيرها، إلا بعد أن ألحت عليه العلة بشكلها الواضح.

وبالرغم من شدة المرض ووطأته إلا أنه ظل مستمراً في نشره للعلم، خطابة، وتدريساً، وكتابة، وذلك حرصاً منه على نشر العلم وعدم كتمانته في زمان قل فيه العلماء العاملون، وعندما يذكر بضعفه واعتلال صحته كان يجيب (إني لا طاقة لي بلجام من نار)¹ ومع مرور الأيام تطور المرض فداهمه العرض الأخطر لتشمع الكبد والتزف الداخلي، الذي تكرر ثلاث مرات في حماة كاد يودي بحياته لولا أن تداركته عناية الله تعالى، وقد تقدّم تلاميذه ومحبوه لإعطائه الدم، وكم كان أحدهم يتألم لعدم موافقة الزمرة الدموية بينه وبين الشيخ، ولتزره الشديد تبرعوا له بـ(24 لتر) من الدم، وكان الشيخ يحرص أن يكون معطي الدم لا يدخن ولا يشرب الخمر تقياً..

المطلب الثاني: السفر للعلاج

لما اشتد به المرض، وكثرت معاناته له قرر الأطباء سفره إلى خارج سورية، إلى إحدى الدول الأوروبية ولكنه رفض ذلك، فأخذ إلى بيروت لدراسة إمكانية عملية جراحية من شأنها

¹ — في إشارة إلى حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — (من كتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر الدين، ألجمه الله بلجام من نار) أخرجه ابن ماجه في السنن، باب من سئل عن علم فكتمه (1 / 96)، حديث رقم (265).

قطع الترف وتخفيف (الحبن)• وتركه بعدها يعيش ضمن إمكانية كبده فعمره في عمر كبده، كما تقول لغة الطب، والأمر كله بيد الله تعالى.

وفي بيروت أدخل في مستشفى (المقاصد الإسلامية) حيث كانت ترد عليه الوفود الكثيرة من أهل العلم وهو على سرير المرض، فتحولت غرفته إلى ندوة علمية، يبلغ فيها أحكام الله تعالى ويسدي النصائح الدينية والتربوية للشباب الذين تهافتوا عليه.

وخلال إقامته في المستشفى فاجأه الترف الرابع قبل إجراء العملية الجراحية، ولكنه مر بسلام بعونه تعالى وتداركه أطباء المستشفى بالسرعة المطلوبة، ومن ثم تقرر إجراء العملية الجراحية رغم خطورتها، لوقف الترف وتخفيف المرض، وليس للقضاء على المرض لأنه لا يقبل التراجع، وقبل ذلك تدفق الشباب المسلم في بيروت يتبرع بالدم للشيخ الحبيب ليعوضوه عما نرف.

وفي صباح يوم الثلاثاء 1 نيسان (أبريل) 1969 م أجريت له عملية جراحية استغرقت ست ساعات ونصف كانت على درجة عظيمة من الصعوبة، وتمت العملية وإذ بكبده قد تليف كله كما ظهر للطبيب وظلّ ينهش جسده إلى أن أصيب بوعكة شديدة، لم يستطع بعدها تناول الطعام والشراب¹.

المطلب الرابع: وداعه الدنيا

وعلى إثر تلك الوعكة الصحية الشديدة التي أصابته سافر إلى حماة بعد أن يئس الطبيب من العلاج، وفي يوم الاثنين الثامن عشر من صفر عام تسعة وثمانين وثلاثمائة وألف الموافق الخامس من أيار لعام تسعة وستين وتسعمائة وألف ميلادية، في الساعة الثامنة وثمان دقائق زوالي تقريبا، أي بعد صلاة العشاء بقليل، بعد أن تليت عليه سورة يس ووصل القارئ إلى الآية الكريمة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)² من سورة الرعد، ارتعش الارتعاشة الأخيرة وفاضت روحه إلى بارئها.

• وهو أعلى درجات مرض تشمع الكبد.

¹ — نقول شخصية.

² — الرعد: 29

ونعته نشرات الأنباء الإذاعية إلى العالم الإسلامي عدة مرات، وضجت مآذن حماة وحمص في اليوم الثاني بالتهليل والتكبير، وإذاعة النبأ على الناس، وقد حضرت الجموع الغفيرة من أهل العلم وغيرهم من أقاصي البلاد، وبعد صلاة الظهر أذيع على جميع الناس من مآذن حماة المقالة التالية: (أيها الأخوة المؤمنون، من كان له حق على فضيلة الشيخ محمد الحامد -رحمه الله تعالى- فليتقدم به إلى أهله ليأخذ حقه قبل أن يدفن وذلك بناء على وصيته)، ثم شيع جثمانه الطاهر في موكب شعبي في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء، وأضحت حماة يتيمة مات والدها، وأغلقت حوانيتها ومتاجرها وهجرت بيوتها، وخرجت عن بكرة أبيها، وأقبلت جموع المسلمين من المدن السورية الأخرى لحضور جنازة لم تشهدها حماة في تاريخها، الأمر الذي يذكرنا بقول القائل (إن الجناز تظهر عظمة الرجال)، وصلّي عليه صلاة الجنازة في جامع السلطان، وألقيت إذ ذاك عدة كلمات في رثائه منها كلمة بليغة للشيخ العلامة محمد عوض الدمشقي¹ -رحمه الله تعالى-.

المبحث الثاني: شهادات العلماء وثناؤهم عليه

لقد حظي الشيخ محمد الحامد -رحمه الله تعالى- بالمكانة العالية في حياته، واعترف له بذلك كثير من العلماء، ونطق الناس بالثناء عليه بعد وفاته معترفين بفضله وعلمه ومواقفه، ولذلك ثبت هنا أهم الأقوال التي تتحدث عن الشيخ، وتحوطه بالثناء، وتبين بعض مآثره، وذلك اعترافاً بالفضل لأهله وحثاً للمسلمين على التخلق بصفاته، والتأسي بمواقفه:

1. يقول الدكتور محمد أديب صالح، المدرس بجامعة دمشق في كلية

الشريعة ورئيس تحرير مجلة (حضارة الإسلام): " والشيخ الحامد -أجزل الله مثوبته - واحد من أولئك العلماء العاملين الذين وضعهم التاريخ على قمة المرتقى في تاريخ الأمة الحديث، فقد أكرمه الله بأن كان موضع الثقة في النقل، وموضع الحجة في العمل، وموضع القدوة للعلماء زهداً في الدنيا وصدعاً بكلمة الحق،

¹ - هو العلامة الدكتور محمد عوض -رحمه الله تعالى- الذي اشتهر عنه النشاط العلمي في العديد من مساجد دمشق مع شيخه عبد الكريم الرفاعي -رحمه الله تعالى- وبعد وفاته توفي الدكتور محمد عوض مهاجراً في المدينة المنورة عام 1430هـ، 2006م ويعتبر من أهم المرين في دمشق.

والتحلي بما من شأنه أن يحفظ على العالم — والعلماء ورثة الأنبياء — كرامته التي هي من كرامة الأمة¹.

2. ويقول عنه الدكتور حسن هويدي: " لقد كان — رحمه الله تعالى —

علما من أعلام الفقه في العصر الحاضر، ينام ويستيقظ بين الكتب، ويمسي ويصبح مع الدروس، ويعيش غالب وقته مع الناس، وكان مضرب المثل في الورع، حتى راح بعض الناس لا يقرونه على شدة أخذها بنفسه، وحيطة تعلقت بها همته، ولقد أسبغ عليه ذلك الورع رداء المهابة، وجلباب القوة، فكانت له صولة ترهب ومكانة تعجب، أذعن لها الأصحاب والخصوم على قلة الخصوم، وكل ذلك إلى جانب وداعة عذبة، وتواضع جم، وانكسار بين يدي الله تعالى عميق².

3. ويقول عنه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (تأمل في حياته

العلمية، فتجده يذهب مذهبا يوليه كل اهتمامه وفكره، حتى ليخيل إليك أن الرجل قد تجاوز به الأمر إلى حد الإفراط والقسوة، وأنه إنما يعيش عقلانية جافة مجردة. ولكنك تنظر بعد ذلك، فتراه — مع هذا كله — مستغرقا في حالة من العبادة والتبتل وتقوى النفس، متحليا بأسمى حقائق التصوف الإسلامي الصحيح، يتمثل في سلوكه الدائم قول الله — عز وجل — (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)³ حتى ليكاد يخيل إليك أن الشيخ إنما ينظر إلى الإسلام من خلال زاوية أورد ورياضات صوفية مجردة. ولكنك تتأمل، فتجده إلى جانب ذلك نائرا على كل بدعة، منكر لكل تزويد، محذرا من كل انحراف، مهتاجا في وجه كل منكر ولوجاء مغلفا بما يسمى بالحقائق والشطحات. ونظن أخيرا أن هذا هو كل ما عند الشيخ من مسلك وبحث وفهم. ولكنك تنظر وإذا به يصب هذه القيم العلمية والسلوكية كلها في طريق من الدعوة الإسلامية المركزة، يؤمن بتنظيم الفكر والمنهج والسلوك

¹ — مقال بعنوان (حين تعرف الأمة رجالها)، مجلة حضارة الإسلام (العدد الثالث، تموز وآب، 1969) (ص 6، 7).

¹ — نفس المصدر (ص 45).

² — الأنعام: 120.

ولا يرى عند الكلمات الجوفاء وصيغ الوعظ والإرشاد المجرد أي جدوى لتحقيق أي حق¹.

4. يقول عنه الأستاذ محمد إبراهيم بخيت: (إنه بحق درة يتيمة من درر تاريخ الفكر الإسلامي البحت الذي لم ير التاريخ الإنساني له نظيراً من حيث الصلاح المتميز به والإصلاح الرامي إليه للنوع البشري. إنه مجاهد بالفكرة السديدة والقولة الحكيمة والكلمة الرشيدة التي تبرهن على الحقيقة وتقضي على كل شبهة)².

5. ويقول عنه تلميذه الشيخ عبد الحميد طهماز: (ولقد كان سيدي الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — علم الأعلام الإسلامية في هذا العصر: فكراً، وعلماً، وسلوكاً. لا أقول هذا بدافع المحبة له رحمه الله، وإنما أقوله بقناعة الباحث المدقق المحقق)³.

6. ويقول عنه تلميذه الشيخ سعيد حوى — رحمه الله تعالى: " كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — آية في التحقيق العلمي، وكان بحراً في العقائد والفقهاء وفي التصوف وفي الأصول وفي التفسير والحديث والتاريخ، وكان عارفاً بعصره عارفاً بأنواع الضلال فيه. هذا مع أدب لا يبارى ولا يجارى، وكان متشدداً في الفتوى، فكان لا يفتي إلا إذا درس ودارس واطمأن، وكان ناصحاً مشفقاً يحس كل المسلمين بشفقته ورحمته وخلوص نصيحته، لا يقابل السيئة بمثلها"⁴.

7. ويقول عنه الشيخ محمد المجذوب: " فدروسه لم تنقطع قط سواء في المدرسة أو المسجد أو في البيت، لا يكاد يفرغ من جانب حتى ينتقل إلى الآخر، لا يشغله عن ذلك شاغل إلا الأحوال الملزمة كالنوم والطعام والمرض، فإذا ما وجد

³ — مجلة حضارة الإسلام (ص 61، 62).

¹ — نفس المصدر (ص 70).

² — العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 4).

³ — من موقع: www.islamonline.net

فسحة بين هذه الأعمال لجأ إلى القلم ينشئ ردًا، أو يجيب على استفتاء، أو يدبج رسالة، أو يراجع كتابا.. هذا إلى امتيازه على الكثيرين من المشايخ والعاملين في خدمة الدعوة بأنه لم يقصر عطاءه على الناس ويهمل آله، بل جمع بين الحسينيين فكان له من تلاميذه الكثر أحسن الغراس التي شرعت تؤتي أكلها تحت عينيه، وكان له من أولاده السبعة خير وارث لعلمه واجتهاده وفضائله، حتى امرأته لم يدخر وسعا في تزويدها بكل ما ينفع النسوة المؤمنات العلم النافع، فمجالسها حتى اليوم لا يخلو من توجيه إلى خير وإجابة عن سؤال¹ ..

¹ — علماء ومفكرون عرفتهم لمحمد المجدوب (ص 239).

الباب الثاني: منهجه في الفقه والفتوى

ويتكون من فصلين:

الفصل الأول: معالم منهج الشيخ محمد الحامد

في الفقه والفتوى

الفصل الثاني: فتواه في لزوم اتباع مذاهب

الأئمة

الفصل الأول: معالم منهج الشيخ محمد الحامد في الفقه والفتوى

ويتكون من مبحثين:

المبحث الأول: تعريف المنهج

المبحث الثاني: معالم منهجه

المبحث الأول: تعريف (المنهج)

قبل الدخول في تفاصيل الدلالات اللغوية والاصطلاحية لكلمة (المنهج)، وتقصي معانيها في المعاجم، لا بد من الإشارة إلى قاعدة مهمة في تفسير اللفظ وشرحه، وبيان ذلك أن (اللفظ) من حيث هو يحمل في طياته عدة معانٍ مختلفة أحيانا، كل واحدة منها بحسب الوضع اللغوي أو الاصطلاحي أو العرفي، يفيد معنى معيناً، وللمعرفة المعنى المراد من اللفظ، والغرض المستفاد منه لا بد من مراعاة السياق الذي استعمل فيه اللفظ.

" فإذا كان المراد بيان معنى اللفظ (لغة)، فيؤخذ المفهوم والمعنى حسب قواعد اللغة وأصولها. وإن كان المراد بيان (حقيقته الشرعية) فيؤخذ معناه حسب المراد الشرعي الذي لا يتعارض مع المعنى اللغوي، وإن كان المراد بيان (مفهومه اصطلاحاً) فيبين معناه حسب مراد المتكلم به صاحب الاصطلاح"¹.

المطلب الأول: معنى (المنهج) في اللغة

(المنهج) على وزن (مَفْعَل) اسم مصدر، وأصل مادته (نَهَجَ) على وزن (فَعَلَ)، فعل ثلاثي صحيح غير معتل، وهو الطريق البين الواضح² ويطلق أيضاً على الطريق المستقيم، وفي الصحاح قال الجوهري: (النهج: الطريق الواضح، وكذلك المنهاج والمنهج، وأنهج الطريق أي استبان وصار نهجا واضحا بينا. ونهجت الطريق إذا أبتته وأوضحته)³. " والمنهج والنهج والمنهاج

¹ — المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخريجات الأصحاب، بكر أبو زيد (1 / 31).

¹ — في الحديث عن العباس قال: (لم يمت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى ترككم على طريق ناهجة) أي واضحة. أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (5 / 434)، وفي رواية أخرى (والله ما مات رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى ترك السبيل نهجا واضحا)، أخرجه الدارمي في السنن، باب في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، (1 / 53)، حديث رقم (83)

² — مختار الصحاح للرازي (ص 283).

بمعنى واحد، وفي الترتيل قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)¹ "2"، قال ابن عباس³ — رضي الله عنه —: (شرعة ومنهاجا سبيلا وسنة)⁴، وقال الحافظ ابن حجر⁵ — رحمه الله تعالى —: (السبيل: أي الطريق الواضح)⁶.

المطلب الثاني: معنى (المنهج) في الاصطلاح

أما الدلالة الاصطلاحية للفظ (المنهج) فهي: (الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة)⁷.

وتختلف هذه الطريقة المحددة والمتبعة من أجل الوصول إلى الحقيقة المبحوث عنها باختلاف المجال المبحوث فيه، ومعنى ذلك أن هناك مناهج متعددة كل يتضمن من القواعد والمعالم ما يتناسب والفن الذي يبحث فيه، فهناك منهج في أصول الفقه، وآخر في العقيدة، ومنهج مصطلح الحديث وآخر للعلوم الطبيعية.. إلخ.

المطلب الثالث: المقصود بالمنهج عند الشيخ محمد الحامد

لم يكن الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — بدعا من غيره من العلماء والفقهاء، ذلك أنه من المعلوم — بداهة — أن كل عالم أوفقيه تفرد بمجموعة من الخصائص والمميزات والصفات في بحوثه، وفتاويه، وردوده، وكان له منهج خاص به لا يشاركه فيه أحد، وكذلك الشيخ محمد

³ — المائدة: 48.

⁴ — لسان العرب، ابن منظور، مادة (نهج) (2 / 383)، الفيروزآبادي مادة (نهج) (ص 266)

⁵ — حبر الأمة وفقه العصر وإمام التفسير أبو العباس عبد الله بن عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم —، ولد بشعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، صحب النبي — صلى الله عليه وسلم — نحواً من ثلاثين شهراً، توفي سنة 68 هـ. سير أعلام النبلاء (3 / 359).

⁶ — والخبر في صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي — صلى الله عليه وسلم — (بني الإسلام على خمس) (1 / 11).

⁷ — شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكتاني، العسقلاني، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، الشافعي، ولد سنة 773 هـ، محدث ومؤرخ وأديب وشاعر، ولي القضاء في مصر ثم اعتزل صاحب فتح الباري والإصابة في تمييز الصحابة، توفي سنة 852، شذرات الذهب (7 / 270، 273) والأعلام للزركلي (1 / 178).

⁸ — فتح الباري لابن حجر (1 / 64).

⁷ — مناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي (ص 4، 5).

الحامد — رحمه الله — فقد جاهد جهادا كبيرا من أجل إرساء مجموعة من الأخلاقيات والمعالم الهامة التي ينبغي على طالب العلم أن يتحلى بها.

وليس من منهج هذا البحث تناول منهج الاستنباط لدى المذهب الحنفي، بالبحث والدراسة والاستقصاء، على اعتبار أن الشخصية المدروسة تنتسب لهذا المذهب، وإنما الهدف من ذلك هو تتبع، واستقصاء المعالم المنهجية التي تميز بها الشيخ، بل وأجهد نفسه في إرسائها.

وقد نوهت بهذه المسألة لرفع التباس قد يتسرب إلى ذهن القارئ وهو أن موضوع الدراسة في جملته يعالج منهج الأحناف في استنباط الأحكام الشرعية، لأن الشيخ ينتسب إلى هذه المدرسة الفقهية.

وخلاصة القول فإن المقصود بالمنهج الفقهي عند الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — هو جملة القواعد والضوابط والمعالم التي اتخذها سبيلا في تأليفه وردوده الفقهية وفتاويه الشرعية. وسنشرع الآن في ذكر معالمه — رحمه الله تعالى — بالتفصيل، مستدلين على ذلك بأقواله وآرائه المبثوثة في مصنفاته.

المبحث الثاني: معالم منهجه - رحمه الله تعالى

ويتكون من عشرة مطالب:

المطلب الأول: المذهبية والاعتداد بالنصوص.

المطلب الثاني: السعة والشمول.

المطلب الثالث: المزج بين الحكم الفقهي والتوجيه والإرشاد.

المطلب الرابع: عدم التشهير والتكيل بالمخالف.

المطلب الخامس: اعتبار المصلحة وتعليل الأحكام.

المطلب السادس: سد الذرائع.

المطلب السابع: الأخذ بالعزيمة.

المطلب الثامن: شوراها واستئناسه برأي معاصريه من العلماء والفقهاء.

المطلب التاسع: الأمانة العلمية والدقة في النقل.

المطلب العاشر: الوقوف على ظواهر النصوص مع الدقة في الفهم والاستنباط

المطلب الأول: المذهبية والاعتداد بالنصوص

المذهبية (هي أن يقلد العامي أو من لم يبلغ رتبة الاجتهاد مذهب إمام مجتهد سواء التزم مذهباً واحداً بعينه أو عاش يتحول من واحد إلى آخر)¹. وقد حفلت كتب أصول الفقه بمباحث علمية تدور حول (حكم الالتزام بمذهب معين، وهل للمقلد أن يتخير من أقوال المجتهدين؟)، كما اختلفت آراء العلماء حول: (الحكم بوجوب التزام المقلد بمذهب معين في كل واقعة)².

وقد كان الشيخ — رحمه الله تعالى — حنفي المذهب، ملتزماً به، ولكن بالاتباع والاعتناء والموافقة، وليس بالتعصب الذميمة والتقليد، والنقل والجمود ودون إعمال النظر والتأمل في النصوص، بل كان يلتزم الدليل الصحيح، والاستنباط الأقوى، دون أن يأسره التقليد، أو يجمد عقله في البحث أو يمنع الاتباع من الدقة، والمخالفة للمذهب المبنية على الدليل الصحيح.

ويظهر ذلك في كتبه الفقهية وبحوثه وردوده وفتاويه، فلم تمنعه مذهبته من اتباع النصوص والاعتداد بها، والرجوع إليها عند التنازع³ وذلك لما كان يتمتع به من نظر ثاقب، وعقل رصين، وإدراك نفاذ، وفطنة قوية، وفكر مفتوح.

وإن المتتبع لكتبه وفتاويه ليدرك — بلا شك — أن الرجل (بحر علم لا تزحج الدلاء)⁴، وصاحب حجة قوية واستدلال منطقي عجيب.

لقد كانت شخصية الشيخ — رحمه الله تعالى — الفذة، وفكره الحر، يمنعانه من أن يلتزم بالتقليد الأعمى لأحكام المذهب الحنفي، وإن كان قد خدم هذا المذهب بكتبه ورسائله وفتاويه.

كان يكن احتراماً كبيراً للمذاهب الأخرى، ولكل بحث علمي، فلم يدفعه انتسابه للمذهب الحنفي إلى انتقاص المذاهب الأخرى، والقدح فيها، قال — رحمه الله تعالى — في بحثه

¹ — اللامذهبية محمد سعيد رمضان البوطي، (ص 14).

² — إرشاد الفحول لمحمد علي الشوكاني (2 / 252)، أصول الفقه لوهبة الزحيلي (2 / 1117)، الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي (4 / 500).

³ — قال تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) النساء: 59.

⁴ — العلامة المجاهد لعبد الحميد طهماز (21).

الشهير (لزوم اتباع مذاهب الأئمة): (ونحن بأي حال نحترم البحث العلمي الصحيح، ونعظم القول فيه كائنا من كان ومن أي مصدر كان)¹.

كذلك دروسه — رحمه الله تعالى — وفتاويه لم تقتصر على سرد الأحكام مجردة عن أدلتها، وإنما كان يدعم قوله بالأدلة من الكتاب والسنة، كما كان يؤكد في كل مناسبة بوجوب الخضوع التام والانقياد المطلق للنص، يقول في إحدى فتاويه: (وإن شأن المؤمن الخضوع والانقياد والإذعان لتشريعات الله وتعليماته، والاعتداد بأمره، ونهيه موفيا عبوديته لربه حقها، فالحلال ما أحل له، والحرام ما حرم عليه، والدين ما شرع)². ومتى صح عنده النقل فليس له إلا التسليم، والانقياد، استجابة لأمر الله — سبحانه وتعالى — قال تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)³، ولذلك كانت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية مستنده في كل بحوثه وفتاويه.

كما كان يقف بالمرصاد لكل من يحاول أن يخترق حدود الشريعة باجتهاد منحرف أو تأويل ضال، كتب في رده على من أجاز بعض صور المعاملات الربوية يقول: (لا رد على هذا إلا الرد إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام عملاً بقوله تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)⁴ هناك عند الرجوع إلى هذين الأصلين تبيض وجوه الواقفين عند الحدود، الذابين عن دين الله عز وجل وتسود وجوه المجترئين على الله تعالى الذين يحملون الناس على الخوض في الحرام والاقترحام في غمرات الناس، إن الإسلام ليبراً من هذا الرأي الخاطئ الذي لا يجد سندا من صواب. ألا فليعلم الناس قاطبة أن الشرع حاكم وليس بمحكوم. وإنه الذي يحكم على الشخصيات وليس للشخصيات أن تحكم عليه)⁵ ويقول أيضا في موضع آخر (ليس لغير الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم التحليل والتحریم إذ مرجعهم إلى الله تعالى

¹ — لزوم اتباع مذهب الأئمة لمحمد الحامد (ص 30).

² — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 343).

³ — النساء: 65.

⁴ — النساء: 59.

⁵ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 531).

وحده ورسوله -صلى الله تعالى عليه وسلم- نائب عنه سبحانه في البيان والتبليغ¹. إن هذه السلطة، سلطة التحليل والتحرير لم يعطها الإسلام أحدا فليس فيه عبودية لغير الحق جل وعلا².

وقد نفى عن الإمام أبي حنيفة³ تهمة لطالما لاكتها ألسنة المعارضين له ولمذهبه، زاعمين أنه لم يصح عند الإمام أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - إلا بضعة عشر حديثا، عليها وعلى آيات الأحكام القرآنية شيد مذهبه الواسع الذي حوى ألوفا من الأحكام الشرعية.

وقد رد على هذه الفرية قائلا: (إنه فرية بلا مرية، ومحض اختلاق لا يمت إلى الحقيقة بصلة، وهل في الإمكان التسليم بواضح الكذب، ونحن نرى فقه الإمام مسندا إلى كتاب الله سبحانه وإلى سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وإلى القياس الصحيح فيما يتجدد من الحوادث على ما ثبت حكمه منها بالنصوص)⁴.

إن التزام الشيخ - رحمه الله تعالى - المذهب الحنفي، والذب عن إمامه لم يمنعه من الخروج عن المذهب الحنفي، وتبني اجتهادات مذاهب أخرى، وهذا يدل على عدم تعصبه، (وقد أخذ - رحمه الله تعالى - كما يروي عنه تلميذه عبد الحميد طهماز - في آخر حياته بمذهب الإمام مالك - رحمه الله - في أحكام الطهارة، لأنها أيسر، وخاصة أثناء المرض، واستفتى في هذا الموضوع أحد علماء المذهب المالكي في الأزهر الشريف)⁵.

ومن فتاويه التي رجح فيها غير المذهب الحنفي، فتواه فيمن حج عن غيره ولم يحج حجة الإسلام عن نفسه، فلوحج إنسان عن غيره قبل أن يحج عن نفسه، فمذهب الحنفية الجواز، أما الشافعية فلا يجوزونه، يقول - رحمه الله تعالى - مرجحا المذهب الشافعي: (لكن الأولى أن لا يحج عن غيره إلا من حج عن نفسه خروجا من خلاف الشافعي - رحمه الله تعالى - ومراعاة

¹ - قال الله تعالى مخاطباً رسوله -صلى الله عليه وسلم-: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). [النحل: 44].

² - نفس المصدر (1 / 532).

³ - نفس المصدر (1 / 15).

⁴ - نفس المصدر (1 / 15).

⁵ - العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (ص 104).

الخلاف فإنها مستحبة، وأيضا فإن من حج عن نفسه يكون مكتسبا ملكة التمرن على الحج فخطؤه قليل، أما الحاج لأول مرة فاحتمال وقوعه في الخطأ قريب¹.

ولا يتعلق أمر مخالفته للمذهب الحنفي بقضايا جزئية منفرة ومحدودة، وإنما اتخذ ذلك منهجا في كل رسائله وفتاويه، وجعل في كل ذلك النص مستنده، فكان دائما يبرز الأدلة من الكتاب والسنة، ويستنبط الأحكام الشرعية منها بأسلوب سهل مبسط خال من التعقيد، ويرد كل أمر إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

يؤكد لنا ذلك، جوابه على من سأله على محاولة إخراج بعض المعاملات الحديثة الممنوعة في لباس شرعي فقال: " المعاملات الحديثة تعرض على القواعد الشرعية فما وافقها قبل وما خالفها رد، ولا نلتمس المخارج التي تجعل العمل مباحا في نظر السذج، محرما بالنظر إلى الواقع ونفس الأمر لمخافته روح التشريع وسره، فإن الله عز شأنه لم يجرم علينا إلا ما فيه الضرر"².

وقد أفتى فيمن رد حديث سحر³ النبي — صلى الله عليه وسلم — بالبدعة والفسوق كما هو مقرر في علم أصول الفقه⁴.

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 59).

² — نفس المصدر (1 / 535).

³ — رواه البخاري، كتاب الطب، حديث رقم (5321) ومسلم، كتاب السلام حديث رقم (4059).

⁴ — انظر ردود على أباطيل نفس المصدر (1 / 418).

المطلب الثاني: السعة والشمول

يتميز الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — بخصيصة بارزة، هي السعة والشمول، ذلك أنه إذا بحث مسألة أو نازلة من النوازل استوعب الكلام فيها من جميع جوانبها، فيسرد الأدلة الشرعية مع بيان وجوه الاستدلال منها، ثم يقوم بمناقشتها، وتعميق النظر فيها، كما يستدل بأقوال العلماء والفقهاء، ويكثر من ذلك، فلا يخلو بحث عميق له من أقوال الفقهاء المعترين، والاهتداء بنور علمهم، وضياء بصيرتهم، وكل ذلك من أجل تحري الحق والصواب بلا ملل ولا ضجر، وإلقاء الطمأنينة والسكينة على سائله.

وقد نهج الشيخ في ذلك نهجا موسوعيا، وسلك سبيلا شاقا ومرهقا، ولكن حظ الصواب منه وفير، وليس هناك من أحد يقدر على مجارة هذا الأسلوب الموسوعي، والتوسع في الاستدلال، وسرد الأقوال والآراء إلا من كان على شاكلته — رحمه الله تعالى —.

ولم يكن الشيخ — رحمه الله تعالى — بدعا من العلماء الأفاضل الذين سبقوه في هذا المضمار، وكانوا قدوة لغيرهم في استقصاء الحق، والتوسع فيه من أمثال ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، والسيوطي، وغيرهم من العلماء المعروفين.. ولعل هذا من الجود بالعلم — كما يقول ابن القيم — رحمه الله تعالى — (ومن الجود بالعلم أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جوابا شافيا ولا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة)¹.

وهذه طريقة قل أن يفتح بها على عالم أوفقيه إلا إذا كان من أكابر الحفاظ وأوعية العلم² كان إذا سئل عن حكم شرعي ذكر في جوابها رأي المذهب الحنفي وغيره من المذاهب المعتمدة الأخرى إذا اقتضت الفتوى ذلك، واستدل بأقوال العلماء المشهورين، ولا يفوته — في أحيان كثيرة — أن يتطرق إلى ذكر مأخذ الخلاف وترجيح القول الراجح.

¹ — مدارج السالكين لابن القيم (2 / 293).

² — يقول ابن القيم — رحمه الله تعالى: (ما كل من وجد شيئا وعلمه وتيقنه أحسن أن يستدل عليه، ويقرره، ويدفع الشبه القادحة فيه.. وبالجملة، فما كل من علم شيئا أمكنه أن يستدل عليه ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقرير الجواب على المعارض) مدارج السالكين لابن القيم (3 / 486، 487).

ومن المعروف لدى الفقهاء والباحثين في ميدان الفقه المقارن أن بسط الخلاف وأدلته والمناقشة والموازنة بين الآراء هي المسلك الأسلم والمنهج الأقوم للوصول إلى القول الحق والحكم الصواب، وهو ما كان يعمل به الشيخ رحمه الله في أحيان كثيرة.

وقد سئل مرة عن حكم المصافحة بعد الصلاة وقول المصلي للآخر: (تقبل الله منا ومنكم)، فأجاب إجابة وافية، تدل على عمق نظرته، وسعة اطلاعه، ناقلا فيها أدلة المانعين، وأدلة المجيزين، ومن المفيد جدا نقل طائفة من كلامه في هذه الفتوى، حيث يقول: (المصافحة بعد الصلاة للعلماء فيها كلام واختلاف، فمن مجيز ومانع، والمجيزون أخذوا بإطلاق طلب المصافحة فيما ورد من أدلتها الشرعية، وهي وإن لم يرق دليل خاص على فعل لها أعقاب الصلوات، فليس هناك دليل يمنع فعلها حينئذ)¹. ثم أخذ في سرد أدلة المانعين ومناقشتها ونقل عن عدد كبير من العلماء، وكابن عابدين² والنووي³ وأبو الحسن البكري⁴ وابن حجر العسقلاني⁵ وغيرهم..

ثم ذكر اختلاف العلماء في هذه المسألة حيث قال: (اختلف العلماء على أربعة أقوال:

— جائز لأنه قول حسن.

— مكروه لأنه من فعل اليهود.

— مندوب إليه لأنه دعاء ودعاء المؤمن لأخيه مستحب.

— لا يبتدئ فإن قاله أحد رد عليه)⁶.

ويقول في آخر فتواه: (وبعد فالذي أراه هو الفرق بين هذا القول في العيد — أي قول المسلم لأخيه يوم العيد: تقبل الله منا ومنك، وغفر لنا ولك، عيدك مبارك — وقوله في أعقاب الصلوات، فإن البون الزماني شاسع بين الأعياد وليست تتألى كالصلوات، ويوم العيد أيضا يوم

¹ — ردود على أبا طيل محمد الحامد (1 / 100).

² — أحمد بن عبد الغني بن عمر الشهير بان عابدين، الدمشقي الحنفي. ولد سنة 1239 هـ بدمشق، عين أمينا للفتوى بدمشق، أشهر كتبه حاشية لبان عابدين، توفي سنة 1307 هـ. الأعلام للزركلي (1 / 147).

³ — شرح صحيح مسلم للنووي (17 / 101).

⁴ — أبو الحسن البكري المصري الشافعي، كان جامعا بين العلم والعمل، وهو ممن اتفقوا على جلالته، وبلغه رتبة الاجتهاد، (أبجد

العلوم، صديق بن حسن القنوجي (3 / 163).

⁵ — الفتح الباري لابن حجر العسقلاني (11 / 5).

⁶ — ردود على أبا طيل محمد الحامد (1 / 104).

سرور وفرح فيتسامح فيه ما لا يتسامح في غيره، ولا كذلك أعقاب الصلوات. وأن الخطر الكامن في البدعة من حيث حسابها سننا على الأيام، متمثلاً في التزام هذه القولة في أعقاب الصلوات)¹.

وهذا أسلوب موسوعي لا يطيقه إلا من كان على شاكلته — رحمه الله تعالى — والأدلة على هذا من مؤلفاته تحصل بأي نظرة، ومن المهم ذكر بعض أبرز المسائل التي عانى فيها الإسهاب والسعة والشمول ومن ذلك ما يلي:

— رسالة رحمة الإسلام للنساء.

— رسالة حكم اللحية في الإسلام.

— رسالة حكم الإسلام في الغناء.

— رسالة لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية.

— كتاب نكاح المتعة حرام في الإسلام.

والشيخ — عليه رحمة الله — طويل النفس في مؤلفاته، يعاني الإيضاحُ جهده فيسهب جداً، وربما يعتذر عن الإطالة في بعض الأحيان ومن ذلك أنه ختم فتواه في حكم المانع للزج الذي يخرج من قبل المرأة، فقال: (وبعد فأرجو أن لا يلحقني بإطالتي لوم من القراء الكرام فإن التحقيق العلمي في هذا الأمر قد استدعى شيئاً من الإطالة والكريم يعذر)².

¹ — نفس المصدر (1 / 106).

² — نفس المصدر (1 / 88).

المطلب الثالث: المزج بين الحكم الفقهي والتوجيه والإرشاد

إن القارئ لمؤلفات الشيخ — رحمه الله تعالى — وفتاويه يرى أنه لم يكن مجرد آلة صماء، تكتب وتصدر الفتاوى، لا تهتم بالنواحي التربوية والأخلاقية والإصلاحية، وإنما كان يفيض حيوية ويشتعل حماساً، متدفقا بعلاج أمراض المجتمع في أخلاقه وفي سلوكه ومنهجه. فقد كان يمزج فتاويه بالتوجيهات الإصلاحية والنصائح المفيدة، والإرشادات التربوية.

لقد كان — رحمه الله تعالى — يدرك إدراكا عميقا أن وظيفة العالم ليست إصدار الفتاوى، ومخاطبة الناس من برجه العاجي حيث ينثر عليهم من هناك صيغ الوعظ والإرشاد، ثم يتولى عنهم غير مبال بما هم فيه، دون الالتصاق بهم ومخالطتهم والسعي الحثيث لحل مشاكلهم والنصح لهم، ولذلك كانت فتاويه، ومؤلفاته حافلة بالنصح والإرشاد، تكشف عن عاطفة جياشة، وقلب صادق يحترق ألما وحسرة عما أصاب الأمة الإسلامية من خمود، وبعد عن الدين.

ومن الويلات التي أصابت عقول كثير من الناس ذلك الفصام النكد الذي حصل بين الفقه والدعوة، مما أدى إلى إعفاء الفقيه من تحمل المسؤوليات الدعوية، فأصبحت وظيفته مجرد إصدار الفتاوى، وتوجيه النقد لأخطاء العمل الدعوي، دون شعور بالآلام الدعاة ومعاناتهم.

يقول مفيد خالد عيد: (المتفقه لا ينجح في تحقيق مهمته بمجرد تقليب أبواب الفقه ومعالجة أصوله وفروعه واستنباط مسأله، بل إنه بحاجة إلى معرفة أحوال الأمة، فيعد لهم بفقهم وعلمه الدواء الذي يشفي أسقامهم، ويقربهم من خالقهم، فيصبغ فقهم بالصبغة الدعوية)¹.

فالفقيه بحق — كما قال علي بن أبي طالب² — رضي الله عنه — (من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره)³.

¹ — العلاقة بين الفقه والدعوة لمفيد خالد عيد أحمد عيد (ص 80).

² — علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أبو الحسن، أول الناس إسلاما في قول كثير من أهل العلم، ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح، فربي في حجر النبي — صلى الله عليه وسلم — ولم يفارقه وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك، وزوجه بنته فاطمة، قتل في ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف شهر. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (4 / 569).

³ — رواه الدارمي في سننه، باب من قال العلم الخشية (1 / 76) وابن بطة في ابطال الحيل (ص 13) واللفظ له، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (2 / 160).

إن المستفتي قد لا يتأثر بالحكم الفقهي الجامد الذي يصدر عن العالم بقدر ما تحدته التوجيهات والإرشادات التربوية من أثر في نفسه، وقد حفلت فتاوى الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — بمثل هذه التوجيهات القيمة فلم يكتف بإصدار الحكم الشرعي بصورة آلية، دون توجيه المستفتي لما فيه خيره وصلاحه في الدنيا والآخرة.

ويمكن التدليل على ذلك بضرب بعض الأمثلة من مؤلفاته وفتاويه.

— سئل عن حكم زواج المسلم من غير المسلمة، حيث أجاب بما يقتضيه النص الشرعي من إباحة الزواج بالكتابية غير أنه لم يقف عند ذلك الحد بل أدلى عقب الفتوى بتوجيه سديد ونصيحة قيمة، كان مبعثها الإشفاق على المستفتي ومساعدته على اختيار الحكم الأفضل لدينه ودينه وإرضاء الله تعالى، فقال: (والأجمل بالمسلم أن لا ينكح إلا مسلمة صالحة غير فاسقة، فهي أجدر بأن ترعى حقوق الزوجية وتقوم بما تتطلبه من واجب رغبة في إرضاء الله تعالى وثوابه، ورهبة من سخطه وعقابه، وهي التي تؤمن على الذرية فتربيتهم التربية الحكيمة القويمة على الفضيلة، فيشبو وقد ملكتهم الملكات النفسية الصحيحة الطيبة فيكونون خيرا وبركة على أنفسهم وعلى أبويهم وعلى الناس).

هذا إلى أنها تعين بعلمها على تقوى الله العظيم سبحانه فيسعد بها وتسعد به وتكون حياتهما حياة هناء وغبطة في هذه الدنيا وينقلبان بعدها إلى رحمت البر الرحيم في الآخرة¹.

ثم أخذ — كما هي عادته — في سرد الأحاديث النبوية الداعية إلى اختيار الزوجة الصالحة ذات الخلق القويم والدين الصحيح.

— ومن توجيهاته المهمة التي عادة ما يدلي بها عقب بيان الحكم الشرعي ما كتبه في معرض رده على ما أوردته إحدى الصحف السيارة في جواب لها عن قضية شائكة تتعلق بالشك في الإيمان، وبعد أن بين الحكم الشرعي في هذه المسألة، وهو أن الوسوسة ليست بضائرة وأن كره المؤمن لها ونفرته منها برهان على صحة إيمانه ما دام غير ملتفت عليها إلتفات المتقبل لها²، وبعد أن أعطى البحث حقه من الدراسة والاستدلال، التفت إلى السائل بتوجيه لطيف يقول فيه: (وبعد فنصيحتي للأخ السائل أن يعلم أن الشيطان كلب فلتصمَّ أذنك عن نباحه ولا تعره التفاتا إلا توقيا،

¹ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (1 / 28).

² — نفس المصدر (292/1).

وخذ نفسك بالذكر الكثير والفكر الصالح فإن هذا العدو خناس كما سماه الله في كتابه، يخنس إذا ذكر القلب ربه، وهذه هي سبيل السلامة منه بإذن الله القوي العزيز.

وأشير على أخي السائل بما أشار به علي أحد شيوخ الصالحين أيام فقهه في المدرسة الحسروية الشرعية في حلب وقد اعتراني شيء من هذا الذي اعتراك وكنت وقتئذ في بداية الطلب، وأشار عليّ أن لا أنفرد عن إخواني الطلبة في السير والجلوس درأ لوسوسة الشيطان الذي يكون مع الواحد وهومن الاثنين أبعد، وقد عملت بإشارته — رحمه الله تعالى ورضي الله عنه — فذهب عني ما كنت أجد وهذا من جملة أسرار الجماعة في الشعائر الدينية¹.

ويستمر في سرد إرشاداته القويمه للسائل ويختم كلامه بالدعاء له بأن يذيقه الله حلاوة الإيمان.

والأمثلة على ذلك كثيرة²، حيث أنه اتخذ ذلك منهجا له، فالعلماء مرشدون وموجهون وليسوا مجرد آلات صماء لإصدار الفتاوى، دون أن يكون لهم الريادة في قيادة المجتمع نحو الخير، والصلاح، فهم كالنجوم الهادية في صحراء الضياع، وقد ذكر أهمية الدور الكبير الذي يقوم به العلماء في معرض نصيحته للشباب، حيث يقول: (السير بدون مرشد عالم قد لا يفضي إلى البغية المرجوة، فلا بد لكم منه، كما لا يكون المرء طبيبا بمطالعة الكتب فقط دون أن يدخل دور الطب الرسمية ثم بعد النجاح في المشافي تحت نظر الأطباء، كما لا يكون الطبيب طبيبا إلا بهذا، لا يكون السير إلى الله تعالى مضمون النتائج إلا بصحبة عالم تقي نقي ورع قد تربى بصحبة غيره، وغيره وغيره وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى السيد الأعظم حضرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم)³.

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 295).

² — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 125، 127 وما بعدها، 435، 565 وما بعدها انظر: نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام لمحمد الحامد (ص 125).

³ — نفس المصدر (1 / 533).

المطلب الرابع: عدم التشهير بالمخالف والتنكيل به

(الموضوعية وإنصاف الخصوم)

الاختلاف أمر مسلم به في دنيا البشر، وهو سنة الله — عز وجل — في خلقه، فهم مختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطباعهم ومدركاتهم ومعارفهم وعقولهم وأشكالهم، فلا عجب أن تختلف وجهات النظر، وتتعارض الآراء، ولكن العجب كل العجب في عدم استساغة الأطراف المختلفة للآراء المخالفة، بل المسارعة في اتهام النيات، وهتك الأعراض بالغيبة، والسعي بالتشهير والفضيحة والتنكيل بالمخالف، والعمل على هتك أستاره، ونشرها على رؤوس الملأ، بل الاستهزاء به وتحقيره وذكره بما يكره.

وقد شدد الإسلام على ضرورة ستر عورات المسلمين، وعيوبهم وعدم هتك أعراضهم، يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم —: (من ستر مسلماً ستره الله)¹.

إن عدم التشهير بالمخالف، وفضح سريرته من الصفات المهمة التي يجب أن يتخلق بها العلماء والدعاة إلى الله — عز وجل — وكذلك كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — ويظهر ذلك في ردوده وفتاويه، ومجالسه (فإياك أن تذكر أحداً في مجلسه بسوء، فمجالسه — رحمه الله تعالى — العامة والخاصة مجالس العلم والأدب، لا تُؤَبَّنُ² فيها الحرم، ولا ترفع فيها الأصوات، ولا تؤتى فيها المنكرات)³.

وعن عدم تشهيره بالمخالف والتنكيل به، ذكر في مقدمة كتابه (ردود على أباطيل)، — متحدثاً عن نفسه عن القواعد المنهجية التي ألزم نفسه باتباعها والتقيد بها في ردوده — ما نصه: (وبعد، فقد التزمت في هذه الردود إغفال أسماء من رددت عليهم في الصحف والمجلات لأمرين اثنين:

أولهما: هو أن القصد من الكتابة كان لتميحص الحق مجرداً وتخليصه من أدران الأخطاء إن شاء الله تعالى، لا للتنكيل بالأشخاص والتشهير بهم، وإتي لأرباً بالعلم الديني أن يتخذه صاحبه أداة طعن في المخطئين لمحض التشفي منهم لحزاة نفسية وحقد ذاتي.

¹ — رواه أحمد في المسند (4 / 104)، حديث رقم (17000)، أخرجه بن الجارود في المنتقى، في باب الحدود (ص 203).

² — تعاب.

³ — العلامة المجاهد لعبد الحميد طهماز (ص 228).

وثانيهما: هو أن رحمة الله — سبحانه وتعالى — قد تدركهم كلا أو بعضا فيتوبون من الضلال، ويثوبون إلى الصواب، وكم أدركت رحمته — سبحانه وتعالى — من ضالين فاهتدوا، ومن شاردين فأوقفهم على بابه الكريم، وإنه تبارك اسمه وتعالى جده أرحم الراحمين وخير الغافرين يهدي لنوره من يشاء، فقد قال الله تعالى (يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)¹.

وليس هناك من شك في أن عدم التشهير بالمخالف وترك التنكيل به يعد أصلا من أصول الدعوة إلى الله تعالى، يقول الإمام النووي — رحمه الله تعالى: (فمن الرفق ترك التشهير والإعلان بالإنكار على المعين أمام الناس إن كان الأمر لا يتطلب ذلك، فينبغي أن يسر النصيحة إليه ليتحقق القبول. قال الشافعي: " من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه)³.

ذلك أن طبيعة الإنسان تكره أن تعاب وتخطأ أمام الآخرين، بل ربما يدفعها ذلك للتمسك بما هي عليه من الخطأ والمخالفة.

وقد أحسن الشافعي — رحمه الله تعالى — عندما قال:

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في جماعة

فإن النصح بين الناس نوع من التويخ لا أرضى استماعه

وإن خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تعط طاعه⁴

ولذلك كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — في ردوده على مخالفه يتحلى بالأدب الجم، والتخلق الرفيع، ولا يقصد تجريح المخالف، أو هتك أستاره، أو إباحة عرضه، وبدلنا على ذلك ما كتبه في مقدمة كتابه (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام) الذي رد فيه على الدكتور مصطفى السباعي — رحمه الله تعالى — حيث قال: (وأعوذ بالله أن يكون الدافع لي أمرا آخر، أو عاملا نفسانيا، كأن أحرز شرف تخطئة الدكتور السباعي، فإنه أخي وصديقي وأحبه ويجبني وكل منا لدى صاحبه مكين أمين، والناس يعلمون هذا منا وإني أعرف ما يتحلى به من

¹ — العنكبوت: 21.

² — ردود على أباطيل ل محمد الحامد (1 / 9، 10).

³ — شرح صحيح مسلم للإمام النووي (2 / 24).

² — ديوان الشافعي (ص 56).

خلق كريم، وسجايا حميدة، وهذا إلى ما في نفسه من نية صافية، وهمة عالية، وعلم غزير، وأفق واسع التفكير، فهونا بعة من كبار النوابغ وقد قاد جموع الشباب المسلمين وملائهم حماسة لهذا الإسلام، واقتناعا بسموه وعلوه وأفاض عليهم نشاطا حارا في العمل لتأييده¹.

ويذكر في مقدمة نفس الكتاب، فيقول: (كتب الدكتور — أي السباعي — ما كتب بقصد الخير وتحري الصواب فيما يرى، وقد طالعت كتابه فإذا فيه الكثير الطيب المعجب الذي يملأ القلب سرورا والصدر انشراحا، بمبانيه البديعة، ومعانيه الرفيعة، وجودة الأداء، ووفرة الإطلاع، وحسن الإقناع، وقد كانت تغمرني أمواج من الفرح حين أستغرق في مطالعة بعض بحوثه، حتى لو أنه كان أمامي لقمتم وقبلت رأسه إعجابا بهذا العلم، وإكبارا لهذا العرض، والتذاذا بهذا الينبوع الثر من البيان العذب، وقديما قبل الإمام عبد الله بن المبارك² رأس الإمام سفيان الثوري³ — رحمهما الله تعالى⁴).

ومن محامده — رحمه الله تعالى — أنه كان دائما في ردوده يدعو لمخالفته بالتوفيق والهداية والصلاح، وكانت عبارات مثل: (وقفه الله، أسعده الله، أرشده الله..). كثيرة الورد في كتاباته. كما أنه لا يجد أي غضاضة في الاعتراف للمخالف بالفضل والعلم، وهذا من تواضعه، واحترامه للعلماء، وإنزال الناس منازلهم وهذا ما وجدناه في رده على الدكتور مصطفى السباعي آنفا، يقول في خاتمة رده على كتاب القضاء والقدر لمؤلفه الشيخ عبد الغني حمادة الإدلي: (إني لست كالشيخ في فضله وسعة اطلاعه ووفور علمه ولكن الاضطراب الديني ألباني — على ضعفي وقصوري — إلى كتابة هذه الملاحظات الوجيزة تقريرا للحق المجرد، والله — سبحانه وتعالى — أعلم وأستغفر الله العظيم⁵).

¹ — نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام، محمد الحامد (ص 15).

² — عبد الله بن المبارك المروزي، مولى بني حنظلة، ثقة ثبت فقيه عالم جواد مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، مات سنة 181 هـ — وله ثلاثة وستون سنة. تقريب التهذيب (1 / 445).

³ — سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ فقيه، عابد إمام حجة، وكان ربما دلس، مات سنة 161 هـ — وله أربع وستون سنة. تقريب التهذيب (1 / 311).

⁴ — نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام لمحمد الحامد (ص 3).

⁵ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (2 / 116).

ومن أدبه — رحمه الله تعالى — مع مخالفه أنه يلتمس الأعذار لهم كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، فلا يصدر حكماً بشأنهم قبل أن يبحث في الملابسات والدوافع، متمسكاً بشعار (التمس لأخيك عذراً) يقول عبد الله بن المبارك — رحمه الله تعالى — (المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات)¹ ولنقرأ للشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — وهو يلتمس الأعذار للشاعر الفيلسوف المعروف، أبي العلاء المعري²، الذي تاه في صحراء الشك والحيرة، وذلك بعد أن عرض أبياتاً من شعره حول شكه في البعث والنشور، حيث يقول المعري:

قال المعلم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أوصح قولي فالخسار عليكما

يقول الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى: تعليقا على ذلك: (لعل القول القريب فيه هو أن الشك طراً عليه ثم زال وحل اليقين من محله)³.

وهذا من باب إحسان الظن بالمسلم وحمل كلامه وأفعاله على أحسن محمل والأمتثلة على ذلك أكثر من أن يستوعبها هذا المقام، وفي الإشارة ما يغني عن العبارة.

¹ — شعب الإيمان للبيهقي (7 / 521)، فيض القدير للمناوي (6 / 73).

² — أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، أبو العلاء المعري، اللغوي الشاعر المشهور، من معرة النعمان بالقرب من حماة، ولد سنة 363 هـ وجرى في السنة الثالثة من عمره، فعمي، كان عجيباً من الذكاء المفرط، والاطلاع على اللغة، قال الشعر وهو ابن اثنتي = عشرة سنة، كان لا يأكل اللحم ولا البيض و اللبن ويقتصر على ما تنبت الأرض، ويلبس خشن الثياب ويدم الصوم قال الذهبي إنه ملحد، وحكم بزندقته وقيل أنه تاب وله تصانيف مشهورة منها اللزوميات، ورسالة الغفران، توفي سنة 449 هـ. لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني (1 / 204 وما بعدها)، أجد العلوم، صديق بن حسن القنوجي (3 / 72).

³ — ردود على أباطيل محمد الحامد (2 / 65).

المطلب الخامس: اعتبار المصلحة وتعليل الأحكام

تعتبر معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية وعلل الأحكام الشرعية ضرورة لا بد منها لمن رغب في التعمق في دراسة الفقه، وسبر أغواره، والتصدر للفتوى، ومعالجة القضايا المستجدة، وبيان حكم الله تعالى فيها، ومن المعلوم بالضرورة شرعاً أن أحكام الشريعة دائرة على تحقيق مصالح العباد، يقول ابن القيم¹ — رحمه الله تعالى: (إن الشريعة مبناه وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها).

فكل مسألة خرجت عن العدالة إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة في شيء، وإن أدخلت فيها بالتأويل².

ويقول الإمام الشاطبي³ — رحمه الله تعالى —: (والشريعة ما وضعت إلا لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، ودرء الفاسد عنها)⁴.

والمصالح ثلاثة أقسام: فمنها المصالح المعتبرة وهي التي "شهد الشارع باعتبارها بأن وضع من الأحكام التفصيلية ما يوصل إليها وهي الكليات الخمس.. ومنها: ما ألغاه الشارع ووضع أحكاماً تدل على عدم الاعتداد بها كإيجاب صوم شهرين كفارة الجماع في نهار رمضان عن الغني.. ومنها: ما لم ينص الشارع على اعتبارها ولا إلغائها وهو ما يسمى بالمصالح المرسلة"⁵.

¹ — أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي الحنبلي، المعروف بابن قيم الجوزية، فقيه أصولي ومجتهد ومفسر ونحوي ومحدث، ولد بدمشق سنة 691 هـ، ولازم ابن تيمية، وسجن معه في قلعة دمشق، وتوفي سنة 751 هـ ودفن في سفح جبل قاسيون بدمشق. شذرات الذهب (6 / 168).

² — إعلام الموقعين لابن القيم (3 / 14، 15).

³ — أبو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي المعروف بالشاطبي، نشأ بغرناطة، وتوفي بها، اختلف في ولادته وقيل سنة 730 هـ وتوفي سنة 790 هـ. الأعلام للزركلي (1 / 71) و الشاطبي ومقاصد الشريعة، حمادي العبيدي (ص 12، 13).

⁴ — الموافقات للشاطبي (2 / 376).

⁵ — أصول الفقه لوهبة الزحيلي (2/752 وما بعدها).

ومقاصد الشريعة — كما يعرفها العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور¹ — رحمه الله تعالى: (هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها.. ويدخل في هذا أيضا معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها)².

أما تعليل الأحكام³، بمعنى ذكر العلة والأوصاف المؤثرة والمعاني المتبعة في الأحكام الشرعية، فأمر تتضافر على نصرته النصوص القرآنية والحديثية بشكل لا يبقى معه أدنى مجال للشك والتردد.

والأمثلة الدالة على أن أحكام الشريعة معللة كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)⁴.

(فهاهنا عللت فرضية الصلاة بمصلحتين جامعتين عظيمتين، إحداهما أعظم من الأخرى. المصلحة الأولى: هي كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر.. وأما المصلحة الثانية التي عللت بها الصلاة في هذه الآية، فهي ذكر الله، الذي هو أكبر من مصلحة النهي عن الفحشاء والمنكر، ولذلك جاء التعليل به وحده في آية أخرى هي قوله تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)⁵).

وبناء على هذا الأصل المعتبر كانت فتاوى الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — لا تتقف عند ظواهر النصوص، وحرفياتها في الفهم، وإنما كانت تنبني على اعتبارات مقاصدية من حيث أن القصد في التشريع إقامة مصالح الخلق. يقول في إحدى فتاويه: (إن التشريع الإلهي يعتمد

¹ — العلامة الفقيه الأصولي محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ولد بضاحية المرسى بتونس سنة 1879 م صاحب تفسير التحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة الإسلامية وأليس الصبح بقریب).

² — مقاصد الشريعة لابن عاشور (ص 51).

³ — يقول ابن القيم — رحمه الله تعالى (والقرآن وسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مملوءان من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح وتعليل الخلق بهما والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرع تلك الأحكام ولأجلها خلق تلك الأعيان، ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة أو مائتين لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة) مفتاح دار السعادة (ص 22) نقلا عن مدخل إلى مقاصد الشريعة، لأحمد الريسوني (ص 50).

⁴ — العنكبوت: 45.

⁵ — طه: 27.

⁶ — مدخل إلى مقاصد الشريعة الإسلامية لأحمد الريسوني (ص 27).

مصلحة الخلق، وإنما تختلف بحسب الأزمنة ألا ترى أن الطبيب يعطي مريضه دواء يصلح وإلى أمد معلوم لديه، وبانتهاه تكون مصلحة المريض في أن يعطيه غيره)¹.

إن (المقاصد أرواح الأعمال)²، ذلك أن الفقه الذي يخلو من الاعتبارات المقاصدية هو فقه لا روح فيه، والقاعدة الفقهية المعروفة: (الأمور بمقاصدها) أكبر من أن يشار إليها في هذا المقام. يقول — رحمه الله تعالى — (فتشريعاته — سبحانه وتعالى — غنية بالحكم، زاخرة بالفوائد للعباد، جامعة للمنافع، مانعة للمضار، وقد يدرك الناس حكمة ربهم — سبحانه وتعالى — في بعض المشروعات وتخفى عليهم في بعض آخر، فالمؤمنون يؤمنون بها والكافرون ينكرونها ويتخذون من خفاء بعض الحكم ذريعة للنيل من المشروعات الإلهية)³.

ومن المهم هنا الإشارة إلى فائدة مهمة، وهي أن العلة الفقهية ليست هي — كما قد يتبادر إلى ذهن الكثيرين — الحكمة، ولذلك نبه الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — حول هذه المسألة، مبينا الفرق بينهما، حيث يقول: (العلة الفقهية هي التي يناط بها الحكم، لا الحكمة التي هي النفع في الأمور والضرر في المنهي)⁴.

من ناحية أخرى فإن تقدير ما به يكون الصلاح والفساد عائد إلى الشارع نفسه، وليس إلى ما يتوهمه الناس، (فالمصالح المحتلبة شرعا والمفاسد المستدفة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفسادها العادية)⁵.

يقول الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — في هذا المعنى: (وقد تكون المصلحة للبشر في أن يكلفهم بحكم إلى أمد يعلمه سبحانه وتعالى ويخفيه عنهم بحيث يظنون الحكم مؤبدا ولكنه مؤقت في علمه — سبحانه وتعالى — والله — سبحانه وتعالى — يعلم من قبل أن الحال بعد المدة المؤقتة يحسن أن يكون الحكم فيه غير الحكم الأول (وهذا العلم أزلي قديم) فيشرع لهم من بعد ما

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (2 / 24).

² — الموافقات للشاطبي (2 / 344).

³ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 152).

⁴ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 552).

⁵ — الموافقات للشاطبي (2 / 351).

يناسب مصلحتهم ويتفق مع تهذيب نفوسهم التي جاءت شريعة الله لتحقيقه فيشرع لهم سبحانه حكما غير الأول)¹.

وقد كان الشيخ — رحمه الله تعالى — حريصا على البحث عن علل الأحكام ومقاصدها، فكانت فتاويه زاخرة بهذه المعاني، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ويكفي هنا الإشارة إلى بعض ما أفتى به، وكتبه في هذا المجال.

فقد سئل مرة عن حكم اقتران المسلمة بغير المسلم، فأفتى بما تأمر به النصوص القطعية من التحريم ثم تطرق إلى علة ذلك فقال: (والسر في هذا النهي الحكيم — مع أن ربنا تبارك وتعالى أباح لنا نكاح الكتايبات " اليهوديات والنصرانيات " دون غيرهن، السرّ في هذا هو تسليم الأسرة من الخصام العنيف الذي يفضي إلى شر لا حدود له..²) وأطال النفس في هذا الأمر، وذكر ما يعود على الأسرة المسلمة من فساد وتحلل ديني في كلام نفيس وبديع.

كما وأنه ألف في العلل بحوثا تطبيقية مستقلة، من ذلك:

— الحكمة من تعدد الزوجات³.

— حكمة الإسراء والمعراج⁴.

— حكمة إعفاء اللحية⁵.

والقول بالتعليل لا ينبغي الأخذ به على إطلاقه، وإنما له ضوابط ينبغي العمل بها، ومراعاتها، ولذلك كان الشيخ — رحمه الله تعالى — يرفض التعليقات الفاسدة، ويرد على أصحابها.

ومن ذلك أن أحد الكتاب — في مجلة العربي الكويتية — اعتبر أن علة تحريم الخمر هي الإسكار، ونسب ذلك للإمام أبي حنيفة، فردّ عليه الشيخ — رحمه الله تعالى — قائلا: (هذا تعليل عليل، وليس من هذا القبيل، ولا تصح نسبته إلى أبي حنيفة — رحمه الله تعالى — فالخمر التي هي

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 371).

² — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 135).

³ — نفس المصدر (1 / 154).

⁴ — نفس المصدر (1 / 615).

⁵ — رسالة حكم اللحية في الإسلام لمحمد الحامد (ص 12 وما بعدها).

النيء من ماء العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد هذه الخمر محرمة لعينها وذاتها فهي أشد حرمة من سائر أنواع الأشرطة حتى إن الحد يجب بشرب قطرة منها بخلاف غيرها فإنه يجب بالسكر (منا)¹.

إن خاصة (معرفة المقاصد وتعليل الأحكام) جدرة بالاهتمام، وذلك من أجل معرفة الحقائق الشرعية بجلب المصالح ودرء المفسد كما وأنها توجد لدى الباحث تذوقا علميا وطمانينة (وهذا بخلاف ما جرت به بعض المؤلفات الفقهية من إتيانها بأسلوب مغاير تماما لهذا الأسلوب، حيث تأتي بالفقه على شكل مادة جافة أشبه ما تكون بالأساليب العسكرية، خالية من المرونة والتعليل المناسب للمقاصد الهادفة لتوجيه الشارع)².

وفي هذا المعنى يذكر الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — كلاما جميلا، يحسن ذكره، يقول: (إن حكمة الله منثورة في مشروعاته، ومبثوثة في تعليماته، من حيث إنه سبحانه وتعالى حكيم عليم لا يأمر إلا بما فيه نفع ولا ينهى إلا عما فيه ضرر.

وقد بدت حكم كثيرة في المشروعات الإلهية يزداد بها المؤمن استبصارا واطمئنانا، ومهما أمعن النظر في التعرف إليها بالقدر المسموح به، فاح عبيرها وهبت عليه نسائمها، فعبد الله عبادة العارف المستنير، وازداد نور التسليم، نور الفهم عن الله والوقوف على أسرار الأوامر والنواهي... وبعد، فلا مانع من حسن العرض للأحكام وما يحف بها من فوائد ومنافع شريطة أن لا تكون هي المقصد دون التقرب إلى الله بالعمل خالصا لوجهه الكريم)³.

¹ — القول في المسكرات محمد الحامد (ص 8).

² — منهج ابن تيمية في الفقه لسعود العتيشان (ص 67، 68).

³ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 343، 344).

المطلب السادس: سد الذرائع

(سد الذريعة) أصل مهم من أصول الشريعة الإسلامية، وأحد مصادر استنباط الأحكام في علم أصول الفقه، وتظهر أهميته فيما يترتب على ترك العمل به من مزالق وشرور، وتلبس لحقائق الأحكام، مما يؤدي إلى تحصيل المقاصد عن طريق الحيل وغيرها.

(فالذريعة — كما يعرفها ابن تيمية — هي ما كان طريقاً إلى الشيء، ولكن صارت في عرف الفقهاء عبارة لما أفضت إلى فعل محرم)¹.

فسد الذريعة — إذن — هو سد الطرق المفضية إلى المحرم وذلك حسماً لمادة الفساد.

(والذريعة أربعة أنواع:

1— ما وضع للإفشاء إلى المفسدة في حدّ ذاتها لا محالة، كشراب المسكر المفضي إلى مفسدة السكر.

2— ما وضع للإفشاء إلى مباح؛ ولكن قصد به التوصل إلى مفسدة كعقد النكاح المقصود به التحلل.

3— ما وضع لمباح لم يقصد به التوصل إلى مفسدة، ولكنه يفضي إليها غالباً، وهي أرجح مما قد يترتب عليها من المصلحة، مثل سب آلهة المشركين بين ظهرائهم.

4— ما وضع لمباح ولكن قد يفضي إلى مفسدة ومصلحة أرجح من مفسدته، كالنظر إلى المخطوبة المشهود عليها)².

(فإذا حرم الرب شيئاً وله طرق ووسائل تفضي إليه فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقاً لتحريمه وتثبيتاً له ومنعاً من أن يقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضاً للتحريم)³.

¹ — الفتاوى لابن تيمية (3 / 256).

² — أصول الفقه، د. وهبة الزحيلي (2/884).

³ — اعلام الموقعين لابن القيم (3 / 135).

وقد أولى الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — هذا الأصل عناية فائقة، واعتبره أصلاً من الأصول التي اهتم بها الشارع واعتبرها في ترتيب الأحكام إذا كانت الذريعة تفضي إلى المحرم غالباً، ذلك أن فتح الذرائع المباحة المفضية إلى المفسدة (الحرام)، فيه تقويض لأصول الدين. يقول في معرض حديثه عن سد الذرائع: (فكم من مباح يمنع في الشرع لما يجر من ذيول فاسدة، ويستتبع من شرور ضارة وأن سد ذرائع الفساد من المعتربات الشرعية التي لها مكانها في الإسلام وفي الحديث الشريف " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه" ¹).

ومما يستفاد من كلامه — رحمه الله تعالى — أن هدف الشارع من تحريم الذرائع — ولو لم يقصد بها الحرام — هو خشية ما تفضي أو تؤول إليه من الحرام والفساد وكذلك لقطع السبيل على النفوس المريضة من الاحتيال (فللشرعية أسرار في سد الفساد وحسم مادة الشر لعلم الشارع بما جبلت عليه النفوس) ³.

ومما استدل به على جواز العمل (بسد الذرائع) ما رواه مسلم في صحيحه عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة — رضي الله عنها — قالت: (لو أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رأى من النساء ما رأينا لمنعهن من المسجد كما منعت بنو إسرائيل نساءها، قلت لعمرة أو منعت بنو إسرائيل نساءها؟ قالت نعم) ⁴.

يقول العلامة الحامد — رحمه الله تعالى — معلّقاً على هذا الحديث: (وإذا كانت أحداثا النساء من الزمن الأول تقضي بالمنع، والنفوس وقتئذ تقيه والدين له سلطانه، والصحابة متوافرون فإن المنع في زماننا واجب حتم إذ الفتنة غامرة، والحجاب رقيق، والأنظار أسيرة الأناقة موثقة

¹ — أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (52) وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، حديث رقم (3974).

² — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 47).

³ — الفتاوى لابن تيمية (3 / 259).

⁴ — أخرجه مسلم في صحيحه، باب التوسط في القراءة الجهرية بين الجهر والإسرار، رقم (445)، 329/1.

بالحسن ومتطلعة إلى الجمال أتى مال، وحيثما لاح، ونحن نربأ بالدين أن يتخذ مطية إلى
الأسوء¹.

ومن تطبيقات هذا الأصل لدى الشيخ — رحمه الله تعالى:

— سئل عن حكم شراء جهاز (الراديو) والاستماع إليه في شيء يحله الشرع ويرضاه؟

فأجاب — رحمه الله تعالى —: (إن جهاز (الراديو) آلة ناقلة للصوت فهو في ذاته متاع من
الأمثلة يجوز إيراد عقد البيع عليه والحرمة في استعماله آتية من حيث نقله الأغاني الفاسدة والأنغام
المحرمة، فإن خلا عنهما وكانت الإذاعة فيه قاصرة على القرآن الكريم، والمحاضرات العلمية
الصحيحة الحالية من بدعة الاعتقاد أو بدعة العمل.. إذا خلا ما يذاع في الراديو عن هذه المحظورات
الشرعية، حل شراؤه واستماعه، ولم يكن للحظر وجه، ولكن هيئات فإن الواقع المشاهد أن أكثر
ما يذاع فيه فسق لا يسوغه الشرع ولا يجوز، فإدخال هذا الجهاز إلى البيوت يأتي بالشر المستطير
المتتابع المتتالي فالامتناع منه أسلم وأحكم². وذلك سدا للذريعة.

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 175، 176).

² — نفس المصدر (1 / 46، 47).

المطلب السابع: الأخذ بالأحوط

درج علماء السلف — رحمهم الله تعالى — على الأخذ بالأحوط، والبعد عن تتبع الرخص عمداً، بل من العلماء من منع تتبع الرخص في المذاهب، وعده من الفسق¹، لما في ذلك من الجري اللاهث وراء الأهواء التي جاء الشرع أساساً لمخالفتها، وقد تضافرت في ذلك النصوص القرآنية والحديثية.

ومعنى (العمل بالعزيمة) هو اجتناب الشبهات والريب، أو هو — كما عبر عنه الغزالي² — رحمه الله تعالى — (كل شبهة لا يجب اجتنابها ولكن يستحب اجتنابها) وذلك امتثالاً لقول النبي — صلى الله عليه وسلم — (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)³. وقوله — صلى الله عليه وسلم —: (لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس)⁴. وقد جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب⁵ — رضي الله عنه — قوله: (كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام)⁶.

كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — قد اتخذ من هذه الأحاديث المذكورة وغيرها قاعدة أساسية، ومنهجاً متبعاً، تصدر عنه فتاويه ورسائله.

ومن ذلك أنه كان يأخذ بالعزيمة في كل شأن من شؤونه ويُعرض عن الرخصة.

¹ — حكى ابن حزم الإجماع على أن تتبع رخص المذاهب فسق لا يحل. الموافقات للشاطبي (2 / 502).

² — أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، المعروف بالغزالي، فقيه أصولي، وصوفي متكلم، ولد سنة 450 هـ — بخرسان، طلب الفقه لتحصيل القوت، ثم أقبل على العبادة والسياسة، فارتحل إلى بغداد والحجاز ودمشق والقدس والإسكندرية، وللغزالي شطحات صوفية وفلسفية، ربما رجح عنها فيما بعد. صنف كتباً كثيرة، منها احياء علوم الدين وثمافت الفلاسفة والوجيز في فروع الفقه الشافعي والمستصفي في أصول الفقه. طبقات الشافعي للسبكي (4 / 101 / 182).

³ — أخرجه ابن خزيمة في صحيحه رقم 76963 (4 / 59) وابن حبان في صحيحه رقم 67864 (2 / 498) والدارمي في سننه رقم 38353 (2 / 319).

⁴ — أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد حديث رقم (4205) (4 / 634).

⁵ — أبو حفص أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، ولد قبل مبعث النبي — صلى الله عليه وسلم — بثلاثين سنة، كان عند المبعث شديداً على المسلمين، ثم أسلم فكان إسلامه فتحا على المسلمين، وفرج لهم من الضيق، قال عبد الله بن مسعود: ما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر، الإصابة (4 / 588).

⁶ — المستخلص في تزكية الأنفس لسعيد حوى (ص 342).

يقول الشيخ الحامد — رحمه الله تعالى —: (على أنه من المسلّم به لدى أهل العلم أنه إذا اجتمع دليل حازم ودليل مبيح وتساويا في القوة كان التقديم للدليل الحازم وكان العمل احتياطاً واستبراء للدين)¹.

وتوضيح ذلك أنه في حالة تعارض الأدلة — حسب إدراك المجتهد وقوة فهمه — فإن لعلماء الأصول مسالك ترجيحية يرجحون بها أحد الأدلة، غير أنه إذا استوت الأدلة في القوة وكان أحد الدليلين مبيحاً والآخر محرماً، فإنه يعمل بالمحرم، يقول محمد أبوزهرة — رحمه الله تعالى —: " إذا لم يكن مرجح في ذات النصين ولا في سند الرواية قال بعضهم بالتوقيف وقال الأكثر: يقدم النصّ المحرم على المبيح للاحتياط في الدين "².

ومما تجدر ملاحظته أن هذا التعارض إنما فيما يظهر للمجتهد بحسب ادراكه وقوة فهمه لا في الواقع ونفس الأمر إذ لا تعارض في الشريعة لأن التعارض معناه التناقض، يقول الشاطبي: " إن الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف، كما أنها في أصولها كذلك ولا يصلح فيها غير هذا "³.

سئل عن حكم ما يأخذه أئمة المساجد وخطبائها من الرواتب التقاعدية وبعد أن أجاب على الفتوى قال: (وقد كان من نيتي في هذا الصيف أن أطلب إحالتي على التقاعد.. ولي فيه الحق الرسمي إذ قد قاربت السن القانونية فلم يبق لي إليها إلا سنتان وأشهر، وقد مضت عليّ مدة يساعدي القانون فيها على هذا الطلب، ولكنني امتنعت آخرًا من هذا الطلب خوفاً من الله تعالى لأني لا أحب أن أتناول راتباً ولو قليلاً إلا بعمل يناسبه)⁴.

كما أنه رفض المشاركة في حفل تأبين أخيه الشاعر بدر الدين، الذي كان للشيخ — رحمه الله تعالى — بمثابة الوالد بل هو — كما يقول عنه الشيخ — (أبي بعد أبي، فإني لا أعقل من أبي — رحمه الله — إلا القليل اليسير، فقد توفي وأنا صغير جداً ثم تبعته أُمِّي فصرت يتيم الأبوين فكان لي

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 166).

² — أصول الفقه لمحمد أبي زهرة (ص 212)، وأصول الفقه لوهبة الزحيلي (2 / 1177).

¹ — الموافقات للشاطبي (4 / 118).

⁴ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 302).

بدر مكان الأب حنانا وعطفا وتربية وتعلّما، لا بل إنه يفوق كثيرا من الآباء البلداء ويزههم سبقا¹.

وعلى الرغم من هذه المكانة التي يحظى بها بدر الدين في نفس أخيه الشيخ — رحمهما الله تعالى — فإنه مع ذلك امتنع من المشاركة في حفل تأبين أخيه يوم وفاته، على أساس أن هذه الاحتفالات التأبينية من البدع التي لم تكن معروفة لدى صدر الأمة وهم السلف الصالح — رضوان الله تعالى عليهم — الذين عقلوا عن الله تعالى ورسوله — صلى الله عليه وسلم — وما ساروا إليه ووصلوا سالمين أتقياء أنقياء.

فيقول في رده على تساؤل ورد عليه عن تخلفه عن شهود حفلة تأبين أخيه الشاعر بدر الدين الحامد، بعد أن تحدث عن بدعية مثل هذه الاحتفالات وأن الاختلاف قائم بين فقهاء الأمة في أن النهي الديني عن البدع هل هو متناول العادات والعبادات جميعا أم خاص بالعبادات فلا نبتدع فيها نوعا، لم يكن في عصور النور الأولى المشهود لها بالخيرية؟ يقول: (وقد أحببت البراءة لديني خروجا من الخلاف فلم أحضر)². هكذا.. بكل صراحة ووضوح.

ومن الأمثلة التطبيقية على فتاويه التي أخذ فيها بالأحوط ما يلي:

— سئل عن الحكم في معاملة مختلط المال — أي أن ماله مختلط بالمال الحرام — فأفتى بكراهية ذلك، والترك أولى من باب الورع والتقوى والأخذ بالأحوط³. مع أنه أشار في موضع آخر من كتابه ردود على أباطيل إلى الجواز بناء على القاعدة الفقهية التي تنص على أن (معاملة مختلط المال من حلال وحرام، جائزة فقهيا)⁴.

— وفي معرض حديثه عن حكم القراءة الجماعية لسورة (يس) قال: (لكن أؤثر قراءة الانفراد دفعا لما يرتكب من المحذور في قراءة الجماعة لا سيما وقد عدها بعضهم من البدع) مع العلم أن كثيرا من السلف أجازوا القراءة معا مجتمعين عليها كما نقله النووي في (التبيان) واستدل لها ببعض الآثار.

¹ — نفس المصدر (1 / 401، 402).

² — نفس المصدر (1 / 399).

³ — نفس المصدر (1 / 61).

⁴ — نفس المصدر (1 / 554).

— اختلفت أقوال العلماء في أداء زكاة الحلبي¹، فبعضهم يرى أن لا زكاة في الحلبي وآخرون يرون وجوبها فيه، وبعد أن ذكر الشيخ — رحمه الله تعالى — أقوال الفريقين أفتى بوجوب الزكاة بناء على أنه الأحوط (والأحاديث الشريفة نص في هذا الأمر، وإذا عرفنا أن الذهب والفضة نقدان خلقة مضروبين كانا أو غير مضروبين، زال كل تردد في الموضوع وحصل الجزم بوجوب الزكاة في الحلبي غير قاصرة على الإعارة)².

¹ — يقول القرطبي — رحمه الله تعالى — في تفسيره: (اختلف العلماء في زكاة الحلبي فذهب مالك وأصحابه وأحمد.. إلى أن لا زكاة فيه وهو قول الشافعي بالعراق ووقف منه بعد ذلك بمصر.. وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والأوزاعي في ذلك كله الزكاة. تفسير القرطبي (8 / 126).

² — نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام لمحمد الحامد (ص 114).

المطلب الثامن: شوره واستثناسه برأى معاصريه من العلماء والفقهاء

ليس هناك من شك في أن تطبيق مبدأ الشورى وتبادل الآراء في الفتوى يحقق الكثير من الفوائد، فتتمحص الآراء وتتلاقح الأفكار، ويتجنب القصور المترتب عن الفتوى الفردية، وتتقارب وجهات النظر فتصدر الفتوى على صورة أكثر دقة وإصابة.

وترشدنا النصوص الحديثية وتاريخ السلف إلى أنهم كانوا يلتزمون بهذا المبدأ في فتاواهم واجتهاداتهم، فقد روى سعيد بن المسيب¹ عن علي — رضي الله عنه — قال: قلت يا رسول الله! الأمر يتزل بنا لم يتزل فيه قرآن، ولم تمض فيه منك سنة؟ قال: (اجمعوا له العالمين — أوقال العابدين — من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم، ولا تقضوا فيه برأى واحد)².

وروى ميمون بن مهران³: (أن أبا بكر — رضي الله عنه — كان إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله تعالى، فإذا وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ذلك الأمر سنة قضى بها، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال: أتاني كذا، وكذا، فهل علمتم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قضى في ذلك بقضاء؟ فرمما اجتمع إليه نفر كلهم يذكر من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في قضاء، فيقول أبو بكر: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا. فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به)⁴.

¹ — التابعي الجليل عالم المدينة، وسيد التابعين في زمانه، سعيد بن المسيب، ولد لستين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — سمع عن كثير من الصحابة كعائشة وأبي هريرة وعثمان وعلي وابن عباس — رضي الله عنه — عنهم جميعا، يقول عن نفسه: ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة. قال قتادة: ما رأيت أعلم من سعيد بن المسيب، توفي سنة 93 هـ. سير أعلام النبلاء، الذهبي (4 / 217 وما بعدها).

² — قال الهيثمي: رواه الطبراني في معجمه الأوسط، رجاله موثقون من أهل الصحيح. الهيثمي، مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد (1 / 178).

³ — الإمام الحجة، عالم المدينة، ومفتيها أبوأيوب الجزري، أعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة فنشأ بها، حدث عن أبي هريرة، وعائشة وابن عباس وابن عمر، ولد عام موت علي — رضي الله عنه — سنة أربعين، وتوفي سنة 117 هـ. سير أعلام النبلاء، الذهبي (5 / 70 وما بعدها).

⁴ — رواه الدارمي في السنن، (1 / 53). انظر إعلام الموقعين لابن القيم (1 / 62).

وذلك تطبيقاً لقول الله سبحانه وتعالى فيما أمر به نبيه — صلى الله عليه وسلم —
(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)¹ وقوله تعالى: (وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)².

وقد اقتضى الشيخ — رحمه الله تعالى — أثر السلف الصالح، فكان خير خلف لخير سلف،
متبعاً لطريقتهم في الاستشارة والعمل بالشورى والرجوع لأهل الاختصاص والخبرة في القضايا
العلمية، والاستئناس برأيهم فيما يذهب إليه من فتاوى، وتقريرات علمية، وقد جعل من ذلك
منهجاً متبعاً وطريقة معتادة في سائر مؤلفاته كما يروي عنه ابنه محمود الحامد حيث يقول في
مقدمة بحث (لزوم اتباع مذاهب الأئمة) المطبوع ما نصّه: (وكان والدي يفعل ذلك — أي
التشاور مع العلماء والفقهاء في القضايا العلمية والفقهية — من حرصه على عدم الاستقلال
بإصدار الفتوى بنفسه مع كفايته لذلك تواضعاً منه)³.

يقول يوسف القرضاوي: (فرأى الجماعة أقرب إلى الصواب من رأي الفرد، مهما علا
كعبه في العلم، فقد يلمح شخص جانباً في الموضوع لا ينتبه له آخر، وقد يحفظ شخص ما يغيب
عن غيره، وقد تبرز المناقشة نقاطاً كانت خافية، أو تُجلى أموراً كانت غامضة، أو تُذكر بأشياء
كانت منسية، وهذه من بركات الشورى ومن ثمار العمل الجماعي)⁴.

وقد كان الشيخ — رحمه الله تعالى — يعرض فتاويه على العلماء ويستشيرهم من أجل
تجري الصواب، وتجنب الخطأ، والبعد عن الشذوذ، ومن ذلك أنه عرض فتواه بشأن حكم الإسلام
في الرواتب التقاعدية على الشيخ المفتي محمد سعيد النعساني⁵ لمزيد من التوضيح والشرح،
والاستئناس برأيه كذلك، كما كان يعرض بعض كتاباته على الشيخ أجمد الزهاوي العراقي وعلى
الشيخ حسن حبنكة الدمشقي⁶ وهكذا كان شأنه، وذلك خوفاً من الانفراد بالرأي أو الفتوى
والشذوذ عن أقوال علماء الأمة المعاصرين له.

¹ — آل عمران: 159.

² — الشورى: 38.

³ — لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية لمحمد الحامد (ص 4).

⁴ — لقاءات ومحاورات ليوسف القرضاوي (ص 182).

⁵ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (2 / 72).

⁶ — نقول شخصية.

ولذلك ذيل خاتمة بحثه القيم (لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية) بتوقيع كل من الشيخين عبد الحميد طهماز ومحمد علي مراد، حيث عرض عليهم ما كتبه في هذا الشأن فوافقاه على ذلك.

وكان إذا سئل عن غير المذهب الحنفي في كثير من الأحيان يميل الفتوى إلى علماء المذاهب الأخرى، ويقول: (أهل مكة أدري بشعابها).

كما كان يستأنس برأي العلماء والخبراء في التخصصات العلمية، ويستدل بأقوالهم في تقرير مسائل الفقه، وهو أسلوب جيد، وطريقة حسنة، وذلك لتدعيم الأحكام الفقهية بالحقائق العلمية والاستفادة من التطورات العلمية والمزاوجة بين العلم والدين، ولتقرأ له في جوابه عن سؤال وُجِّه له عن الفرق بين العرق والبول، وكلاهما من مصدر واحد — أي من الدم — فقال — رحمه الله تعالى — (العرق والبول كلاهما ينبعث من الدم ومادتهما واحدة، لكن البول يزيد على العرق في القذارة من حيث فيه خميرة الأمنيوم وهي سامة، نجسة، تؤثر في البول بنجاسة والعرق خال منها ولعل سر حِكْم الله تعالى في التفرقة بينهما تطهيراً للعرق وتنجيساً للبول، وقد أفادني هذه الفائدة الطبيب المسلم الحاج منير الأسود الشهير في طبه وعلمه)¹.

وعندما سئل عن حكم الإسلام في التدخين شرع في ذكر الأدلة القرآنية والحديثية، وأقوال علماء الفقه ثم أيد ما ذهب إليه بالحقائق الطبية مستشهداً بكلام أحد المتخصصين في هذا الميدان وهو الأستاذ (هارلد شراياك)، فذكر الأضرار الصحية المترتبة عن شرب الدخان².

كما كان ينصح الشباب بذلك، ويأمرهم بعرض ما يكتبونه على العلماء والفقهاء، حيث يقول: — وهو ينصح بعض الكتاب الشباب — (وليتهم يعرضون كتاباتهم على علماء الشريعة قبل نشرها، وليس في هذا غضاضة عليهم ولا عار يلحقهم فإن القدم في الإسلام وفي العلم لهما أثرهما الصحيح في المعرفة)³.

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 29).

² — نفس المصدر (1 / 648 وما بعدها).

³ — نفس المصدر (2 / 73).

كتب أحدهم مقالا¹ حول جواز مصافحة الرجل الأجنبي المرأة، فرد عليه الشيخ — رحمه الله تعالى — ردًا علمياً، مبنياً على النصوص الشرعية، وأقوال العلماء المعتبرة، ثم وجه إلى الكاتب نصيحة ثمينة يقول فيها: (وقد كان من الحسن جداً أن يعرض ما كتبه، قبل نشره، على فقهاء الأمة وعلمائها ليقروا فيه ما هو صواب ويحذفوا منه ما هو خطأ، إن هذا الأبرأ للذمة، والأحوط للدين، والأكثر تحصيلاً لصالح العمل، وهو الأشد درأً للفتنة عن القلوب)².

إن طرح القضايا العلمية والفقهية على العلماء والمتخصصين في الميادين العلمية والفقهية، للمداولة والنقاش والتشاور، وخصوصاً في القضايا المعقدة ذات الطابع العام، يجعل الاجتهادات الفقهية، والفتاوى أكثر تميزاً مما لو كانت صادرة عن عالم بمفرده، بحيث تكون (أكثر استيعاباً وإماماً بالموضوع المطروح، وأكثر شمولاً في الفهم لكل جوانب وملازمات القضية، كما أن عمق النقاش فيه ودقة التمحيص للآراء والحجج يجعل الاستنباط للحكم أكثر دقة وأكثر إصابة)³.

المطلب التاسع: الأمانة العلمية والدقة في النقل

نسبة الأقوال إلى أصحابها مبدأ تمليه تعاليم الدين قبل الأمانة العلمية، فهي التي حفظت لنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وتراث الأمة الزاخر، وكما يقول الدكتور سعيد اسماعيل صيني: (خير للباحث أن يخطئ بنسبة فكرة أو قول جميل، أثار إعجابه إلى غيره من أن يخطئ فينسبه إلى نفسه)⁴.

والأمانة العلمية تقتضي من الباحث العمل على العناية بتوثيق النصوص بالإسناد ونسبتها إلى أصحابها، مع التثبت والدقة في النقل، وذكر الآراء المخالفة في القضية الواحدة، ذلك أن الاستدلال بأي نص أو قول يتوقف على أن يعرف ثبوت ذلك عن قائله، مع الدقة في النقل عنه.

¹ — لم ترد الإشارة من قبل الشيخ إلى كاتب المقال.

² — حكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية لمحمد الحامد (ص 3).

³ — الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي لمحمد عبد المجيد السوسوه الشرفي (ص 79).

⁴ — قواعد أساسية في البحث العلمي لسعيد اسماعيل صيني (ص 512).

(وتظهر أهمية التحري في نقل أقوال الأئمة ومدى صحة نسبتها لهم جلية عند من أدرك مدى خطورة نسبة القول لغير صاحبه أو إشاعة القول الضعيف عنه، والعلماء ومن سلك سبيلهم هم الذين على علم ودراية تامة بمدى أهمية ذلك، كيف لا وهم أهل العلم خاصته)¹.

يقول بكر أبو زيد: (ومن نظر في أيّ من كتب أهل الإسلام رأى معاناة الدقة في ذلك حتى بلغ بعضهم أنه إذا نقل النص وفيه تصحيف أو تحريف نقله بذلك ثم نوه عنه " كذا وجدته وهو تصحيف مثلاً، صوابه)².

كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — يعلم علم اليقين (مسئولية الكلمة) ومدى ثقل الأمانة في نقلها، فكان أميناً في النقل، دقيقاً في التوثيق شديد الخشية من تحريف القول أو تأويله أو نسبته إلى غير قائله، وكان من فرط أمانته العلمية أنه يعرض — في معرض فتاويه — لأقوال المذاهب الأخرى بالرغم من مخالفتها لمذهبه، وذلك خوفاً من أن يكون من أولئك الذين ينتصرون لمذهبهم تعصبا، بل كان يتبنى غير أقوال المذهب الحنفي إذا رأى فيها الحق وموافقة الدليل.

وكتيرا ما كانت أمانته العلمية ودقته في النقل والتوثيق تدفعه إلى مراجعة المصادر والمراجع والتأكد من مدى صدق نسبة القول إلى قائله³.

يتحدث تلميذه عبد الحميد طهماز عن أمانته ودقته في النقل فيقول: (أما الأمانة العلمية فما رأيت نظيراً لها عند غيره — رحمه الله تعالى — يظهر ذلك في النقول العلمية التي يؤيد بها آراءه ويستشهد بها في مقالاته، فكل نقل علمي لا بد أن يعزوه إلى صاحبه مبينا بدايته ونهايته حريصاً على كل حرف من حروفه، فلا بد قبل كل نقل من ذكر مصدره وصاحبه وبعده لا بد من كلمة (انتهى) أو رمزها (ا هـ). وإذا اضطر إلى التصرف ببعضه تقديماً أو تأخيراً لا بد أن يذكر في نهايته: ا هـ بتصريف قليل، إذا كان قليلاً، وا هـ بتصريف، إذا كان كثيراً، وإذا اختصر بعضه: ا هـ باختصار.

ولما عرضت عليه رحمه الله كتاب (إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس)، أخذ عليّ قلة عزو المقولات إلى أصحابها، فقد كنت أعزوها جملة في أول البحث وآخره لأن عامة الناس غير

¹ — انظر منهج ابن تيمية في الفقه لسعود العتيشان (ص 335).

² — فقه النوازل لبكر أبو زيد (2 / 128).

³ — ويظهر هذا واضحا في ردوده عامة انظر ردود علي أباطيل (1 / 102).

معتادين على ذلك في هذا العصر، واضطرتني رحمه الله إلى عزو كل نقل إلى صاحبه وبيان مصدره مهما تكرر اسم الكتاب والكاتب. وكان يقول: الأمانة العلمية تقتضي هذا.

وتظهر أمانته العلمية أيضا في عرضه لمختلف الآراء في القضية الواحدة ثم يختار بعد ذلك الرأي المؤيد بالدليل والبرهان)¹.

في كتابه (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام)، وخلال رده ومناقشته لأفكار صاحب الكتاب — الدكتور مصطفى السباعي — كان في كل مرة، أثناء إيراده لأقوال السباعي، يشير إلى رقم الصفحة، مع ذكر عبارة الكاتب نفسها دون تعديل ولا تغيير، والإشارة إلى أقوال مختلف المذاهب، فمثلا عندما ناقش قضية حكم الأرض التي أسلم عليها أهلها، فإنه أبت عليه أمانته العلمية أن يكتفي بذكر رأي المذهب الحنفي فقال: (من الأمانة العلمية — لئلا يقال حنفي انتصر لمذهبه — أن أقول: إن هذه النقول من كتاب الخراج² إنما تقوم على أصل المذهب الحنفي الذي يرى أن الأرض ملك لأربابها الأصليين أقرهم فيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — حين فتحت في عهده، على خراج يؤدونه. أما الأئمة الآخرون فقد ذهبوا غير هذا المذهب)³.

ثم أخذ في سرد بقية آراء المذاهب الأخرى المالكية والشافعية والحنابلة.

وهونفس المنهج الذي التزمه في بحثه (التدارك المعتبر لبعض ما في كتاب القضاء والقدر) عندما رد على صاحب كتاب (القضاء والقدر)، للشيخ عبد الغني حمادة، حيث عزا كل قول لصاحبه، مع ذكر رقم الصفحة، وذكر مقتطفات من كلام المؤلف دون تصرف، للرد والتعقيب عليها. ويحسن في هذا المقام أن نذكر مقطعا واحدا من بحثه السابق ذكره كمثال تطبيقي، وعملي على أمانته العلمية رحمه الله تعالى، حيث ذكر مؤلف (كتاب القضاء والقدر) أن الله — سبحانه وتعالى — أطلع نبيه — صلى الله عليه وسلم — على الغيب⁴ وأعطاه — تحديدا — علم مفاتيح

¹ — مقال بعنوان الخطوط الرئيسية للمنهج العلمي عند شيخنا الحامد — رحمه الله تعالى — بمجلة حضارة الإسلام العدد الثالث من اسنة العاشرة لعبد الحميد طهماز (ص 30).

² — كتاب الخراج لأبي يوسف صاحب أبي حنيفة — رحمهما الله تعالى — هو القاضي الإمام المجتهد العلامة قاضي القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حبش بن سعد بن بحر بن معاوية الأنصاري، ولد سنة 113 هـ بالكوفة، وكتب العلم عن طائفة من التابعين، مات سنة 182 هـ. سير أعلام النبلاء للذهبي (8 / 535 وما بعدها).

³ — نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام لحمد الحامد (ص 64).

⁴ — ردود على أباطيل محمد الحامد (2 / 94).

الغيب الخمسة¹، فرد عليه بأن وقت قيام الساعة مما استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا²، ثم ذكر النصوص القرآنية والحديثية الدالة على ذلك، وعقب على ذلك بقوله: (هذه القواطع من الأدلة لا نفارقها ما لم يقم دليل على أن الله سبحانه تعالى أطلع رسوله الكريم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على وقتها)³. ثم ختم بحثه بقوله: (وبعد فإن من الأمانة العلمية أن أذكر أن الألووسي في تفسيره لهذه الآية: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)⁴ قال: أنه يجوز أن يطلع الله تعالى بعض أصفیائه على إحدى هذه الخمس ويرزقه الله عز وجل العلم بذلك في الجملة وعلمها الخاص به جل وعلا ما كان على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كل منه وتفصيله على الوجه الأتم)⁵.

وفي أحيان كثيرة كانت أمانته العلمية ودقته المتناهية تدفعه إلى مراجعة المصادر والمراجع التي أحال عليها المصنف أو المؤلف من أجل التأكد من مدى صحة القول ونسبته إلى صاحبه، ونقله عنه من غير تحريف ولا تبديل⁶.

المطلب العاشر: الوقوف على ظواهر النصوص مع الدقة في الفهم والاستنباط.

¹ — الواردة في قول الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) لقمان: 34. وحديث الرسول — صلى الله عليه وسلم — (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يدري أحد متى يجيء المطر إلا الله)، أخرجه أحمد في مسنده، (1 / 445) حديث رقم (4253) والطيالسي في مسنده (ص 51) حديث رقم (385).

² — ردود على أباطيل محمد الحامد (2 / 95).

³ — نفس المصدر (2 / 98).

⁴ — لقمان: 34.

⁵ — ردود على أباطيل للحامد (2 / 98، 99) وانظر تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألووسي (12 / 112).

⁶ — انظر كتاب ردود على أباطيل (1 / 102).

من المعلوم أن اللغة — كظاهرة اجتماعية — تحمل عددا كبيرا من الدلالات والمعاني،
أوهي بتعبير آخر (حَمَّالة أوجه). بمعنى أن ألفاظها تحمل أكثر من وجه. وكثيرا ما تؤثر الخلفيات
الثقافية والفكرية والاجتماعية في تحديد المعنى، فتنحرف اللغة عن المعنى الموضوع لها، (ولونظرنا في
كتب التفسير لوقفنا على مئات الأقوال التي تشير إلى تعسف أصحابها وخروجهم عن الموضوعية
في تفسير النص القرآني، والذهاب به بعيدا عن أسباب نزوله وعن أوضاع المخاطبين به، وعن
النصوص الأخرى التي تتحدث عن الموضوع نفسه)¹. وهو ما يعبر عنه بالتأويل المذموم، كما فعل
أصحاب التفسير الإشاري، وغيرهم من الفرق المنحرفة، وبعض المتعصبين — تعصبا أعمى —
للمذاهب .

والمقصود (بالوقوف على ظاهر النص) هو وجود الانسجام والتناغم بين الألفاظ
المستخدمة ومعانيها، وعدم التقعر والتنطع والخروج عن المعنى الموضوع للفظ، مع الرجوع إلى فهم
الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصحابته الذين كانوا أحسن الناس فهما، وأعمقهم إيمانا.

وقد خاض الشيخ — رحمه الله تعالى — معركة حامية الوطيس للذود عن حياض الشريعة
ضد من زعموا أن النصوص الشرعية غير مرادة الظاهر، وإنما هي مصروفة إلى أمور أخرى باطنية
هي المرادة² في حين أن الأصل أن تحمل النصوص على ظواهرها ما لم يصرف عنها دليل قطعي،
أوحجة دامغة ويؤكد هذه الحقيقة في كتابه (ردود) فيقول: (وليكن على بال كل مؤمن أن
النصوص الدينية، من كتاب وسنة، تحمل على الحقيقة دون المجاز إلا أن تقوم الصوارف القاطعة
عنها إليها، أما مادامت الحقيقة ممكنة في ذاتها فإن المصير إليها متعين، واستبعاد بعض القلوب إياها
لا يبعدها عن الواقع، وهذا هو الذي التزمه أهل الحق ودرجوا عليه من العصور الأولى النورية إلى
هذا العصر الذي حفل بأنواع من صرف النصوص عن حقائقها. وما ضل من ضل من الباطنية
وأضراهم إلا بتحويل النصوص إلى معان لا صلة لها بها وإلغاء المرادات القطعية منها فكان الزيغ
وكان الضلال)³.

¹ — فصول في التفكير الموضوعي لعبد الكريم بكار (ص 261).

² — ردود على أباطيل للحامد (1 / 312).

³ — نفس المصدر (1 / 311).

ولذلك اعتبر تفسير الباطنيين لقوله تعالى: (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)¹ هو (خروج عن الشريعة ومروق كامل منها، فاليقين مراد به الموت الذي لا بد لكل روح من ذوقه... فالآية الكريمة تفرض التزام الأمر والنهي حتى يتزل الموت بالمرء، وينتقل من هذه الحياة إلى الآخرة بالمصير إلى أول برازحها)².

ويزيد هذه القضية توضيحا فيقول: (فالحقيقة الشرعية لا تترك إلى المجاز إلا لصارف يقيني قطعي يضطر الناظر فيها إلى التأويل، وما لم يوجد هذا الصارف فالحقيقة هي المعتمدة وهي المأخوذ بها في الفهم ولا يصح العدول عنها وإلا بطلت المعاني الشرعية الحقيقية بالمجازات وهذا معناه إلغاء النصوص بالجملة)³.

ولذلك رفض الشيخ — رحمه الله تعالى — وبشدة، بعض التأويلات المنحرفة لنصوص قطعية الدلالة والثبوت ومن ذلك أنه رد على من أول (الدابة) في قوله تعالى: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ)⁴ بالصواريخ والأقمار موضحاً (أن الدابة في لغة العرب هي: الحيوان الذي يدب على قوائمه، وهذا الاصطلاح العرفي الحقيقي تضمنحل أمامه التأويلات الأخرى)⁵ ودعا إلى عدم إدخال الآيات في مضايق من الفهم في حين أنها بروحها تنبو عنها⁶.

كذلك رد على من زعم أن (المسيح الدجال) هو الحضارة الآلية العصرية لمخالفة ذلك لظاهر النصوص الحديثية، فقام بسرد الأحاديث الواردة في (الدجال) ثم قال في ختام رده: (وبعد فنحن معشر المؤمنين لا يسعنا إلا التسليم للوارد عن نبينا عليه وآله أفضل الصلاة والسلام، والأمر كما يرى القراء، غيب لا مجال فيه للاجتهاد أو استعمال رأي وأن محاولة تنزيل الأخبار الصحيحة في الدجال، على الحضارة الآلية، محاولة للمحال بل هو ضرب من الاحتيال على رد النصوص)⁷.

¹ — الحجر: 99.

² — ردود على أباطيل للحامد (1 / 311، 312).

³ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (1 / 145، 146).

⁴ — النمل: 82.

⁵ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (1 / 146).

⁶ — نفس المصدر (1 / 149).

⁷ — نفس المصدر (1 / 365).

فالواجب الديني قاض بوجوب إبقاء النصوص في أماكنها الشرعية دون أن ننأى بها عنها إلى مسالك بعيدة تأبى مبانيها ومعانيها ذلك، واستقطاع النص من سياقه يتنافى والمسلك العلمي في شرحه والاستشهاد به.

وليس يعني ذلك — أي من التزام الشيخ بظواهر النصوص — أنه (ظاهري المذهب) على طريقة ابن حزم² — رحمه الله تعالى — فقد رد على هذا المذهب وعلى حامل لوائه ابن حزم، في مواضع كثيرة من كتبه، يقول في كتابه (ردود على أباطيل): (ومن الحزم أن لا يقلد بن حزم. وسر هذا أن له مفارقات لجماهير العلماء واسعة وشواذ لم ينح فيها نحو الصواب .. حتى لقد قال القائلون: سيف الحجاج بن يوسف ولسان ابن حزم توأمان — ثم يقول، ناقدا لجمود المذهب الظاهري على ظاهر النصوص، ونفيه القياس — (على أنه من جماعة الظاهرية الذين ينفون القياس ويقفون في فهم النصوص عند ظاهرها دون غوص على مكامن الحجة فيها، ولا فحص عن العلل التي هي مناط الأحكام في الحوادث ليقاس عليها غيرها فيكون الفقه مثمرا والتشريع مستمرا فإن نصوص الأحكام من آيات وأحاديث متناهية، والحوادث تتجدد كل حين)³.

كما كان — كذلك — يتعمق في فهم النصوص وسبر أغوارها والاستنباط منها، ولا يتعجل في إصدار الحكم قبل أن يدرس الأمر دراسة دقيقة وعميقة، ولذلك نصح بعض السطحيين في فهم النصوص قائلا: (وأتمنى للمسلمين ألا يسارعوا إلى الجمع بين نصوص الدين والنظريات العلمية قبل استقرارها وزوال تأرجحها، وقبل أن يدرسوا النصوص دراسة دقيقة على وجه شرعي لئلا يحملوها على ما تنبوعه ولا تلتئم معه)⁴.

وله لطائف دقيقة ونظرات عميقة في فهم النصوص، ماثورة في مواضع متفرقة من كتبه، يصعب حصرها جميعا، وذكرها في هذا المقام، غير أنني أكتفي بذكر مثال واحد تصديقا لما

¹ — كذلك له ردود أخرى كثيرة على هذا النوع من التفسير الباطني في مواضع مختلفة من كتبه. انظر: ردود على أباطيل (1) / 204، 226، 227، 279، 485، 486، 487.

² — أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد بقرطبة سنة 384 هـ، نشأ في تنعم ورفاهية، ورزق ذكاء مفردا وذهنا سيالا، وكتبها نفيسة كثيرة، رأس في علوم الإسلام متبحر في النقل عدم النظر على ييس فيه وفرط ظاهري في الفروع لا الأصول، كان سليط اللسان على الأئمة، فأحرقت كتبه، له مؤلفات كثيرة أشهرها المحلى في الفقه الظاهري. توفي سنة 456 هـ. سير أعلام النبلاء للذهبي (18) / 184.

³ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (1 / 183).

⁴ — نفس المصدر (1 / 206).

ذكرت، يعني عن سرد كل لطائفه، ففي رده على أحد الكتّاب، الذين زعموا أن سد يأجوج ومأجوج الذي ورد ذكره في سورة الكهف¹ وسورة الأنبياء موجود في مكان بين (قالدي قوقاز) و(تفليس) — في جورجيا —، وأن الروايات الأرمينية تذكر لنا أنه يوجد جدار يطلق عليه الباب الحديدي لأنه يوجد فيه الألواح الحديدية — حيث رد عليه بقوله: (ومما يوضح لنا قيام السد حتى خروجهم قرب الساعة قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ)² والفتح منسوب إلى يأجوج ومأجوج مجازاً والمفتوح في الحقيقة السد، أو أن المضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه أي حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج. ولا يشكل على هذا ما في الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم من قوله الكريم (ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها..)³، أقول لا يشكل عليه لأنه ليس فيه سوى الإخبار بانفتاح هذا القدر اليسير منه وهو يؤذن باقتراب الشر، أما اندكاكه وخروجهن⁴، فمواعده آخر الزمان حين يتزل عيسى عليه السلام)⁵.

فانظر إلى عمق فهمه للنصوص، ودقة استنباطاته اللغوية، وله من مثل هذه اللطائف الشيء الكثير، غير أنها مبثوثة في أماكن مختلفة من كتبه، وهي تدل على عمق نظره، ودقة فهمه — رحمه الله تعالى.

الفصل الثاني: فتواه في لزوم اتباع مذاهب الأئمة

تمهيد:

¹ — الآيات: 96، 97، 98.

² — الأنبياء: 97.

³ — أخرجه البخاري في الصحيح، باب قصة يأجوج ومأجوج، (3 / 1220) رقم الحديث (3168). ورواه مسلم في الصحيح، كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (4 / 2207) حديث رقم (2880).

⁴ — هكذا في الأصل، والأصح: خروجهم ولعلها خطأ مطبعي.

⁵ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 460، 461).

أصدر الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — فتوى بعنوان (لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية) وضح فيها موقفه من الاجتهاد والتقليد، واتباع مذاهب الأئمة المعترين، أو ما يعبر عنه (بالتمذهب).

والبحث — على ما ينطوي عليه من أهمية علمية وعملية — لم يكن في عرضه شاملاً لكل ما يتصل بموضوع التمذهب، فمثلاً: لم يتطرق إلى ذكر الأدلة النقلية على وجوب التمذهب بمذهب إمام من الأئمة المتبوعين! وهل التقليد منحصر في الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعة أم يجوز تقليد غيرهم؟ وهل يجوز للتمزم المذهب مخالفة إمامه جزئياً أم لا؟ كما أنه لم يعمق البحث والاستدلال في قضية (غلق باب الاجتهاد) و(قضية التقليد وحدوده).

ولا يخفى على أحد من الناس — اليوم — مدى أهمية عرض هذه القضية تحت مجهر البحث العلمي في ظل واقع متغير لا يستقر على حال، فمع بزوغ كل فجر جديد تظهر قضايا وتحديات جديدة، وقد أصاب الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز¹ — رضي الله عنه — كبد الصواب عندما قال: (تحدث للناس أفضية بقدر ما أحدثوا من فجور)².

فلاجتهاد روح التشريع وحياته، ولا بقاء لشرع بدون اجتهاد ذا فاعلية وحركة، بل أي دور فاعل لفقته جامد، عاجز عن مواكبة تطورات الحياة، ومسايرة تغيرات العصر؟ وبناء على هذه الأهمية العظمى لموضوع الاجتهاد — باعتباره ركناً عظيماً في الشريعة الإسلامية³ — فإنه تم إفراده بفصل مستقل.

وستدور محاور هذا الفصل على مبحثين أساسيين هما:

— المبحث الأول: قضية غلق باب الاجتهاد.

— المبحث الثاني: المذهبية والتعصب المذهبي.

¹ — عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، أمير المؤمنين أبو حفص الخليفة الزاهد ولد بالمدينة زمن يزيد سنة (63 هـ) ،

كان إماماً فقيهاً مجتهداً ورعاً، توفي سنة (101 هـ). سير أعلام النبلاء للذهبي (5 / 105)

² — شرح الزرقاني (4 / 44).

³ — قال الغزالي في المنحول (ص 462): (الاجتهاد ركن عظيم في الشريعة، لا ينكره منكر، وعليه عول الصحابة، بعد أن استأثر برسوله ﷺ واتباعهم عليه التابعون إلى زماننا هذا ولا يستقل به أحد، ولكن لا بد من أوصاف وشروط).

مع الإشارة في كل مبحث إلى موقف الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — من كل قضية.

* * *

المبحث الأول: غلق باب الاجتهاد

المطلب الأول: تعريف الاجتهاد

الفقرة الأولى: تعريف الاجتهاد لغة واصطلاحاً

— الاجتهاد في اللغة: مأخوذ من الجهد (وهو المشقة) والجهد (وهو الطاقة) ¹.

وصيغة (الافتعال) تدل على المبالغة في الفعل ولهذا كانت صيغة (اكتسب) أدل على المبالغة من صيغة (كسب).²

فالاجتهاد في اللغة إذن: بذل الجهد واستفراغ الوسع في تحصيل أمر من الأمور التي تستلزم كلفة ومشقة، ولا يستعمل في ما ليس كذلك، فيقال: اجتهد في حمل حجر الرحى ولا يقال اجتهد في حمل حصا.³

وأما في اصطلاح الأصوليين فهو ما قاله الإمام الشوكاني: (بذل الوسع في نيل حكم شرعي عملي بطريق الاستنباط).⁴

ويشرح الإمام الشوكاني هذا التعريف فيقول:

" بذل الوسع ": يخرج ما يحصل مع التقصير فإن معنى بذل الوسع: أن يحس من نفسه العجز عن مزيد طلب.

ويخرج " بالشرعي " اللغوي والعقلي والحسي فلا يسمى من بذل وسعه في تحصيلها مجتهداً اصطلاحاً وكذلك بذل الوسع في تحصيل الحكم العملي، فإنه لا يسمى اجتهداً عند الفقهاء.

ويخرج " بطريق الاستنباط " نيل الأحكام من النصوص ظاهراً، أو حفظ المسائل، أو استعلامها من المفتي، أو بالكشف عنها في كتب العلم، فإن ذلك وإن كان يصدق عليه الاجتهاد اللغوي فإنه لا يصدق عليه الاجتهاد الاصطلاحي).⁵

¹ — لسان العرب لابن منظور (3 / 133)

² — الاجتهاد للقرضاوي (ص 11).

³ — المستصفى للغزالي (2 / 350)

⁴ — إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 205)

⁵ — إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 205)

يعتبر الاجتهاد أصلاً من أصول الشريعة الإسلامية¹ ومن أهم مباحث أصول الفقه، فهو الجانب العملي والممارسة التطبيقية له، من حيث تنزيل الحكم على الواقعة محل الاجتهاد والنظر، وقد دل على مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع وعده الفقهاء من فروض الكفاية كالشوكاني² والنووي وابن الصلاح³.

كان الاجتهاد منهجاً متبعاً لدى الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين — رضي الله عنهم — إلى حدود القرن الرابع الهجري عندما انقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات وممالك فكان من جراء ذلك ضعف الاستقلال الفكري وجمود النشاط العلمي.

الفقرة الثانية: موقف الشيخ محمد الحامد من الاجتهاد

يعرّف الشيخ — رحمه الله تعالى — الاجتهاد فيقول: (هو بذل الجهود لنيل المقصود بعد توفر الأهلية وإلا كان عبثاً ضائعاً لا يفضي إلى نتيجة)⁴.

ويرى أن الاجتهاد يطلق على معنيين هما:

- 1 — الاستدلال بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة في الحوادث على أحكامها تفصيلاً وقد تختلف الأنظار في الأدلة الشرعية فتختلف الأحكام لدى الأئمة تبعاً لذلك.
- 2 — ويطلق الاجتهاد أيضاً على استنباط قواعد عامة من الكتاب والسنة وتنطبق على العديد من المسائل والنوازل. والأحكام المأخوذة من مصادرها بهذه الوجوه ثابتة وقائمة ودائمة مهما تعاقبت الأيام وتبدلت الأزمان⁵.

نعم هناك أعراف للناس وعادات لا تصطدم بالأصول الشرعية المقررة، تبنى عليها أحكام شرعية... وقد تختلف الأعراف باختلاف الأزمنة والأمكنة فتختلف الأحكام أيضاً تبعاً لها.

¹ — أصول الفقه الإسلامي للزحيلي (2 / 1039).

² — هو الإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح، عرف بالشوكاني، وهي نسبة إلى قرى السحامية في اليمن تسمى شوكان، ولد (1173 هـ)، من مؤلفاته: (نيل الأوطار في شرح التنقي من الأخبار) (فتح القدير في علم التفسير) وكتب أخرى توفي سنة (1250 هـ). الأعلام للزركلي (6 / 298).

³ — عثمان بن صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان، الموصلي الشافعي، أبو عمرو، الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام، تقي الدين، ولد سنة (577 هـ) وتوفي سنة (643 هـ) كان أحد فضلاء في التفسير، والحديث والفقه، وأسماء الرجال، من آثاره (علوم الحديث) المعروف بمقدمة بن الصلاح. سير أعلام النبلاء للذهبي (23 / 140).

⁴ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (1 / 188).

⁵ — لزوم اتباع مذاهب الأئمة لمحمد الحامد (ص 28).

هذا النوع من الأحكام هو وحده الذي يعتريه التبدل ويحكمه التحول فقط لا ما كان مستندا إلى الكتاب أو السنة أو إلى ما تفرع عنهما من إجماع قطعي أو قياس صحيح ليس في مقابلته قياس أدق منه وأقوى، ولا يعارضه أيضا نص من كتاب أو سنة..

ويتصل بهذا البحث القول بمرونة الإسلام وسعة أفقه ومسائرته للتطورات، واحتماله لكل صالح يعود إلى الأفراد والجماعات بالنفع الكامل والخير العام¹.

فالاتجاه على هذا الأساس باق إلى يوم القيامة لا يقيد زمان ولا يحده مكان يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: (معنى أنه ليس مخصوصا بوقت معين دون وقت ولا مكان دون مكان لأن مبناه توافر شروطه في الشخص، وهذا ممكن في كل عصر)².

وليس يحق لكل من زعم أنه مجتهد أن يلج باب الاجتهاد، ويبدل بأحكام الشريعة الإسلامية في القضايا الكبيرة، وإنما ينبغي أن تتوفر فيه مجموعة من الشروط ذكرها الأصوليون في كتب الأصول.

فالمجتهد كما يراه الشيخ — رحمه الله — (هو من يحوي علم الكتاب الكريم ووجوه معانيه، وعلم السنة بطرقها ومتونها ووجوه معانيها ويكون مصيبا في القياس عالما بعرف الناس)³.

ويعلق على هذا التعريف فيقول: (هذا هو تعريف المجتهد العلمي، وهو قليل في العلماء الدينيين على كثرتهم وتتابعهم منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا ولودهبنا نستقرئ عدد المجتهدين لوجدناهم قلة إذ ليس في وسع كل عالم تسنم هذه الذروة وارتقاء هذا المنصب، وقوامه النبوغ العظيم والعبقرية الفذة والأهلية النادرة التي يجدر بالناس أن يعترفوا لصاحبها بحق التقدم والإمامة في الإسلام واستنباط أحكامه من منابعها الأصلية)⁴.

ويقول أيضا: (الأمة الإسلامية على وفرة عددها، لم ينبغ منها نبوغ الاجتهاد إلا عدد قليل لصعوبة ارتقاء درجه، وبلوغ الغاية فيه)⁵.

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 142، 143).

² — أصول الفقه لعبد الكريم زيدان (ص 407).

³ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 188)، نقلا عن المرجاني في التعريفات (ص 360).

⁴ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 188).

⁵ — لزوم اتباع مذاهب الأئمة محمد الحامد (ص 11).

ومن شروط المجتهد — كما ذكرها الشيخ — (أن يكون في العلم بالعربية كالعرب أنفسهم، عارفاً بالكتاب والسنة.. والناسخ والمنسوخ.. ومواقع الإجماع، ومعرفة القواعد الأصولية للكتاب الكريم والسنة الشريفة..)

وأن يكون في هذا معروفاً بتلقي العلم عن أهله ومشهوداً له بالتحقيق الدقيق، وغير مطعون عليه في علم أو عمل أو اعتقاد، بل يكون عدلاً، فاضلاً، كاملاً، قادراً على الغوص في لجج العلم وأعماقه ومكامن الحجج، وله قوة المعرفة بعلم الأحكام والاستنباط منها النصيب الأوفى، والحظ الأوفر، ليقدر على قياس ما لا نص فيه على ما فيه نص قياساً صحيحاً غير منخدر¹.

وبناء على هذه النقول من كلام الشيخ — رحمه الله تعالى — يتبين لنا أن الاجتهاد أمر ضروري وواجب شرعي لا غنى عنه لمن كان أهلاً له، وذلك بأن قامت فيه ملكة الاجتهاد وهيأت له أسبابه ووسائله.

* * *

المطلب الثاني: المقصود بغلق باب الاجتهاد

تمهيد:

كانت بداية قصة غلق باب الاجتهاد على يد الإمام الحافظ العلامة ابن الصلاح الشافعي في سنة (643 هـ) وذلك بعد أن تم الانتهاء من صياغة فقه المذاهب الأربعة، ونشرها في ربوع العالم الإسلامي، والدعوة إلى الالتزام بها، وعدم جواز الخروج عنها، بل والتعصب لها، حيث اعتبر كل مخالف للمذاهب الأربعة، منازع للدين مفارق للجماعة، يقول الصاوي — رحمه الله تعالى —

¹ — نفس المصدر (10، 11).

في حاشيته على تفسير الجلالين: (ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة، ضال مضل)¹.

والحق أن انقسام الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري إلى دويلات وممالك، وتفرقتها شيئا ومذاهب وطرائق قدادا، أصاب الأمة بالوهن والضعف، ووقع بعض العلماء في حمأة التعصب المذهبي، وعكفوا على تدوين المذاهب واختصار الكتب، فرأى بعض العلماء من باب السياسة الشرعية التي — عادة — ما تعالج شأنا خاصا، غلق باب الاجتهاد لتنظيم الفوضى الاجتهادية القائمة — وقتذاك — بسبب ادعاء غير الأكفاء الاجتهاد، يقول الدكتور وهبة الزحيلي: (خاف بعض العلماء من ضعف الوازع الديني الذي قد يؤدي إلى هدم صرح الفقه الذي بناه الأئمة السابقون فتنادوا بالتزام المذاهب المتقدمة ودعوا إلى سد باب الاجتهاد منعا من ولوج أناس فيه ليسوا أهلا للاجتهاد والاستنباط)².

أدى " الإفتاء " بغلق باب الاجتهاد إلى المزيد من التعصب المذهبي، والجمود على الاجتهادات القديمة، فليس — كما يقال — بالإمكان أبدع مما كان، كما انعدمت الثقة بالنفس وكثر الجدل والمناظرة والتحاسد بين بعض العلماء، وبعض أتباع المذاهب، وتكتل كل قوم على ما نشؤوا عليه من مذهب، وأصبح الفقه أقوالا جامدة يتناقلها بعض متبعوالمذاهب مجردة من الدليل .

فهل — فعلا — أقفل باب الاجتهاد ؟

* * *

الفقرة الأولى: هل أغلق باب الاجتهاد ؟

بيننا سابقا أن الحاجة للاجتهاد لا تتقيد بزمان ولا مكان، وأنه ضروري لكل عصر، وأنه أمر ممكن إذا توافرت شروطه في المجتهد، وعدّ بعض العلماء — ومنهم الإمام الشوكاني — دعوى

¹ — حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (3 / 10) وانظر للرد عليه (أضواء البيان) للشنقيطي (7 / 438) نقلا عن مجلة الجندي المسلم العدد (103) بتاريخ (1 / 5 / 2001).

² — أصول الفقه لوهبة الزحيلي (2 / 1085).

سد باب الاجتهاد (رفع للشريعة بأسرها ونسخ للدين)¹ وأنها كما يقول الدكتور وهبة الزحيلي (دعوى فارغة وحجة واهية أو هن من بيت العنكبوت لأنها غير مستندة إلى دليل شرعي أو عقلي سوى التورث)².

وقبل الإجابة على هذا السؤال حول جواز غلق باب الاجتهاد من عدمه ينبغي التفريق بين (المجتهد المطلق المستقل) و(المجتهد غير المستقل أو المنتسب).

— **المجتهد المطلق المستقل:** هو الذي استقل بقواعد لنفسه يبني عليها الفقه خارجاً عن قواعد المذهب المقرر.³

ويدخل في هذه المرتبة كل فقهاء الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب المتبوعة الأربعة، ومن في منزلتهم مثل الأئمة: زيد بن علي⁴، وجعفر الصادق⁵، والثوري، والأوزاعي⁶، والليث بن سعد⁷، والطبري⁸، وداود الظاهري⁹، وغيرهم.

وهذا النوع من الاجتهاد لم يعد موجوداً الآن، كما يقول السيوطي: (وهذا شيء فقد من دهر، بل لو أراد الإنسان اليوم لامتنع عليه)¹⁰.

1 — إرشاد الفحول للشوكاني (ص 423، 424).

2 — أصول الفقه للزحيلي (2 / 1085)، نقلاً عن عمدة التحقيق في التقليد لمحمد سعيد الباني (ص 62).

3 — نفس المصدر (2 / 1079).

4 — زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبوالحسين الهاشمي العلوي المدني، ولد سنة (79 هـ) فقيه عالم، حفظ عن الباقر سبعين ألف حديث، قتل في الحرم سنة (122 هـ). سير أعلام النبلاء (5 / 255) — الأعلام (3 / 98، 99).

5 — جعفر بن محمد بن علي بن الشهيد أبي عبد الله، ريجانة النبي — صلى الله عليه وسلم — وسيطه ومحجبه الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الإمام الصادق، وكان يغضب من الرافضة، ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجدده أبي بكر، ولد سنة (80 هـ) وتوفي سنة (148 هـ). سير أعلام النبلاء (6 / 255).

6 — عبد الرحمن بن عمرو بن محمد، شيخ الإسلام، عالم أهل الشام، أبو عمرو والأوزاعي، كان يسكن محلة الأوزاع بدمشق، ولد في بعلبك في حياة الصحابة توفي سنة (157 هـ). سير أعلام النبلاء (7 / 107).

7 — الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، أبو الحارث المصري، ثقة، ثبت، فقيه، إمام مشهور، مات في شعبان سنة (175 هـ). تقريب التهذيب (2 / 493).

8 — محمد بن جرير، من أهل أمل طبرستان، ولد سنة (224 هـ)، فقيه، محدث، أصولي توفي سنة (310 هـ) في بغداد، من آثاره (اختلاف العلماء) (تاريخ الأمم والملوك) (تهذيب الآثار). سير أعلام النبلاء (18 / 184).

9 — داود بن علي بن خلف، الإمام البحر، الحافظ العلامة، علم الوقت أبو سليمان البغدادي، رئيس أهل الظاهر، ولد سنة (200 هـ) وتوفي سنة (270 هـ) من آثاره (الإيضاح) (الإفصاح) (الأصول) وغيرها كثير. سير أعلام النبلاء (13 / 97).

10 — أصول الفقه لو هبة الزحيلي (2 / 1079).

يقول د. وهبة الزحيلي: (غير أنه لا ينكر أن الاجتهاد المستقل بإيجاد أصول جديدة وقواعد خاصة للاستنباط، لا مجال له اليوم، فقد هدى الباحثون المجتهدون إلى مواطن الحق والكمال فيها، فما علينا إلا الاهتداء بهديهم، واستعمال أمضى سلاح عرفوه للولوج إلى مجاهل كل غريب واستشارة كل دفين، كل بعيد)¹.

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه الاجتهاد (ولا شك أن الأصول التي ينسبني عليها استنباط الأحكام قد فرغ منها وليس لأحد أن يزيد عليها)².

فالقول — إذن — بسد باب الاجتهاد يقصد به هذا النوع من الاجتهاد وهو الاجتهاد المطلق المستقل، حيث تم الفراغ من وضع الأصول التي ينسب عليها النظر والاستنباط وصياغتها على نحو لم يبق فيه زيادة لمستزيد.

وقد عمد الفقهاء لغلط باب هذا النوع من الاجتهاد خوفا من التلاعب بالأصول المقررة وتمييعها، والعبث بمقومات الأمة، وخوفا من تسرب البدع والسموم الفكرية وإفساد قواعد الشريعة الإسلامية (فأفتوا بإغلاق باب الاجتهاد ليؤصدوا الباب أمام من ليس أهلا للاجتهاد والنظر، ويقطعوا الطريق على الفرق والمذاهب المنحرفة، ويحموا الأمة من الانقسام الديني)³.

— **المجتهد غير المستقل:** وهو الذي وجدت فيه شروط الاجتهاد المطلق التي اتصف بها المجتهد المستقل، ثم لم يبتكر لنفسه قواعد، بل سلك طريقة إمام من أئمة المذاهب في الاجتهاد فهو مطلق منتسب⁴.

يدخل في هذه المرتبة أصحاب الأئمة الذين وافقوهم على أصولهم، وكان لهم اجتهادهم واستنباطهم في عامة مسائل الفقه فوافقوا وخالفوا، مثل أصحاب أبي حنيفة: أبي يوسف ومحمد⁵ وزفر¹...

¹ — أصول الفقه للزحيلي (2 / 1988 - 1089)

² — الاجتهاد للقرضاوي (ص 91)

³ — الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي لعبد المجيد السوسوره الشرفي (ص 54)

⁴ — أصول الفقه للزحيلي (2 / 1080)

⁵ — هو محمد بن فرقد الشيباني، أبو عبد الله، الحنفي، العلامة، فقيه العراق صاحب أبي حنيفة، ولي القضاء للرشيد بعد أبي يوسف، أصله من قرية حرسته في غوطة دمشق، من آثاره (المبسوط) (الزيادات) وغيرها توفي سنة (189 هـ). سير أعلام النبلاء (12 / 72).

ومثل أصحاب مالك: أشهب² وأصبغ³... ومثل أصحاب الشافعي: المزني⁴ والبويطي⁵...
وأصحاب أحمد: الخلال⁶... وغيرهم⁷.

كما توجد دون هذا النوع من الاجتهاد مراتب أخرى كالمجتهد المقيد أو مجتهد التخريج،
ومجتهد الترجيح، ومجتهد الفتيا.

وقد ذكر الإمام النووي في المجموع أن الاجتهاد المستقل قد فقد من رأس المائة الرابعة ،
وأما الاجتهاد المنتسب فهوباق إلى أن تأتي أشراط الساعة الكبرى ولا يجوز انقطاعه شرعا، لأنه
فرض كفاية ومتى قصر فيه أهل مصر حتى تركوه أثموا كلهم، وعصوا بأسرهم. كما صرح به
الماوردي⁸ والرويانى⁹ والبغوي¹⁰ وغيرهم¹¹.

-
- 1 — الفقيه المجتهد زفر بن هذيل ولد سنة (110 هـ)، أكبر تلامذة أبي حنيفة، وكان ممن جمع بين العلم والعمل، توفي سنة (158 هـ) سير أعلام النبلاء (8 / 41).
 - 2 — هو ابن عبد العزيز القيسي، أبو عمرو، الفقيه المصري، قيل اسمه مسكين، وأشهب لقبه كان صاحب الإمام مالك، ولد سنة (145 هـ) وتوفي سنة (204 هـ). سير أعلام النبلاء (9 / 500).
 - 3 — أصبغ بن خليل فقيه قرطبة ومفتيها، أبو القاسم الأندلسي المالكي، كان ذا تعبد وورع، عاش نحو التسعين توفي سنة (273 هـ). سير أعلام النبلاء (13 / 202).
 - 4 — إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، الإمام العلامة، فقيه الملة، علم الزهاد، تلميذ الإمام الشافعي، ولد سنة (175 هـ) وتوفي سنة (264 هـ) من آثاره (المختصر) في الفقه. سير أعلام النبلاء (12 / 492).
 - 5 — أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي، صاحب الإمام الشافعي، لازمه مدة وفاق أقرانه. مات في قيده مسجوناً بالعراق سنة (231 هـ). سير أعلام النبلاء (12 / 58).
 - 6 — الإمام العلامة الحافظ الفقيه شيخ الحنابلة وعالمهم، أحمد بن محمد بن هارون، أبو بكر البغدادي الخلال، ولد سنة (234 هـ)، صنف كتباً تدل على إمامته وسعة علمه، ولم يكن قبله للإمام أحمد مذهب مستقل، حتى تتبع هو النصوص ودونها، توفي سنة (311 هـ). سير أعلام النبلاء (14 / 297).
 - 7 — الاجتهاد للقرضاوي (ص 76).
 - 8 — علي بن محمد الماوردي، البصري، الشافعي، الإمام العلامة، أفضى القضاة، أبو الحسن، توفي سنة (550 هـ)، من آثاره (الحاوي) و(النكت) و(أدب الدنيا والدين) — سير أعلام النبلاء (18 / 64).
 - 9 — عبد الواحد بن إسماعيل الرويانى، أبو الحسن، الطبري الشافعي القاضي العلامة، فخر الإسلام، شيخ الشافعية، ولد سنة (415 هـ) وتوفي قتيلاً سنة (501 هـ) من آثاره (بحر المذهب) (حلية المؤمن في الفروع). سير أعلام النبلاء (19 / 260).
 - 10 — الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبد الله البغدادي الظفري الحنبلي المتكلم صاحب التصانيف، ولد سنة (431 هـ) توفي سنة (513 هـ). سير أعلام النبلاء (19 / 439). تذكرة الحفظ (4 / 257)
 - 11 — الاجتهاد للقرضاوي (ص 79).

ويؤيد حاجة الأمة لهذا النوع من الاجتهاد قول الشهرستاني¹: (وبالجملة نعلم قطعاً وبقيننا أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم أيضاً أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصور ذلك أيضاً والنصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد)².

ذلك أن الوقائع التي لا نص فيها تقتضي تجديد النظر الاجتهادي لاستنباط أحكام جديدة لوقائع مستحدثة يتم بمقتضاها تحقيق عدل الشريعة وكمالها.

فأحوال المجتمع تتغير بشكل سريع خصوصاً بعد الانقلاب الصناعي والتطور التكنولوجي، والتواصل المادي العالمي الذي شهده العالم في الآونة الأخيرة، ومادامت شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان، وحاكمة في كل أمر من أمور الإنسان، فالحاجة — إذن في عصرنا — إلى الاجتهاد ماسة أكثر من أي وقت مضى.

يقول د. وهبة الزحيلي (الاجتهاد حياة التشريع، فلا بقاء لشرع ما لم يظل الفقه والاجتهاد فيه حياً مرناً ذا فعالية وحركة، إذ أن من مقتضيات النمو وتطور الحياة وضرورة انتشار الشريعة في العالم: الجزم بأن الاجتهاد المعتبر، لا سيما في عصرنا هذا — عصر السرعة وتعقد المعاملات، وتجدد الحوادث والمشكلات — فهناك قضايا كثيرة تستدعي حلولاً شرعية سليمة، ولا ملجأً لحلها في غير الاجتهاد، فهومن أعظم القرب التي نتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنه نقطة الارتكاز التي يقوم عليها الحكم بصلاح شريعة الإسلام لكل زمان ومكان..³)

الفقرة الثانية: رأي الشيخ محمد الحامد في قضية غلق باب الاجتهاد

¹ — الأفضل محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، أبو الفتح، شيخ أهل الكلام والحكمة، وصاحب التصانيف. صنف كتاب "الملل والنحل"، متكلم على مذهب الأشعري، ولد سنة (467 هـ) مات بشهر ستانة سنة (549 هـ). سير أعلام النبلاء (20 / 286)، ومعجم المؤلفين (422/3).

² — الملل والنحل للشهرستاني (1 / 199).

³ — أصول الفقه لوهبة الزحيلي (2 / 1087، 1088).

بحث الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — في فتواه الشهيرة (لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسما للفوضى الدينية) موضوع غلق باب الاجتهاد وأدلى برأيه في هذه القضية الشائكة.

يقول الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى —: (فما من حادثة تقع تحت أديم السماء إلا وللإسلام حكم فيها، وقد قال الله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) ¹ (فلن يقف شرع الله جامداً أمام الحوادث لا يبدي حراكاً، وقد نفى الله سبحانه النقص عنه) ².

كما لم يمنع الشيخ من الاجتهاد في القضايا الجزئية الطارئة، وهو ما يسمى بتجزؤ الاجتهاد ³ حيث يقول: (لا مانع من الاجتهاد للتعرف إلى أحكام جزئية فردية طارئة) ⁴ غير أن هذا النوع من الاجتهاد (لا يتقنه إلا أفراد معدودون الآن تتمخض عنهم بلاد الإسلام وأقطاره وهوليس لكل من يرى نفسه عالماً أوزيرعه البسطاء من الناس) ⁵

ويقول أيضاً في نفس السياق (نعم قد تعرض بعض الحوادث في زماننا هذا مما لم يعهده الناس من قبل فيتشوقون إلى معرفة أحكامها.

والمخلص من الحيرة هو النظر في فروع الفقه وقواعده الكلية، فإنه كفيلاً بتعريفنا بحكم الجديد من الحوادث، فلقد توسع أقدمونا من الفقهاء في تقدير الحوادث واستنباط أحكام لها فكتبوا كثيراً وكثيراً جداً، حتى صار ما كتبوه بحورا زاخرة، يغوص الغواصون إلى قعورها، ويستخرجون منها دررا صافية جدية بالإعجاب) ⁶.

أما في ما يتعلق بقضية (غلق باب الاجتهاد) فقد تبني أقوال العلماء المعترين في ذلك — كما تمت الإشارة إليه سابقاً — يقول: (فالذي علينا علمه والعمل به هو ما قرره فقهاؤنا رحمهم

¹ — المائة: 3.

² — لزوم اتباع مذاهب الأئمة لمحمد الحامد (ص 12)

³ — (أن يتمكن العالم من استنباط الحكم في مسألة من المسائل دون غيرها أو في باب فقهي دون غيره، فالجتهاد المختزئ هو العارف باستنباط بعض الأحكام) إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 224) أصول الفقه الزحيلي (2 / 1075).

⁴ — لزوم اتباع مذاهب الأئمة لمحمد الحامد (ص 12)

⁵ — نفس المصدر (ص 12)

⁶ — نفس المصدر (12).

الله تعالى من أن الاجتهاد المطلق في الأحكام ممنوع بعد أن مضت أربعمائة سنة من هجرة سيدنا ومولانا محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم ¹.

وقد قال الشيخ — رحمه الله تعالى — بسد باب الاجتهاد منعا من ولوج أناس فيه ليسوا أهلا للاجتهاد والاستنباط وقطع الطريق على الفرق والمذاهب المنحرفة يقول: (وقد رأينا بعض الحمقى الذين زعموا الاجتهاد لأنفسهم يطلعون علينا بالغرائب من الاستنباطات التي لا تستحق قبولا من عابد عاقل فضلا عن عالم عامل، ورحم الله امرءا عرف حده فوقف عنده) ².

ويقول: (ثم إن فتح باب الاجتهاد في هذا الزمن مؤذن بتعدد المجتهدين الأذعياء تعدداً لا يحيط به حصر، إذ كل من آنس في نفسه — بزعمه — القدرة على الاجتهاد، دعا إلى تقليده واتباعه وهنا الكارثة الكبرى، والمصيبة العظمى، وتشتت الشمل، وتفرق الجمع، وتمزيق الوحدة، وكل ذا يستتبع من المصائب والبلايا ما يحرص كل عاقل على اجتناب الأخذ بأي سبب موصل إليه) ³.

يقول عدد من تلامذته حول قضية سد باب الاجتهاد (والشيخ لما كتب كتابه لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسما للفوضى الدينية إنما كان يعني هؤلاء الجهلة الذين كانوا ينتطعون لمقامات العلماء تعاضماً، ولم يدركوا أنهم في جهل وضعيع وقد ابتلينا في زماننا بالطبيب والمهندس يتجرأ على الفتيا دون أن يكون له خلفية تشريعية.. ولو أدرك شيخنا عهد ما يسمى بالجامع الفقهية لأيدها كل التأييد لأنها حلت كثيرا من المشكلات المعاصرة عن طريق الاجتهاد الجماعي الذي هو آمن من الاجتهاد الفردي) ⁴.

خلاصة:

وخلاصة القول أن الزعم بأن باب الاجتهاد قد سد قوله ظالمة أشاعها أعداء الإسلام تشبيها لهم وتخيلا للأمة الإسلامية لا طراح فريضة من أهم فرائض الدين، ليعتريهم الجمود، والتخلف والعجز عن مواكبة تطور الحياة.

¹ — نفس المصدر (ص 9).

² نفس المصدر (ص 12).

³ — نفس المصدر (13).

⁴ — نقول شخصية.

إن كثرة الحديث عن إغلاق باب الاجتهاد أضحي كأنه حقيقة تاريخية، لكن أصحاب هذه الفكرة لا يستطيعون تحديد السلطة التي أغلقت الباب ولا الزمان والمكان اللذين تم فيهما ذلك.

يقول الدكتور وهبة الزحيلي: (والاجتهاد ممكن كل الإمكان، ولا صعوبة فيه، بشرط أن ندفن تلك الأوهام والخيالات، ونمزق ذلك الران الذي خيم على عقولنا وقلوبنا من رواسب الماضي وآفات الخمول، والظن الآثم بعدم إمكان الوصول إلى ما وصل إليه الأولون، فكأن ذلك نوع من المستحيل، وهل هناك مستحيل بعد غزو الفضاء واختراع الذرة والكهرباء وتوابعها؟)¹.

ويقول أيضا: (وخاف بعض العلماء من ضعف الوازع الديني الذي قد يؤدي إلى هدم صرح الفقه الذي بناه الأئمة السابقون، فتنادوا بالتزام المذاهب المتقدمة ودعوا إلى سد باب الاجتهاد منعاً من ولوج أناس فيه ليسوا أهلاً للاجتهاد والاستنباط²، وهذا في تقديري من باب السياسة الشرعية التي تعالج شأننا خاصاً، أو أمراً مؤقتاً، أوفوضى اجتهادية قائمة بسبب ادعاء غير الأكفاء الاجتهاد، إذ لا دليل أصلاً على سد باب الاجتهاد)³.

المبحث الثاني: المذهبية والتعصب المذهبي

المطلب الأول: تعريف (المذهبية) و(التعصب المذهبي)

الفرع الأول: التعريف اللغوي والاصطلاحي:

¹ — أصول الفقه للزحيلي (2 / 1087، 1088)

² — انظر: تاريخ التشريع للخضري (ص319 وما بعدها)، وتاريخ الفقه الإسلامي للسايس (ص119 وما بعدها).

³ — المصدر السابق (2 / 1085)

● المذهبية:

المذهب — لغة — هو محل الذهاب وزمانه والمصدر والاعتقاد والطريقة المتبعة ثم استعمل فيما يصار إليه من الأحكام¹.

وفي الحديث عن المغيرة بن شعبة² — رضي الله عنه — قال: كان النبي — صلى الله عليه وسلم — (إذا ذهب المذهب أبعد)³.

والمذهب: هو المعتقد الذي يذهب إليه⁴ — الطريقة.

وإصطلاحاً تعني المذهبية: (أن يقلد العامي أو من لم يبلغ رتبة الاجتهاد مذهب إمام مجتهد، سواء التزم واحداً بعينه أو عاش يتحول من واحد إلى آخر)⁵.

● التعصب المذهبي:

التعصب — لغة — من العصبية، والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصره عصبته، والتألب معهم، على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين.

وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا. فإذا تجمعوا على فريق آخر، قيل تعصبوا.

وفي الحديث (العصي من يعين قومه على الظلم)⁶.

العصي هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم.

وفي الحديث (ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية)⁷.

¹ — التعارف محمد عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ) — (ص 646).

² — الصحابي الجليل، المغيرة بن شعبة الثقفي، أسلم قبل عمرة الحديبية، وشهدها وبيعة الرضوان، قال الشعبي: كان من دهاة العرب، وقال قبيصة بن جابر: لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا المكر، لخرج المغيرة من أبوابها كلها، مات سنة (50 هـ). الإصابة لابن حجر العسقلاني (6 / 197).

³ — أخرجه ابن خزيمة في الصحيح، باب التباعد للغائط في الصحاري عن الناس (1 / 30).

⁴ — لسان العرب لابن منظور (1 / 394).

⁵ — اللامذهبية محمد سعيد رمضان البوطي (ص 14).

⁶ — أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (22 / 97) حديث رقم (235).

⁷ — أخرجه الترمذي في السنن، باب في التفاخر بالأنساب (4 / 332)، حديث رقم (5121).

والعصبية والتعصب: المحاماة والمدافعة، وتعصبنا له أومعه: نصرناه، وعصبة الرجل قومه الذين يتعصبون له¹.

ويعني التعصب المذهبي اصطلاحاً: (عمل المقلد بمذهب إمامه مع علمه بضعف مأخذه ومعارضته للكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة، جموداً على تقليد إمامه وتعصبا له).

أو كما يقول د. البوطي: (بأن يرى الدليل ويستيقن معناه طبقاً للموازن العلمية التي أصبح خبيراً بها ثم يجيد عنه مع ذلك إلى المذهب الذي ينتمي إليه)².

والحقيقة أن التعصب المذهبي، مرض فتاك، وداء قاتل، ويوم أن ساد في ربوع العالم الإسلامي، أصيبت الأمة بالفرقة والانشقاق، والتخلف الفكري والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي حتى جعلها بمعزل عن ركب الحضارة فوق وقوعها في برائن الاستعمار الغاشم المتسلط.

المطلب الثاني: التقليد بين الذم والمدح

● تعريف التقليد

التقليد في اللغة، وضع الشيء في العنق مع الإحاطة به والجمع قلائد ومنه قوله تعالى: (وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ)³ وقول النبي — صلى الله عليه وسلم — في الخيل (لا تقلدوها الأوتار)⁴.

ويطلق على تفويض الأمر إلى الشخص كأن الأمر جعل في عنقه كالقلادة⁵.

وفي الاصطلاح: له تعاريف كثيرة نذكر منها ما يأتي:

— (قبول قول الغير من غير حجة)⁶.

¹ — لسان العرب لابن منظور (606 /)

² — اللامذهبية للبوطي (ص 25).

³ — المائة: 2.

⁴ — أخرجه أحمد في المسند (4 / 345) والنسائي في السنن (6 / 218) من حديث أبي وهب.

⁵ — شرح الورقات في أصول الفقه لعبد الله بن صالح الفوزان (ص 260)

⁶ — المستصفي لأبي حامد الغزالي (2 / 387)، إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 239).

— قال الشيخ أبو حامد¹ والأستاذ أبو منصور²: (قبول القول من غير حجة تظهر على قوله)³.

— وقال الدكتور عبد الله التركي: (العمل بقول المجتهد والمفتي بصرف النظر عن دليل القول، لأن المقلد غير متمكن من النظر في الأدلة وكيفية استنباط الحكم منها)⁴.
فالتقليد إذن هو محاكاة الغير في العمل والترك، كمسح بعض الرأس تقليدا للشافعي، وترك المقتدي قراءة الفاتحة في الصلاة أخذا بقول أبي حنيفة، ونحو ذلك⁵.

وقد حدثت ظاهرة — التقليد بمعناها الاصطلاحي — بعد انقراض خير القرون، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. يقول العلامة الشوكاني — رحمه الله تعالى — : (وإن حدوث التمذهب بمذاهب الأئمة الأربعة، إنما كان بعد انقراض عصر الأئمة الأربعة، وقد أحدثها عوام المقلدة لأنفسهم من دون أن يأذن بها إمام من الأئمة المجتهدين)⁶.

وقد اختلفت المذاهب والفرق في حكم التقليد في الأحكام الشرعية الفرعية العملية بين الوجوب والتحريم، فذهب جمع منهم إلى القول بالوجوب مطلقا للقادر على الاجتهاد والعاجز عنه وقال آخرون بعدم الجواز أي بتحريم التقليد مطلقا وأوجبوا على المكلف الاجتهاد وتعلم وسائله وأدواته، وذهب البعض الآخر إلى التفصيل: وهو الجواز في حق العاجز والتحريم في حق المجتهد القادر وهو القول الراجح⁷.

¹ — الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أبو حامد، محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، ولد سنة (450 هـ بطوس، برع في الفقه ومهر في الكلام والجدل، توفي (سنة 505 هـ)، ونسبته إلى قرية يقال لها: غزالة، من آثاره: (إحياء علوم الدين) (كيمياء السعادة 9. سير أعلام النبلاء (19 / 322).

² — عبد القاهر بن طاهر، الأستاذ أبو منصور البغدادي، أحد أعلام الشافعية، توفي سنة (429 هـ)، وله مصنفات في النظر والتعليقات، منها (بلوغ المدى في أصول الهدى) (تأويل متشابه الأخبار). سير أعلام النبلاء (17 / 572).

³ — إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 239).

⁴ — أصول مذهب الإمام أحمد لعبد الله التركي (748).

⁵ — أصول الفقه لوهبة الزحيلي (2 / 1120).

⁶ — القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد للشوكاني (ص 108).

⁷ — أصول الفقه لعبد الكريم زيدان (ص 410)، أصول الفقه، الزحيلي (ص 1127)، إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 244).

— **القائلون بتحريم التقليد:** ذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا يجوز التقليد مطلقاً. قال القرافي¹: مذهب مالك وجمهور العلماء، وجوب الاجتهاد، وإبطال التقليد وادعى ابن حزم الإجماع على النهي على التقليد² في حين عدّه الشوكاني مذهب الجمهور حيث يقول (وبهذا تعلم أن المنع من التقليد إن لم يكن إجماعاً، فهو مذهب الجمهور)³ وما ذكره الشوكاني من أن مذهب الجمهور حرمة التقليد غير مسلم به⁴.

— **القائلون بوجوب التقليد:** قال بوجوب التقليد الحشوية⁵ والتعليمية⁶ وعبيد الله بن الحسن العنبري⁷، حيث حرّموا النظر معتبرين أن النظر مظنة الوقوع في الشبهات والتردي في الضلالات، بخلاف التقليد فإنه طريق آمن من الأوهام والضلالات كما وأنه يفتح باب الجدل، وقد نهي النبي — صلى الله عليه وسلم — الصحابة لما رأهم يتكلمون في مسألة القدر، وقال (إنما أهلك من كان قبلكم لخوضهم في هذا)⁸ ⁹.

— **مذهب التفصيل:** وهو قول كثير من أتباع الأئمة الأربعة¹⁰ وهو أن التقليد يجب على العامي، ويحرم على المجتهد¹¹.

يقول ابن تيمية — رحمه الله تعالى —: (وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور بشرط أن لا يعارض قول الله ورسوله كائناً من كان المخالف)¹.

¹ — أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين، نسبته إلى القرافة محلة الإمام الشافعي في مصر، له مصنفات جليلة منها (أنوار البروق في أنواء الفروق) و(الخصائص) و(شرح المحصول) وغيرها كثير، توفي سنة (684 هـ). الأعلام للزركلي (1 / 94).

² — الإحكام لابن حزم (6 / 272).

³ — إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 244).

⁴ — أصول مذهب الإمام أحمد للتركي (ص 752).

⁵ — الحشوية: بسكون الشين وفتحها: قوم تمسكوا بظواهر آيات الله، فذهبوا إلى التجسيم وغيره، وهم من الفرق الضالة، وسموا بذلك، لأنهم كانوا في حلقة الحسن البصري فوجدهم يتكلمون كلاماً، فقال: ردوا هؤلاء إلى حشياء الحلقة، فنسبوا إلى حشياء، فهم حشوية (بفتح الشين). وقيل: سموا بذلك، لأنهم من الجسمة لقولهم: الجسم حشو، فهم حشوية (بسكون الشين).

⁶ — التعليمية: قوم من الباطنية، قالوا: في كل عصر إمام معلوم يعلم غيره ما بلغه من العلم.

⁷ — عبيد الله بن الحسن بن الحسين العنبري التميمي، تولى قضاء البصرة، وكان عالماً بالفقه والحديث يقول عنه ابن قتيبة: (كان شديد التنافس في أقواله، وهو رجل من أهل الكلام والقياس والنظر) ولد سنة (100 هـ) وتوفي سنة (168 هـ).

⁸ — أخرجه الترمذي في السنن، كتاب القدر باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر (4 / 443) حديث رقم (2133).

⁹ — أصول الفقه للزحيلي (2 / 1124، 1125) مع الأحكام للآمدي (4 / 229).

¹⁰ — إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 244).

¹¹ — الأحكام للآمدي (4 / 234).

وبناء على قول مذهب التفصيل — وهو القول الراجح — فإنه يمكن القول أن التقليد
قسمان: قسم مذموم، وآخر محمود.

— **التقليد المحمود:** هو تقليد العاجز عن الاجتهاد، لأنه لم يقدر على التوصل إلى الحكم
الشرعي بنفسه، فلم يبق أمامه إلا اتباع من يرشده من أهل النظر والاجتهاد إلى ما يجب عليه من
التكاليف.

— أما التقليد المذموم أو المحرم، فهو ثلاثة أنواع — كما يقول ابن القيم —:

(— الأول: ما تضمن الإعراض عما أنزل الله، وعدم الالتفات إليه، كتقليد الآباء
والرؤساء.

— الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله.

— الثالث: التقليد بعد ظهور الحجة وقيام الدليل عند شخص على خلاف قول المقلد)².

وهذا ما عناه الأئمة الأربعة في نهيهم عن تقليدهم، وذموا من أخذ قولهم بغير حجة.

قال الإمام الشافعي³: (مثل من يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة من
حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري)⁴.

وقال أحمد بن حنبل⁵: (لا تقلدني، ولا تقلد مالكا ولا الثوري ولا الأوزاعي وخذ من
حيث أخذوا)⁶.

وقال السيوطي¹: (ما زال السلف والخلف يأمرؤن بالاجتهاد، ويحضون عليه وينهون عن
التقليد ويذمونهم ويكرهونه)².

¹ — الفتاوى لابن تيمية (28 / 388).

² — إعلام الموقعين لابن القيم (2 / 187، 188).

³ — محمد بن إدريس، أبو عبد الله، صاحب المذهب المعروف، ولد سنة (150 هـ) وتوفي سنة (204 هـ) من آثاره كتاب الأم.
سير أعلام النبلاء (10 / 5).

⁴ — إعلام الموقعين لابن القيم (2 / 200).

⁵ — هوشيع الإسلام، صاحب المذهب المعروف، أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن إدريس الشيباني المروزي ثم
البغدادي، أحد الأئمة الأعلام، ولد سنة (164 هـ) وتوفي سنة (241 هـ). سير أعلام النبلاء (11 / 117).

⁶ — أصول الفقه للزحيلي (2 / 1130).

وتجدر الإشارة في ختام هذا البحث إلى أنه لا ينبغي تجاهل مقتضيات الواقع، وأحوال الناس من حيث فهمهم النصوص والقدرة على الاستنباط منها، ذلك أن العامي المحض لا يسعه إلا تقليد العالم لعجزه عن النظر والاجتهاد، أما العلماء ولو لم يكونوا أهلاً للاجتهاد، فلا يلزمون بجميع ما جاءت به المذاهب، وعليهم أن ينظروا في كل حكم من أحكام الفقه على حدة فيقبلون ما يؤيده الدليل الصحيح ويرفضون ما عداه دون تعصب لمذهب من المذاهب، وليكن رائدهم طلب الحق فإن الحق واحد قديم، ودين الله واحد لا يتعدد كما ذكر ذلك ابن القيم في إعلام الموقعين³.

المطلب الثالث: الفرق بين المذهبية والتعصب المذهبي

كثيراً ما يلتبس أمر (المذهبية) و(التعصب المذهبي) على كثير من الناس، من حيث أنهما شيء واحد أو هما — كما يقال — وجهان لعملة واحدة، فكل متمذهب هو متعصب بالضرورة، ولكن من خلال ما تم بحثه سابقاً يتبين أن المذهبية لا تعني بالضرورة (التعصب المذهبي)، بل هناك نقاط اختلاف بينهما، يمكن أن نجملها في الآتي:

¹ — عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، المصري، الشافعي، جلال الدين، أبو الفضل، ولد سنة (849 هـ) وتوفي سنة (911 هـ) له مؤلفات كثيرة جداً منها (المزهر في اللغة، الدر المنثور في التفسير المأثور، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة). شذرات الذهب (51 / 8).

² — الرد على من أخلد إلى الأرض للسيوطي (ص 42).

³ — انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (2 / 211) وانظر: أصول الفقه للزحيلي (2 / 1135).

— فالمذهبية: كما تم تعريفها سابقاً، هي أن يقلد العامي أو من لم يبلغ رتبة الاجتهاد، مذهب إمام من الأئمة المجتهدين دون التقيد بمذهب واحد، بل يمكنه النظر في بقية الأئمة المعترين، فيجوز له أن يقلد أي مجتهد شاء.

فلو التزم مذهباً معيناً، كمذهب أبي حنيفة، أو الشافعي، أو غيرهما، لا يلزمه الاستمرار عليه، بل يجوز له الانتقال كلياً منه إلى مذهب آخر ولو بعد العمل به¹.. وقد ذكر بعض الحنابلة أن أحمد بن حنبل — رحمه الله تعالى — قال لبعض أصحابه: (لا تحمل الناس على مذهبك فيخرجوا، دعهم يترخصون بمذاهب الناس)². والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يوجب التزام مذهب بعينه، وإنما أوجب اتباع العلماء من غير تخصيص بعالم دون آخر أو بمذهب دون آخر فقال سبحانه وتعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)³ (ولأن المستفتين في عصر الصحابة والتابعين لم يكونوا ملتزمين بمذهب معين، بل كانوا يسألون من تهيأ لهم دون تقيد بواحد دون آخر، ولم ينكر عليه أحد فكان هذا إجماعاً منهم على عدم وجوب تقليد إمام، أو اتباع مذهب معين في كل المسائل، وأيضاً فإن القول بالتزام مذهب يؤدي إلى الحرج والضيق مع أن المذاهب نعمة وفضيلة ورحمة للأمة، وهذا القول هو الراجح عند العلماء)⁴.

يقول الإمام أبو شامة⁵ في خطبة (الكتاب المؤمل في الرد إلى الأمر الأول): (ينبغي لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب إمام معين، بل يرفع نفسه عن هذا المقام، وينظر في مذهب كل إمام، ويعتقد كل مسألة صحّت ما كان أقرب إلى دلالة الكتاب والسنة المحكمة، وذلك سهل عليه، إذا كان قد أتقن معظم علوم الاجتهاد، وليجتنب التعصب والنظر في طرائق الخلاف المتأخرة فإنها مضيعة للزمان ولصفوه مكدره)⁶.

¹ — هذا ما قال به الآمدي وابن الحاجب، وهو الرأي الأقرب إلى الصواب، انظر اختلاف العلماء في هذه المسألة، وأدلتهم على ذلك، في كتاب إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 252 وما بعدها)، والنص من أصول الفقه للزحيلي (2/1137).

² — إرشاد الفحول للشوكاني (2 / 252).

³ — الأنبياء: 7.

⁴ — أصول الفقه للزحيلي (2 / 1138).

⁵ — عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، ثم الدمشقي، أبو شامة، العلامة المجتهد، شهاب الدين، أبو القاسم، وسمي بأبي شامة لشامة كانت فوق حاجبه الأيسر، توفي سنة (665 هـ) الأعلام للزركلي (3 / 299).

⁶ — نفس المصدر (2 / 1136).

وليس يعني — ما ورد ذكره سالفًا من جواز الانتقال من مذهب إلى آخر على اعتبارات علمية مبنية على الدليل الصحيح — جواز تتبع الرخص، ونوادير العلماء وزلائهم، فقد حكى ابن حزم الإجماع على أن تتبع رخص العلماء فسق لا يحل¹.

والمقصود هنا بالرخص، هو تتبع زلات العلماء فما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء، ثم أخذ بها ذهب دينه².

أما التعصب المذهبي فهو أن يعمل المقلد بمذهب إمامه مع علمه بضعف الدليل أو معارضته للكتاب والسنة، وهو ما يعبر عنه (بالتعصب المذهبي الأعمى) أو (التقليد الباطل)، ذلك أن بعض الفقهاء المقلدين يصرون على التمسك بآراء متبوعيهم ولو بانتهكوا الحجة وظهر لهم الدليل.

يقول العز بن عبد السلام³: (ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه، بحيث لا يجد لضعفه مدفعًا وهو مع ذلك يقلد فيه، ويترك من شهد له الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم، جمودًا على تقليد إمامه، بل يتحایل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة، نضالًا على مقلده)⁴.

وقد بالغ بعضهم وأبعد النجعة عندما قال: (أن من خرج عن المذاهب الأربعة ضال مضل، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية)⁵. مع العلم أننا لا ننرى أن المذاهب الأربعة تخالف الكتاب والسنة.

فالتعصب يجعل من التعصب للمذهب ديانتته التي يدين بها، وقبلته التي يولي إليها وجهه، ويكدح ويجهد في رد ما جاء به الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى قول مقلده ومتبوعه، حتى يبدو وكأن الحق حكر عليه، وكأن غيره على باطل جزما مما يولد الصراعات وينبت الأحقاد.

¹ — الموافقات للشاطبي (2 / 500).

² — نفس المصدر (2 / 254).

³ — عبد العزيز بن عبد السلام، عز الدين الملقب بسُلطان العلماء، فقيه شافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، ولد في دمشق سنة (577 هـ) وتوفي سنة (660 هـ) بالقاهرة، من آثاره (قواعد الشريعة) (الفوائد) (الإمام في أدلة القرآن) (مقاصد الرعاية). الأعلام للزركلي (4 / 21).

⁴ — القواعد الكبرى للعز بن عبد السلام (2 / 135).

⁵ — حاشية الصاوي على الجلالين (3 / 10).

وقد دعا هذا التعصب المذموم إلى وضع أحاديث من أجل أن ترفع من ذلك الإمام أو تؤيد ذلك المذهب، وفي الطرف الآخر وضعوا نصوصاً أيضاً فيها طعون تنتقص مسالك الآخرين ومذاهبهم وأعلامهم¹ مما أثر ذلك على سير الحركة الفقهية فأصابها بالجمود الفكري، والبعد عن الأصول المعتمدة من الكتاب والسنة أو الأثر، كما فتح باب (التكتلات المذهبية) حيث تكتلت كل فئة من الناس حول مذهب معين تنافح عنه بالحق والباطل، وتسعى لجمع كل ما من شأنه خدمة المذهب ونصرتة بالأحاديث والآثار الضعيفة والقياسات الفاسدة.

(ولذلك أخرج العلماء المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى من زمرة العلماء)².

قال أبو عمر³: (أجمع الناس على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم وأن العلم معرفة الحق بدليله)⁴.

وخلاصة ما نخرج به من هذا البحث أن المذهبية لا تعني بالضرورة العصبية المذهبية، بل هذه الأخيرة مرفوضة جملة وتفصيلاً للأمر التالية:

— أن التقيد بالمذهب، التزام بما لا يلزم ولا يجب ديناً وشرعاً.. فلم يوجب الله ورسوله اتباع مذهب معين من مذاهب الأئمة، وإنما أوجب اتباع الكتاب والسنة، وهذه المذاهب إنما نشأت بعد أن اكتمل الدين وانقطع الوحي، وذلك في القرن الثاني والثالث للهجرة فلا يتصور أن يأتي الدين بإيجاب اتباعها وهي لم تنشأ بعد.

— كما نجد أن الأئمة المتبوعين أنفسهم نهبوا عن تقليدهم ولهم في ذلك أقوال مشهورة .

— والأمر الأخير أن العلماء — عامة — رجحوا أن العامي لا مذهب له وأن مذهبه مذهب من يفتيه من العلماء⁵.

¹ — معالم في منهج الدعوة لصالح عبد الله بن حميد (ص 204).

² — إعلام الموقعين لابن القيم (7 / 10).

³ — يوسف بن عبد الله بن عبد البر، الأندلسي، القرطبي، المالكي، أبو عمر الإمام العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، ولد سنة (368 هـ) وتوفي سنة (463 هـ) من آثاره (الاستيعاب) و(الاستذكار). سير أعلام النبلاء (18 / 153).

⁴ — اعلام الموقعين لابن القيم (7 / 1).

⁵ — انظر: تيسير الفقه للمسلم المعاصر في ضوء القرآن والسنة للقرضاوي (32، 33).

المطلب الرابع: موقف الشيخ محمد الحامد من التمدد والتعصب المذهبي

دعا الشيخ — رحمه الله تعالى — في فتواه الشهيرة إلى لزوم اتباع مذاهب الأئمة المعترين واقتفاء أثرهم حسما للفوضى الدينية وقطعا لدابر التطاول على الأئمة وتسفيه أقوالهم (فأنظار الأئمة أبعد وأعمق من أنظارنا القاصرة، فقد أسرجوا لنا الفقه وأجموه فما علينا إلا تتبع ما أقروه)¹.

فالمذاهب الفقهية المنسوبة للأئمة الأربعة الأفاضل — رحمهم الله تعالى — لها مكانة علمية عالية في التاريخ الإسلامي، لما بذلته من جهود جبارة في فقه النصوص، وبيان مقاصدها وتعليلاتها، والتأصيل عليها والتفريع عنها وحفظ آراء العلماء وتحقيق المصالح والمفاسد².

وليس بلازم للعلماء والفقهاء اتباع مذهب معين والتقيد بكل فروع الفقهية العملية، وإنما هو خاص بالعامي المحض، أو العالم الذي تعلم بعض العلوم المعترية، ولكنه لم يبلغ رتبة الاجتهاد (فالعامي لا مذهب له). يقول — رحمه الله تعالى — في بحثه المذكور: (فالتقليد واجب على القاصر عن مرتبة الاجتهاد المطلق وهذا مذهب الأصوليين وجمهور الفقهاء والمحدثين.. والدليل قول الله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)³ فقد أوجب السؤال على القاصر، والأخذ بقول العالم المسئول، وذا تقليد له من حيث وجوب أخذه بقوله⁴.. أما صغار المحصلين فإن إقتدائهم بأئمتهم أحمد عاقبة، وأسلم غائلة)⁵.

لقد التزم — رحمه الله — فقه المذهب الحنفي، تطبيقا وتعلينا، وناصح عنه ضد من زعم أن الإمام أبا حنيفة — رحمه الله تعالى — كانت بضاعته مزجاة في علم الحديث والسنة النبوية وأنه قليل الاستدلال بهما، ويقدم القياس والرأي على النص، معتبرا ذلك فرية على الإمام — رحمه الله تعالى — حيث قال: (ونحن نرى فقه الإمام مستندا إلى كتاب الله سبحانه وإلى سنة رسول الله

¹ — لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسما للفوضى الدينية للحامد (ص 13).

² — منهج ابن تيمية في الفقه لسعود بن صالح العطيشان (ص 132).

³ — الأنبياء: 7

⁴ — لزوم اتباع مذاهب الأئمة للحامد (ص 42)

⁵ — نفس المصدر (ص 15).

تعالى عليه وآله وسلم، وإلى القياس الصحيح فيما يتحدد من الحوادث على ما ثبت حكمه منها بالنصوص، ونرى هذا ونلمسه باليد، والمطولات من كتب الحنفية زاخرة بالأحاديث الشريفة¹. لكنه مع ذلك كان يحترم بقية المذاهب والآراء الاجتهادية المخالفة للمذهب الحنفي، ولكل بحث علمي صحيح قال — رحمه الله تعالى — في بحثه لزوم اتباع مذاهب الأئمة: (ونحن بأي حال نحترم البحث العلمي الصحيح ونعظم القول فيه كائنا من كان ومن أي مصدر كان)².

بل كان رحمه الله تعالى ينكر على من يريد أن يحمل الناس على التزام مذهب واحد، قال رحمه الله في ذلك: (وليس القول الآن في المقارنة والترجيح بل القصد كل القصد إلى احترام الخلاف في الفرعيات التي مهما اتجه المرء إلى أي جانب من جوانبها وجد له سلفا من العلماء لهم وجهة نظر عليها يدلون عليها ويرهنون وليس الصواب في مثل هذا تحجر الواسع)³.

فالاختلافات الواردة في اجتهادات العلماء، وتنوع فتاويهم في المسألة الواحدة، ليست وليدة الأهواء، والتعصب المذهبية، والمصالح الشخصية، وإنما لها جذور تاريخية، ترجع إلى الصحابة والتابعين في كثير من الأحيان يقول الشيخ الحامد — رحمه الله تعالى — (فمن قرأ الفقه بأدلته يدرك أن اختلافات الأئمة المجتهدين، صور مجتمعة لاختلافات من قبلهم من الصحابة والتابعين.. فكل من الأئمة لهم سابقون هذا حذوهم، واقتفى على أثرهم، وأبوحنيفة منهم)⁴.

وكان يدعو — رحمه الله تعالى — إلى الالتزام بأي مذهب من المذاهب الفقهية المدونة، والبعد عن التعصب المذهبي، والانتصار لمذهب دون آخر، لما خلفه ذلك من آثار سيئة على الحركة الفقهية والحياة الاجتماعية، لكن أمانته العلمية كانت تمنعه من الإفتاء بغير المذهب الحنفي — إلا في أحيان قليلة — وكان يجيل السائل إلى علماء المذاهب الأخرى⁵، ولذلك كان يقول: (إن أهل كل مذهب أعلم بمذهبهم وقديما قيل: أهل مكة أدرى بشعابها)⁶.

¹ — ردود على أباطيل محمد الحامد (1 / 14، 15).

² — نفس المصدر (1 / 30).

³ — مجلة حضارة الإسلام (العدد الثالث من السنة العاشرة 1969 م) مقال بعنوان الخطوط الرئيسية للمنهج العلمي.. لعبد الحميد طهماز (ص 26).

⁴ — لزوم اتباع مذاهب الأئمة محمد الحامد (ص 33).

⁵ — مجلة حضارة الإسلام (العدد الثالث من السنة العاشرة 1969 م) مقال بعنوان الخطوط الرئيسية للمنهج العلمي.. لعبد الحميد طهماز (ص 26).

⁶ — رسالة القول في المسكرات محمد الحامد (ص 17).

والتزامه بقواعد المذهب الحنفي وفروعه الفقهية العملية لا يعني تعصبه له وترك أحكام غيره من المذاهب، ومحاربتها، وتسفيه اجتهادات علمائها. يتحدث عن نفسه فيقول: (أحب أن يعرف الناس عني أي غير شديد التعصب لفقه الإمام أبي حنيفة — رحمه الله تعالى — وإن كنت متمذبا بمذهبه، وقد يصفني بعض الناس بهذا جهلا منهم بحقيقتي التي يعرفني بها المستمعون إلى بياناتي. وإني أحترم خلاف الأئمة في الفروع الفقهية العملية وأقدسهم كلهم أجمعين وقد ورثت هذا عن شيوخي — رحمهم الله تعالى — لكنني أشدد في الاعتقاد فلا أسمح ببدعة تداخل القلب وتواكب السلوك، فمذهب الحق هو الذي أرتضيه وأدعوا إليه، وهو الذي يطلبنا الإسلام بإصابته عينا)¹.

فاختلاف أئمة المذهب في بعض الأحكام الفرعية رحمة للأمة وتوسعة لها، ولهذا كان يفتي للمتزعم مذهب معين بأن يأخذ بأحكام مذهب آخر عند الضرورة. (وقد أخذ رحمه الله تعالى في آخر أيام حياته بمذهب الإمام مالك² — رحمه الله تعالى — في أحكام الطهارة لأنها أيسر وخاصة أثناء المرض واستفتي في هذا الموضوع أحد علماء المذهب المالكي في الأزهر الشريف)³.

وكتيرا ما كان يستدل، في بعض المسائل الفقهية، بأقوال الأئمة الأربعة، ويذكر أدلتهم في المسألة محل النظر⁴، وقد يتبنى ترجيحاتهم واجتهاداتهم إن وافقت الدليل وإن كانت مخالفة لمذهبه، غير أنه في كثير من الأحيان كان يرجح المذهب الحنفي.

كما كان يفتي — أيضا — في بعض الأحيان بغير المذهب الحنفي، وذلك حسب قوة حجة المذهب المخالف ووضوح دليله، فقد ورد عليه سؤال عن حج عن غيره ولم يحج حجة الإسلام عن نفسه فأجاب: (مذهب الحنفية الجواز والشافعية لا يجوزنه عن المحجوج عنه، وبعد أن ذكر أدلة الطرفين، رجح مذهب الشافعية فقال: لكن الأولى أن لا يحج عن غيره إلا من حج عن نفسه خروجاً من خلاف الشافعي — رحمه الله تعالى — ومراعاة للخلاف فإنها مستحبة، وأيضا

¹ — مجلة حضارة الإسلام العدد الثالث من السنة العاشرة حوار مع الشيخ محمد الحامد (49)

² — الإمام مالك بن أنس بن مالك، شيخ الإسلام، حجة الأمة، إمام دار الهجرة، ولد سنة (93 هـ) وتوفي سنة (179 هـ) ودفن في البقيع. سير أعلام النبلاء للذهبي (8 / 48).

³ — مجلة حضارة الإسلام مقال لعبد الحميد طهماز (26).

⁴ — انظر رسالته (حكم اللحية في الإسلام).

فإن من حج عن نفسه يكون مكتسبا ملكة التمرن على الحج فخطؤه قليل، أما الحاج لأول مرة فاحتمال وقوعه في الخطأ قريب¹.

وسئل عن زيادة الأجرة في الإيجار إذا كان الدفع لأجل فأجاب (وليست زيادة الثمن في البيع والأجرة والإجارة إذا كان الأجل معلوما، ليست من الربا في مذهب الحنفية، وإن كانت في بعض المذاهب ربا، نعم هي قسوة لا تنبغي أن تكون والأولى تركها خروجاً من الخلاف)².

ويتبين مما سبق أن الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — كان متمذبا بالمذهب الحنفي، متضلعا فيه أصولا وفروعا، وملتزما لأراء فقهاءه، غير أنه لم يكن متعصبا له تعصبا أعمى ممقوتا كما هوشأن بعض الناس وإنما كان يدور مع الدليل حيثما دار، وينقاد للحجة من أي جهة كانت ولا يعد ذلك خروجاً عن المذهب يقول — رحمه الله تعالى — (فقد قال فقهاؤنا — رحمهم الله تعالى — كما ورد في رد المحتار لابن عابدين (إن الحنفي إذا عمل بالحديث الصحيح على خلاف ما قاله إمامه فإنه لا يخرج بذلك عن كونه حنفيا)³.

فالاجتهادات المخالفة للمذهب، لا تخرج صاحبها من دائرة الانتساب للمذهب، وتجعله في دائرة (اللامذهبية) وهذا واقع بكثرة لمن نظر في مصنفات العلماء المجتهدين في المذهب.

الخاتمة

لقد أوضح هذا البحث صورة من جهد الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — وأبان عن جزء من اهتماماته في لمحات سريعة، وآمل أن أكون قد وفيت جزءاً من حقه على الأمة الإسلامية.

ويمكن إجمال النتائج التي خرجت بها من هذا البحث على النحو التالي:

— كان الشيخ محمد الحامد — رحمه الله تعالى — داعية لله تعالى بكليته، فلا يكاد يفرغ من جانب حتى ينتقل إلى الآخر في حركة دائبة لا تعرف الراحة.

¹ — ردود على أباطيل لمحمد الحامد (1 / 59)

² — نفس المصدر (2 / 341)

³ — نفس المصدر (2 / 230)

— كما كان شخصية إيجابية فاعلة، ساهمت في إصلاح واقع المسلمين وإعادة صياغته على نحو ترضاه الشريعة الإسلامية، فلم يكتف بتوجيه النقد وتتبع العورات، كما هو شأن بعض الدعاة اليوم، فخير للداعية أن يوحد شعبة واحدة من أن يلعن الظلام ألف مرة.

— لقد وُجد رحمه الله تعالى في خضم صراع عنيف فكان رجل المرحلة — كما يقولون — في علمه وجهاده وصبره وفاعليته ومثابرته.

— لقد كان الشيخ — رحمه الله تعالى — قدوة لطلاب العلم، وداعية يقتفي الدعاة أثره، ومجاهدا ينيّر سبيل المجاهدين المتشوقين للشهادة، وبتعبير آخر — لا نبالغ — إذا قلنا أنه كان مدرسة لها خصائصها ومميزاتها.

— ساهم — رحمه الله تعالى — في إرساء معالم غائبة عن ساحة البحث العلمي عند بعض الباحثين، كالاكتفاء بالنصوص والسعة والشمول والمزج بين الحكم الفقهي والتوجيه والإرشاد والموضوعية والتزاهة العلمية وإخراج الأحكام الفقهية الحديثة في ثوب أدبي راق وعدم التشهير بالمخالف والتنكيل به واعتبار مصلحة الأمة وشوراه واستئناسه برأي معاصريه والأمانة العلمية والدقة في النقل والوقوف على ظواهر النصوص والدقة في الفهم والاستنباط واحترام مذاهب الأئمة ، وهي معالم ذات أهمية بالغة لدعاة اليوم ولعل هذا البحث قد ساهم في كشف المعايير المنهجية التي ينبغي على كل داعية أن يتحلى بها.

— أن الشيخ لا يقول بسد باب الاجتهاد، ولكن يرى أن المجتهدين قلّة وليس في وسع كل عالم تسنم هذه الذرورة.

هذا، ولا تزال شخصية الشيخ — رحمه الله تعالى — تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث في جوانب أخرى من شخصيته كالتصوف ومواجهته للأفكار المستوردة والإلحادية ومحاربتها وكذلك دراسة منهجه في الدعوة..

والله أسأل أن ينفع المسلمين بهذا الجهد المتواضع، وأن يرحم الشيخ برحمته الواسعة وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرس الآيات

رقم الصفحة	رقم الآية	اسم السورة	م
1	102	آل عمران	1
62	187		
168	159		
1	1	النساء	2
135	59		
135	65		
129	48	المائدة	3
198	3		
205	2		
123	120	الأنعام	4
146	119	هود	5
120	29	الرعد	6

57	88	الحجر	7
178	99		
67	125	النحل	8
154	27	طه	9
181	97	الأنبياء	10
211	7		
216	7		
179	82	النمل	11
147	21	العنكبوت	12
153	45		
175	34	لقمان	13
176	34		
1	71— 70	الأحزاب	14
168	38	الشورى	15

فهرس الأحادس

رقم الصفحة	أول الحدس
167	
203	1. أجمعوا له العالمس..
65	2. إذا ذهب أبعء..
78	3. إذا ولع الكلب فس إناء أءكم..
55	4. أنا زعمس بس فس الجنة..
78	5. إنما بعءت لأءم..
63	6. إفس ءاملك على ولد الناقة..
162	7. أفس الأعمال أفضل..
75	8. ءع ما سربك ..
204	9. الراءمون سرحمهم الرحمن..
162 — 61	10. العصبس من سفس قومه..
205	
76	
78	

162 — 59	11. فمن اتقى الشبهات..
129	12. لا تقلدوها الأوتار..
74	13. لا تترع الرحمة..
204	14. لا يؤمن العبد الإيمان كله..
57	15. لا يبلغ العبد أن يكون..
146	16. لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم..
119	17. لو كان المطعم بن عدي حيا..
74	18. ليس منا من دعا إلى..
70	19. ما زاد الله عبدا..
129	20. من ستر مسلما..
	21. من كتم علما..
	22. من لم يشكر الناس لم يشكر..
	23. والذي نفسي بيده..
	24. والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم

فهرس المصادر والمراجع

1. أبجد العلوم، لصديق حسن القنوجي (ت 1307 هـ)، تحقيق عبد الجبار زكار — بيروت دار الكتب العلمية — 1978 م.
2. الإحكام في أصول الأحكام، لان حزم علي بن أحمد الظاهري (ت 454 هـ)، تحقيق محمد بن أحمد بن عبد العزيز، ط 1، 1398 هـ مطبعة الامتياز.
3. الإحكام في أصول الأحكام للإمام سيف الدين علي بن محمد الآمدي — ط (1401 هـ) دار الفكر للنشر والتوزيع.
4. أساليب الدعوة المعاصرة، للدكتور محمد بن حمد ناصر بن عبد الرحمن العمار ط 3 — دار إشبيليا — 1418 هـ / 1998 م.
5. الإصابة لابن حجر العسقلاني (853 هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي — ط 1 بيروت — دار الجيل — 1412 هـ / 1992 م.
6. أصول الفقه للدكتور عبد الكريم زيدان — ط 7 مؤسسة الرسالة — 1420 هـ / 2000 م

7. أصول الفقه للدكتور وهبة الزحيلي — ط 1 — سورية، دار الفكر، بيروت، دار الفكر العاصر — 1986 م.
8. أصول الفقه لمحمد أبي زهرة — دار الفكر العربي بدون تاريخ.
9. أصول مذهب الإمام أحمد للدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي — ط 4 مؤسسة الرسالة — 1416 هـ / 1996 م.
10. الأصولية في العالم العربي لريتشارد هرير دكمجيان، ترجمة وتعليق عبد الوارث سعيد — ط 2 — دار الوفاء — مصر — 1410 هـ / 1989 م.
11. إعلام الموقعين عن رب العالمين، تعليق طه عبد الرؤوف سعد، ط مطابع الإسلام، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية 1400 هـ.
12. الأعلام لخير الدين الزركلي — ط 6 دار الملايين — بيروت 1984 م.
13. الاجتهاد في الشريعة الإسلامية مع نظرات تحليلية في الاجتهاد المعاصر، للدكتور يوسف القرضاوي — ط 2 — الكويت — دار القلم للنشر والتوزيع — 1410 هـ / 1989 م.
14. الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، للدكتور عبد المجيد السوسوه الشرفي — سلسلة الأمة العدد 62 — ط 1 — 1419 هـ / 1998 م.
15. ارشاد الفحول، لمحمد علي الشوكاني — مطبعة صبيح — 1349 هـ و ط 4 مؤسسة الكتاب الثقافية بيروت — 1414 هـ / 1993 م.
16. البدر الطالع. بماحسن من بعد القرن السابع لمحمد علي الشوكاني — طبعة دار المعرفة — بيروت .
17. تاج العروس من جواهر القاموس لمحّب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي، تحقيق علي بشيري ط دار الفكر — بيروت 1414 هـ / 1994 م.
18. تاريخ التصوف الإسلامي للدكتور عبد الرحمن بدوي — وكالة المطبوعات الكويت — 1993 م.
19. التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور — الدار التونسية للنشر 1984 م.

20. التعاريف لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي (ن 1021 هـ)، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية — ط 1 — دار الفكر المعاصر — بيروت — دمشق — دار الفكر 1410 هـ.
21. التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني (ت 816) تحقيق إبراهيم الأبياري — ط 1 — دار الكتاب العربي — بيروت — 1405 هـ .
22. تفسير القرطبي لمحمد بن أبي بكر القرطبي (ت 671) — أحمد بن عبد العليم البردوني — ط 2 — دار الشعب — القاهرة — 1372 هـ.
23. التفكير الموضوعي للدكتور عبد الكريم بكار — ط 1 — دار القلم — دمشق — الدار الشامية — بيروت 1413 هـ / 1993 م.
24. تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) — تحقيق محمد عوامة — ط 1 — دار الرشيد — سورية — 1406 هـ / 1986 م.
25. تيسير الفقه للمسلم المعاصر للدكتور يوسف القرضاوي في ضوء القرآن والسنة — ط 1 — مكتبة وهبة — القاهرة 1420 هـ / 1999 م.
26. حكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية لمحمد الحامد — ط 3 — مكتبة المنار بالزرقاء — 1403 هـ / 1983 م.
27. حكم اللحية في الإسلام لمحمد الحامد ط3 — مكتبة المنار بالزرقاء — 1403 هـ / 1983 م.
28. حوار حول سورية لمحمود مصطفى — ط 1 — دار عكاظ — لندن — 1993 م.
29. رحمة الإسلام للنساء لمحمد الحامد ط3 — مكتبة المنار بالزرقاء — 1403 هـ / 1983 م
30. الرد على من أحلوا إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض — طبع الجزائر 1325 هـ.
31. ردود على أباطيل ورسائل الشيخ محمد الحامد (جزئين) لمحمد الحامد — تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري — منشورات المكتبة العصرية — بيروت.

32. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ط 4 — در إحياء التراث العربي — بيروت — 1405هـ / 1985 م.
33. سقوط الجولان لخليل مصطفى — دار النصر للطباعة والإسلامية — مصر 1980 م.
34. سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت 375 هـ) — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد — دار الفكر — دمشق.
35. سنن ابن ماجة لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت 275 هـ) — تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي — دار الفكر — بيروت.
36. سنن البيهقي الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت 458 هـ) — تحقيق محمد عبد القادر عطا — ط — مكتبة دار الباز — مكة 1414 هـ / 1994 م.
37. سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت 279 هـ) — تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون — دار إحياء التراث العربي — بيروت.
38. سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن (ت 255) — تحقيق فواز أحمد الزمرلي وخالد السبع العلمي — ط 1 — دار الكتاب العربي — بيروت 1407 هـ.
39. سنن النسائي لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (303 هـ) تحقيق عبد الفتاح أبوغدة — ط 2 — مكتب المطبوعات الإسلامية — حلب — 1406 هـ / 1986 م.
40. سير أعلام النبلاء لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت 748 هـ) — تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي — ط 9 — مؤسسة الرسالة — بيروت — 1413 هـ.
41. الشاطبي ومقاصد الشريعة الإسلامية لحمادي العبيدي.
42. شذرات الذهب لابن العماد — دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع — بيروت — 1409 هـ.
43. شرح الورقات في أصول الفقه لعبد الله بن صالح الفوزان — ط 5 — دار المسلم للنشر والتوزيع — السعودية — 1421 هـ / 2000 م.

44. شرح سنن ابن ماجة للسيوطي (ت 911 هـ) — قديمي كتب خانة — كراتشي.
45. شرح صحيح مسلم لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي (ت 676 هـ) — ط 2 — دار إحياء التراث العربي — بيروت — 1392 هـ.
46. الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية للدكتور سعيد بن مسفر — ط 1 — مكتبة الملك فهد الوطنية — السعودية — 1418 هـ / 1997 م.
47. صحيح ابن خزيمة لأبي بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة، تحقيق الدكتور مصطفى الأعظمي — طبعة المكتب الإسلامي — بيروت — 1992 م.
48. صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت 256 هـ) — تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا — ط 3 — دار بن كثير اليمامة — بيروت — 1407 هـ / 1987 م.
49. صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري — تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي — دار إحياء التراث العربي — بيروت.
50. الصراع على السلطة في سورية لنيكولاس فان دم — ط 1 — دار القلعة — بيروت — 1410 هـ / 1989 م.
51. طبقات الحفاظ لأبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911) — ط 1 — دار الكتب العلمية — بيروت 1403 هـ.
52. عبد القادر الجيلاني — الإمام الزاهد — للدكتور عبد الرزاق الكيلاني (سلسلة أعلام المسلمين — العدد 45) ط 1 — دار القلم دمشق — 1414 هـ / 1994 م.
53. العلاقة بين الفقه والدعوة لمفيد خالد عيد أحمد عيد، دار بن حزم.
54. العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد لعبد الحميد طهماز (سلسلة أعلام المسلمين العدد 11) ط 4 — دار القلم — دمشق — 1415 هـ / 1995 م.
55. علماء ومفكرون عرفتهم محمد المجذوب — ط 3 — دار الاعتصام — دمشق.
56. فتاوى ابن تيمية — جمع عبد الرحمن بن قاسم — طبعة الرئاسة العامة للبحرين الشريفين.

57. فتح الباري لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني — تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب — دار المعرفة — بيروت 1379 هـ.
58. فقه النوازل لبكر بن عبد الله أبوزيد ط 1 — 1416 هـ / 1966 م — مؤسسة الرسالة — بيروت.
59. الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة لعبد الرحمن عبد الخالق — ط 5 دار الحرمين للطباعة — القاهرة — 1414 هـ.
60. فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي — ط 1 — المكتبة التجارية الكبرى — مصر — 1356 هـ.
61. قاموس الجديد ط 10 — الأطلسية للنشر — تونس — 1417 هـ / 1997 م.
62. قواعد أساسية في البحث العلمي للدكتور سعيد إسماعيل صيني ط 1 — مؤسسة الرسالة — بيروت — 1415 هـ / 1994 م.
63. القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد — مطبعة المعاهد بمصر 1340 هـ.
64. القول في المسكرات لمحمد الحامد — ط 3 — مكتبة المنار بالزرقاء 1403 هـ / 1983 م.
65. اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الفارابي دمشق.
66. لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية لمحمد الحامد ط 3 — مكتبة المنار بالزرقاء — 1403 هـ / 1983 م.
67. لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور — ط دار صادر بيروت — بدون سنة الطبع.
68. لسان الميزان لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ط 3، 1406 هـ / 1986 م، مؤسسات الأعلمي للمطبوعات بيروت.
69. لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر للدكتور يوسف القرضاوي ط 1 — 1412 / 1992 م — مكتبة وهبة القاهرة.

70. مختار الصحاح للشيخ افمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي مراجعة لجنة من مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية — بدون تاريخ الطبع.
71. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية — ط 1 — بدون تاريخ — دار الكتب العلمية — بيروت.
72. مدخل إلى مقاصد الشريعة الإسلامي للدكتور أحمد الريسوني — المغرب 1997 م.
73. المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخریجات الأصحاب لبكر عبد الله أبوزيد.
74. مذكرات علي الطنطاوي ط دار المنارة — السعودية — جدة 1406 هـ — 1986 م.
75. مذكرات كسينجر في البيت الأبيض — ترجمة خليل فريجات — ط 1 طلاس للدراسات والترجمة والنشر — دمشق أيار 1985.
76. المستخلص في تزكية الأنفس لسعيد حوى — دار عمان — عمان.
77. المستصفى من علم الأصول للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي — ط دار إحياء التراث العربي.
78. مسند الإمام أحمد لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني — ط مؤسسة قرطبة — مصر.
79. مسند الطيالسي لسليمان بن داود البصري الطيالسي — دار المعرفة — بيروت.
80. المصنف للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني — تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي — طبعة المكتب الإسلامي — بيروت — 1983 م.
81. معالم في منهج الدعوة للدكتور صالح بن حميد — ط 1 — دار الأندلس الخضراء جدة — 1420 / 1998 م.
82. المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني — تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي — ط 2 — مكتبة العلوم والحكم — الموصل 1404 هـ/1983 م.
83. معجم المؤلفين لعمر كحالة — ط مؤسسة الرسالة — بيروت — 1414 هـ — 1993 م.

84. مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر بن عاشور — طبعة الدار التونسية للنشر
1978م
85. مقدمة بن خلدون لعبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر الاشيلي
التونسي المالكي — دار المصحف بالقاهرة.
86. الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني — تحقيق محمد سيد كيلاني — طبعة دار
المعرفة.
87. المنتقى لابن الجارود أبو محمد عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري — تحقيق عبد الله
عمر البارودي — ط 1 — مؤسسة الكتاب الثقافية — بيروت 1408 هـ / 1988
م.
88. منهج ابن تيمية في الفقه للدكتور سعود صالح العطيشان — ط 1 — مكتبة العبيكان
للنشر والتوزيع — بدون تاريخ.
89. الموافقات في أصول الشريعة لأبي اسحاق الشاطبي — ضبط وتعليق عبد الله دراز — دار
المعرفة — بيروت — بدون تاريخ.
90. نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام لمحمد الحامد — ط 1 — مطبعة العلم — دمشق —
1382 هـ / 1963م.
91. نكاح المتعة حرام في الإسلام لمحمد الحامد — ط 3 — مكتبة المنار بالزرقاء 1403 هـ
/ 1983م.
92. هذه تجربتي.. هذه شهادتي لسعيد حوى ط 1 — دار التوفيق النموذجية — مصر
1407 هـ / 1987م.
93. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن
خلكان — تحقيق الدكتور احسان عباس — دار صادر — بيروت — بدون تاريخ.

مجالات:

94. مجلة حضارة الإسلام العدد الثالث من السنة العاشرة 1389 هـ / 1969 م.
95. مجلة المجتمع الكويتية العدد 1399 بتاريخ 15 / 5 / 2000م

96. مجلة الجندي المسلم العدد 103 بتاريخ 1 / 2 / 2001 م
97. مجلة المجتمع الكويتية العدد 1466 بتاريخ 1 / 9 / 2001 م
98. مجلة المجتمع الكويتية العدد 1500 بتاريخ 11 / 5 / 2002 م

مواقع على الانترنت:

99. www.altareekh.com
100. www.islamonline.net
101. www.wahy.com
102. www.aljazeera.net